شرح الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين

للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه اللّه

الدرس (١) والدرس (٢)

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٢/٠٣/٢٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

(المجلس الأول)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد..

فإن أعظم النعم وأجلَّ المنَّن نعمة التوحيد، والمعرفة بالله عَزَّوَجَلَّ، وأسمائه وصفاته وعظمته ووحدانيته، وأنه الرب الحميد المعبود بحق ولا معبود بحقٍ سواه، فإن هذه المعرفة، والتوحيد لله، وإخلاص الدين له -جل في علاه- هي أجلُّ النعم، ومن كان معه التوحيد فإن معه أثمن ما في هذه الحياة، ومن فقد التوحيد فإنه خسر الخسران المبين في دنياه وأخراه وإن ملك ما ملك، فليحمد المسلم ربه أن جعله من أهل الإيمان والتوحيد، وأن أبقى له فطرته السليمة متبعًا هدي النبيين وسننهم المبارك، وكلما تجدد صباح يومٍ متجددًا فيه هذا الإيمان والتوحيد؛ فإنه تجدد نعمةٍ هي من أعظم النعم وأجلِّها تستوجب حمد المنعم وشكره -جل في علاه-.

ومن المأثور في أذكار الصباح: "أصبحنا على فطرة الإسلام، وعلى كلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين"، يقول المسلم هذا كل صباحٍ متذكرًا تجدد هذه النعمة التي هي أجلُّ النعم وأعظمها وأفضلها، أن أصبح على الفطرة، وعلى الحنيفية السمحة، وعلى ملة إبراهيم الخليل، وعلى دين نبينا محمد عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

وهذه الفطرة محاربة حربًا شرسة، حربًا شديدة، حربًا مستمرة مع مر الليالي والأيام، فيحتاج المقام إلى حفظ هذا الكنز الثمين والعناية به، والرعاية له حتى لا يجني عليه الجناة، وحتى لا تطوله أيدي المعتدين، وأهل العلم قيضهم الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ في كل زمانٍ حُماةً لدين الله، ورعاةً للدين، يذبون عن حماه، ويردون كيد الكائدين، ويكشفون زيغهم وضلالاهم وباطلهم، ولا يزال الأمر سجال بين أهل الحق والباطل، لكن الصولة للحق، والغلبة له والظهور له؛ لأن أهله مؤيدون بتأييد الله، محفوظون بحفظه -جل في علاه-.

وفي هذه الأزمان المتأخرة، ومن خلال الأجهزة الحديثة ووسائل الاتصال التي لم يكن لها وجودٌ في زمنٍ سابق مع قلة علمٍ بالدين وبصيرةٍ به في أبناء المسلمين، تسلل الأعداء من خلال هذه الأجهزة بثًا للشبهات، فلم تصبح القضية قضية انتشار بدعة، أو خرافة من الخرافات أو نحو ذلك، بل بلغ الأمر في هذه الهجمة؛ هجمة الأعداء على العقول أن أثرت في بعض الناشئة وبعض الشبيبة إلحادًا في الدين، فالأمر يتطلب يقظةً من أهل

العلم وطلابه في الوقوف على هذه البراهين؛ براهين الحق والهدى التي يؤصل بها الحق ويقرر، وأيضًا البراهين التي فيها التصدي لشبهات أهل الباطل وضلالهم.

وكما هو معلوم في تقريرات أهل العلم لمسائله وأصوله ودلائله، تتناول جانبين:

- جانب تأصيل الحق وتقريره بدلائله.
- وجانب رد الباطل ودحضه، وبيان زيفه وبطلانه.

وفي هذا الباب الذي نتحدث عنه أَلَّف الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مؤلفين نافعين للغاية كلاهما في هذا الباب:

الأول: منهما في التأصيل والتقرير، وهو الكتاب الذي فرغنا من قراءته قريبًا بعنوان: [**البراهين العقلية على وحدانية الله**] ساق فيه براهين عظيمة، وحجج بينة، وأدلة قاطعة واضحة في تقرير هذا الأمر وتأصليه.

وكتابه الآخر الذي بين أيدينا هذا في الرد، ودحض شبهات أهل الباطل، وكشف ضلالهم، وتعرية أصولهم المزعومة التي أقاموا عليها باطلهم، أسماه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين**] وهو على ما سماه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدلة واضحة ظاهرة بينة قاطعة داحضة لشبهات أهل الباطل، كاشفة لزيغهم وضلالهم.

وأرى أن الحاجة ملحة جدًا إلى قراءة هذا الكتاب والانتفاع من مضامينه العظمية وفوائده الثمينة، وأن يُعمل على نشر هذا الخير والحجج البينات، والأدلة القواطع الظاهرات التي ضمنها رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه هذا النافع.

وللشيخ عبد الرحمن رَحِمَهُ ٱللَّهُ عناية كبيرة جدًا بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ولهذا أقام كثيرًا من مضامين هذا الكتاب على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وكتب ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبخاصةٍ كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، وخاصة ما كان منها في دحض شبهات الملاحدة وأهل الضلال والباطل، وهو يُحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ انتقاء الفوائد، ويُحسن ترتيبها وعرضها وبيانها، فجاء هذا الكتاب خلاصةً نفيسة وزبدة ثمينة جدًا مستخلصة ومنتقاه بدقة في دحض الشبهات؛ شبهات الملحدين، وبلغ عدة هذه الوجوه التي يدحض بها شبهاتهم ما يزيد على الثمانين وجهًا.

فنسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجزيه خير الجزاء، وأن يجزي علماءنا خير الجزاء، وأن يبارك في جهودهم، وأن ينفع بها النفع العظيم، وأن يرد كيد الأعداء، وأن يكف بأسهم وشرهم وآذاهم، وأن يحفظ على المسلمين دينهم

وأمنهم وإيمانهم وصلاحهم، وأن يحفظ لهم أبناءهم وذرياتهم، وأن يكفيهم شر الأعداء ونزغات الشيطان، وأن يُصلح لنا أجمعين ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأن يصلح لنا أخرتنا التي فيها معادنا، وأن يجعل الحياة زيادةً لنا في كل خير، والموت راحةً لنا من كل شر إنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.

جاء في آخر هذه النسخة، ولا أدري هل هي أيضًا في نسخة الإخوان، جاء في آخره تعريفٌ بالكتاب، ربما تكون عندكم في أوله: "أولها هذا الكتاب عظيم ليس له مثيلٌ فيما نعلم في موضوعه وحسنه ووضوحه"، وأيضًا جاء كلمة لتلميذ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا في التعريف بهذا الكتاب، فيحسن أن نقف عليها قبل الدخول في مضامين هذا الكتاب.

المتن:

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريفٌ بكتاب الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين:

هذا الكتاب عظيمٌ ليس له مثيلٌ فيما نعلم في موضوعه وحسنه ووضوحه ومناسبته للوقت الحاضر، والحاجة والضرورة قد اشتدت إليه؛ لأن تيار الإلحاد وطغيان المادة جرف جمهور الخلق؛ فمنهم الدعاة والرؤساء المخادعون المغرِّرون، ومنهم أهل السياسة المستعمرون، ومنهم ضعفاء البصائر المغترون، ومنهم السماسرة المأجورون المنافقون؛ فعمت المصيبة، واشتد الخطب، وعاد الدين الصحيح غريبًا كما بدأ غريبًا، وصار القابض على دينه الحق كالقابض على الجمر.

وهذا الكتاب قد نازل جميع طوائف الملحدين وتحداهم، وأبطل أصولهم وفنَّد مآخذهم، وهدم قواعدهم، وزلل بنيانهم، وبيَّن مخالفتهم للعقل والفطرة والحكمة، كما خالفوا جميع الأديان الصحيحة، وتكلم معهم بكل طريق: فتارة يصور مقالاتهم تصويرًا واضحًا واقعيًا يعرف به كل عاقلٍ بطلان أقوالهم بمجرد تصوريها على وجهها، وتارةً يُبطل الأصول التي بنوا عليها إلحادهم بالبراهين اليقينية، ويُبين أنها أصولٌ في غاية الضعف والانهيار، وتارةً يذكر ما يقابلها من الحق وأصوله، وبراهين الصدق واليقين التي يُعرف بها إنما سواها باطلٌ وضلال، وتارةً يذكر تمويهات الملحدين وما زخرفوه من الألفاظ الخادعة لنصر باطلهم وترويجه بين ضعفاء البصائر أتباع كل ناعق، وتارةً يُشير إلى المسالك التي سلكها من خادع أو انخدع من المنافقين والملبسين،

وهو سلاحٌ للمؤمنين، وغذاءٌ للموقنين، ودواءٌ لمن قصده الحق من الحائرين، ونورٌ يُهتدى به في متاهات الحيرة والضلال، وعلمٌ يأوي إليه كل طالب حقٍ في جميع الأحوال، ومع ذلك فقد سلك مع طوائفهم مسلك الإنصاف، وعرض الحقائق على العقول عرضًا واضحًا يقبله كل عاقلٍ سليم الفطرة والنظر، وهو كتابٌ يصلح لجميع طبقات الناس على اختلاف مذاهبهم، فكل منه يستمد، وكل قارئٍ به ينتفع، ومخبر الكتاب والوقوف عليه يُغني عن وصفه.

الشرح:

هذا تعريف بالكتاب، هو تعريف من خبر هذا الكتاب وعرفه، وعرف محتوياته ومضامينه، وأظن ولا أجزم أن هذا التعريف هو من كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، وليس هذا من الثناء على نفسه في شيء أو على مؤلفاته، وإنما أراد به التنبيه على قيمة هذا الكتاب ومكانته العلمية والحاجة إليه، وخلاصةً لمحتوياته، ومضامينه العظيمة التي حواها، والأسلوب يغلب عليه أسلوب المصنف نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

المتن:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العليم الحكيم، وصلى الله على نبيه الكريم الهادي إلى الحق وإلى طريقٍ المستقيم وعلى آله وصحبه، أما بعد..

فهذا الكتاب جليل يتضمن أدلةٌ قاطعةٌ وبراهينٌ ساطعة، هي نجومٌ زاهرة في سماء المشكلات، وهي شهبٌ تنقض فتدحض شبه الملحدين، بل هذه الأدلة وهذه البراهين خير معاولٍ لهدم أصولهم، وتقويض صروح قواعدهم التي أُسست على شفا جرفٍ هار، وانبنت على دعائم ما أوهنها من دعائم.

فحقيقٌ بالقارئ أن يتأمل الكتاب حق التأمل، ليرى النور كيف يكتسح الظلمات، وليرى العلم كيف يصرع الجهل، وليرى الحق كيف يحمل على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

جزى الله الشيخ عبد الرحمن عن الدين وحامليه، وعن العلم وذويه، خير الجزاء بمنِّه تعالى وكرمه.

الشرح:

هذا تعريف بالكتاب لتلميذ المؤلف، صاحب أيضًا التصانيف الكثيرة الشيخ عبد الله بن سليمان بن عبد الله السلمان، وكتب أو نسخ هذا الكتاب في حياة المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأن الشيخ عبد الرحمن بن سعدي فرغ من تأليف هذا الكتاب في شهر رجب عام ١٣٧٢هـ، وتلميذه البار عبد الله فرغ من نسخه في السادس من رمضان في

السنة نفسها ١٣٧٢، فهذا التعريف الذي في الكتاب الذي قُرئ أولًا هو فيما أظن للمصنف نفسه، ثم من بعده تعريفٌ من ناسخ الكتاب تلميذه، وقد نسخه في حياة شيخه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

وفي كِلا التعريفين بالكتاب إظهار لقيمة الكتاب العلمية ومسيس الحاجة إليه، وما حواه من حجج قاطعة وبراهين واضحة داحضة لشبهات الملحدين، وهو كما ذُكر في التعريف به الحاجة إليه ماسة جدًا أن يُقرأ، وأن يوقف على مضامينه لتكون سلاحًا للمسلم ينفعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به في دحض الباطل ورد زيف أهله، ونشرع الآن مستعينين بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، طالبين مده وعونه وتوفيقه في قراءة هذا الكتاب.

المتن:

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف: الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين، أما بعد..

فإن الله تعالى بعث رسله مبشرين ومنذرين، وجعلهم الهداة والأئمة إلى كل علمٍ صحيحٍ نافعٍ ودينٍ صحيح وإلى كل صلاحٍ وخير، وخص محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن جعله خاتمهم وإمامهم، وأنزل عليه الكتاب والحكمة فيهما الهدى والحق والنور، وفيهما العلوم النافعة، والحقائق الصادقة، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة، والآداب العالية، إليهما ينتهي كل علمٍ وحقٍ وكمال.

وقد وضَّح الله ورسوله فيهما المسائل والدلائل والحقائق اليقينية والبراهين القطعية، فمن تمسك بهما واهتدى بهما سعد في الدنيا والآخرة، ومن أعرض عنهما أو عارضهما ضلَّ عن الهدى وشقي ونال الصفقة الخاسرة.

الشرح:

هذا تأسيسٌ بدأ به رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو من حسن البدء، ذكَّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى بنعمة الله العظيمة ببعثة الرسل دعاةً إلى الحق وهداةً للخلق، والرسل هم صفوة العباد وخيارهم اصطفاهم الله جَلَّ وَعَلَا واجتباهم لبيان دينه، فهم واسطةٌ بين الله وخلقه في بلاغ دين الله وبيانه للعباد، فالعلم ما جاءت به الرسل، والدين ما جاءت به الرسل، والأخلاق ما جاءت به الرسل، والمعاملات الحسنة ما جاءت به الرسل، والهدى والفلاح فيما جاءت به الرسل، وسعادة الدنيا والآخرة متوقفةٌ على أتباع الرسل، وسلوك سبيلهم واتباع هداهم.

بعثهم الله جَلَّوَعَلَا مبشرين ومنذرين، و هداةً إلى كل خير، ودعاةً إلى كل فضيلة، قامت دعوتهم على توحيد الله، وإخلاص الدين له، وإفراده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالعبادة، وبيَّنوا صفة العبادة المتقبلة التي هي دين الله الذي رضيه لعباده ولا يرضى لهم دينًا سواه، ولا يمكن أن يُعرف دين الله الذي رضي إلا من خلالهم، ولا يمكن أن يُعرف شرع الله جَلَّوَعَلَا إلا من خلالهم، وجاءوا بالأخلاق الفاضلة، والآداب الكاملة، والمعاملات الحسنة الطيبة، جاءوا بكل خير ونهوا عن كل شر، فالفلاح كل الفلاح، السعادة كل السعادة في الدنيا والآخرة إنما تكون باتباع المرسلين.

أنزل على خاتمهم -صلوات الله وسلامه عليه- (**أنزل عليه الكتاب والحكمة فيهما الهدى والحق والنور، وفيهما العلوم النافعة، والحقائق الصادقة، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة، والآداب العالية**)؛ هذا تأسيس كما قلت لا بد من استحضاره بين يدي هذا الكتاب.

أولًا: من خلاله يُدرك المسلم عظم نعمة الله عليه أن جعله من أتباع المرسلين، ومن لم يكن من أتباع المرسلين كان متبعًا للباطل، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [سورة يونس، من الآية:٣٢]؛ من لم يكن متبعًا للمرسلين لازمًا الحق الذي جاءوا به فهو متبعًا للباطل، ومع ذلك يغتر من لا يتبع دين الرسل بما عنده من العلم وهذه مصيبة عظيمة وبلية كبيرة؛ لأن من الناس من قد يُفتح عليه في بعض العلوم الدنيوية؛ فيغتر ويتكبر على الحق الذي جاءت به الرسل، ويتعالى على الحق مترفعًا بهذا العلم القليل الذي حصله.

والأمر كما قال الله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [سورة غافر، من الآية:٨٣]؛ وهذه مصيبة، ولهذا ينبغي وهذه نصيحة أقولها ديانةً ينبغي على من أراد أن يتعلم شيئًا من العلوم الدنيوية أن يكون عنده زاد من العلم الشرعي يُحصن به نفسه، ينبغي أن يكون عنده زادٌ من العلم الشرعي يحصن به نفسه عن شبهات أهل الباطل، وأن يكون عنده تدين وصلاح أيضًا يُحصن به نفسه عن الشهوات المطغية المهلكة، فإذا اشتغل بالعلوم الدنيوية وانصرف تمامًا عن قدرٍ ونصيب من العلم الشرعي يُحصن به نفسه؛ فالأمر قد يلحقه ما يلحقه من الخطورة عليه في دينه، إذ قد يصل إلى مثل هذه النتيجة ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [سورة غافر، من الآية:٨٣].

هذا الذي أحدث عنه قد يُثمر في صاحبه كبرًا على الحق، فيُصبح مجادلًا بالباطل، ولهذا أيضًا نستحضر في هذا المقام آيةً أخرى في السورة نفسها؛ سورة غافر أن الآية التي أشرت جاءت في خاتمتها أو أواخرها، وهي قول

الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾ [سورة غافر، من الآية:٥٦]؛ سبحان الله ارتباط بين هذه الأمور، إن أقبل على الدنيا وعلومها معرضًا عن الحق فرح بهذا العلم، ثم أخذ يجادل بالباطل ويتكبر على الحق، حتى ربما بلغ الأمر ببعضهم أن يتكبر على أعظم الحق، وأكبر الحقائق وأوضحها، وأبين البراهين وأصدقها، فيقع في هذا الإلحاد الخطير الذي هو أعظم آفةٍ وأشدها.

أقول: هذه البداية وهذا التأسيس مهم جدًا للغاية، والبدء به من أنفع ما يكون، فهذا يُعتبر أساس وأصل متين يُقام عليه دحض هذه الشبهة، ودحض كل باطل، ودحض كل ضلال.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: وأعظم الناس انحرافًا عنهما ملاحدة الفلاسفة، وزنادقة الدهريين، وهم أكبر أعداء الرسل في كل زمانٍ ومكان، وهم شرار الخلق، الدعاة إلى الضلال والشقاء، فإنهم تصدوا لمحاربة الأديان كلها، وزين لهم الشيطان علومهم التي فرحوا بها واحتقروا لأجلها ما جاءت به الرسل، ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [سورة غافر، من الآية:٨٣]؛ وقد أصلوا لباطلهم أصولًا يقلدوا فيها بعضهم بعضًا، وهي في غاية الفساد، يكفي اللبيب مجرد تصورها عن إقامة البراهين على نقضها؛ لكونها مناقضةً للعقل والنقل ولكنهم زخرفوها وروجوها فانخدع بها أكثر الخلق.

الشرح:

ذكر هنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا المدخل الذي من خلاله يدخل في الموضوع وهو إبطال أصول الملحدين، ذكر هنا أن أعظم الناس انحرافًا عن دين الرسل -عليهم صلوات الله وسلامه- أهل الإلحاد، زنادقة الناس، وضلال الخلق، أو أشدهم ضلالًا الملاحدة، ويُراد بالإلحاد إنكار وجود الله، وإنكار دينه، وإنكار ما جاءت به رسله -صلوات الله وسلامه عليهم-، وإنكار البعث والجزاء والحساب.

والأصل في الالحاد هذه الكلمة يُراد بها: الميل والعدول عن الحق، وإذا قيل الملحد أو الملاحدة يُراد به أعظم الناس وأشدهم ميلًا عن الحق ومكابرةً في رد الحق، وهم من يُنكرون أعظم الحقائق وأجلها وأوضحها وأصدقها، وحدانية الله، ووجوده، ودينه، ورسله، وما جاءوا به، والبعث، والجزاء، والحساب، وهم يقيمون ذلك على بعض الأصول يأتي الإشارة إلى شيءٍ منها ونقضها بكلامٍ متين، وتقريرٍ بينٍ واضح.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أعظمها عندهم أصلٌ خبيث منقولٌ عن معلمهم الأول "أرسطو" اليوناني المعروف بالإلحاد، والجحد لرب العالمين، والكفر به وبكتبه ورسله.

وهذا الأصل الذي تفرع عنه ضلالهم أنه من أراد الشروع في المعارف الإلهية فليمح من قلبه جميع العلوم والاعتقادات، وليسع في إزالتها من قلبه بحسب مقدوره، وليشك في الأشياء ثم ليكتفي بعقله وخياله ورأيه، وكملوا هذا الأصل الخبيث بحصرهم للمعلومات بالمحسوسات، وما سوى ما أدركوه بحواسهم نفوه.

الشرح:

هذا مثل ما ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هذا الأصل هو أعظم الأصول عند هؤلاء، وكل من أرادوا إدخاله في هذا المسلك الذي هم عليه دعوه إلى هذا المسلك من خلال هذا الطريق أن يمحو من قلبه جميع العلوم والاعتقادات، يعني أول ما يُطلب منه الخروج من الفطرة التي فطره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليها، وأن يكون شاكًا في كل شيء، منكرًا كل شيء، مكذبًا بكل شيء إلا ما قام على البراهين هكذا، ثم البراهين التي يقوم عليها الحق هي البراهين التي هم أصلوها وأسسوها لأتباعهم؛ فيقولون: لا تقبل شيئًا، ولا تصدق بشيء إلا شيئًا محسوسًا ملموسًا تراه وتشاهده، وأما ما سوى ذلك فإياك أن تقبله.

فإذًا أول ما يُبدئ مع مسخ الفطرة إن كانت باقية، «**خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَأَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ**»، هذا أول ما يكون الاجتيال بأن يُطلب منه التجرد من كل هذه الأمور، الفطرة التي نشأ عليها، الحقائق الدينية العظيمة التي نشأ عليها إن كان نشأ على الإسلام وعلى التدين، عدم القبول للكتب المنزلة ببراهينها وحججها، وما جاءت به الرسل؛ التجرد من هذا كله، ثم من بعد ذلك ألا يقبل من الأمور إلا الأمر الذي قام على البراهين، والبرهان عندهم ما دل عليه الحس والمشاهدة والمعاينة والواقع.

والله عَزَّوَجَلَّ في صفته لأهل الإيمان بل إنك عندما تقرأ القرآن من أول ما تقرأ من أوصاف أهل الإيمان: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[سورة البقرة، من الآية:٢-٣]؛ والمراد بالغيب أي: بكل ما غاب عنهم مما أخبرتهم به رسل الله، هذا الكلام عند الفلاسفة باطل تمامًا لا يمكن أن يُقبل؛ لأن الأصل أن يتخلى عن كل عقيدة، عن كل ثوابت متقررة راسخة، عن الفطرة التي فطر عليها، ثم لا يقبل إلا الشيء الذي دل عليها الحس والمشاهدة والمعاينة.

فهذا أعظم الأصول عند هؤلاء، ولا يقبلون بعد ذلك إلا ما أدركوه بحواسهم، فما لم يكن مدركًا بالحواس يُنفى ويُجحد، فتحت هذا التأصيل جحدوا وجود الله، جحدوا الملائكة، جحدوا الإيمان باليوم الآخر، جحدوا الأصول التي يقوم عليها دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جحدوها أصلًا أصلًا، فلم يؤمنوا بشيءٍ منها، فهذا

الأصل الباطل هو أعظم أصول هؤلاء، ولهذا ركز الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى على دحضه من وجوه كثيرة جدًا نافعة ومهمة للغاية، ومن المفيد لطالب العلم أن يقف عليها.

المتن:

قال: وقد بيَّن الناس على اختلاف نحلهم بطلان أصولهم، وأن أهلها قد خالفوا جميع الرسل وجميع العقلاء.

الشرح:

قبل هذا..

المتن:

وهذا أصلٌ أفسد عليهم علومهم وعقولهم وأديانهم، وقد بيَّن الناس على اختلاف نحلهم بطلان أصولهم، وأن أهلها قد خالفوا جميع الرسل وجميع العقلاء.

ومن أبلغ من تكلم عليها وأبطلها شرعًا وعقلًا شيخ الإسلام ابن تيمية، فإنه بين عدة وجوهٍ في فسادها وبطلانها، كل وجهٍ منها كافٍ في إبطالها، فكيف إذا اجتمعت! فننقل كلامه عليها ثم نتمم ذلك بما ييسره الله.

الشرح:

يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**هذا أصلٌ أفسد عليهم علومهم وعقولهم وأديانهم**)؛ إذا نظرت إلى هذا الكلام الذي هو يُعد عندهم أصلًا يقيمون عليه دينهم، هو في الحقيقة جهالة عظيمة جدًا، ولهذا كما قيل الإلحاد أخو الجهل وقرينه، أخو الجهل وقرين الجهل، وما يُسمى عند الملاحدة علمًا هو في الحقيقة جهل، فالإلحاد قائم على عدم العلم، والدين الصحيح قائمٌ على العلم والبصيرة.

ولهذا المسلم قامت عنده الدلائل الواضحات البينة التي هي العلم حقيقةً والنور والهدى، بينما الإلحاد ليس عندهم إلا الجهل والمكابرة، ولهذا كل ملحد جمع بين صفتين: (الجهل، والمكابرة) التكبر على الحق والتعالي عليه، ولا يخلو ملحد من هاتين الصفتين الجهل بالحق، الجهل العظيم، والتكبر على الحق والتعالي عليه.

فهذا الأصل أفسد عليهم علومهم وعقلوهم وأديانهم أصبحوا في جاهلية جهلاء، وضلالةٍ عمياء، ورد عليهم أهل العلم الردود الكثيرة، ومن أعظم من له ردود عظمية في هذا الباب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فكما قال المصنف: (**من أبلغ من تكلم عليها وأبطلها شرعًا وعقلًا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، فإنه بيَّن عدة وجوهٍ في فسادها وبطلانها، وكل وجهٍ منها كافٍ في إبطالها، فكيف إذا اجتمعت!**)؛ يعني: كل وجه من

هذه الوجوه التي نقلها كافٍ في فساد ما عليه هؤلاء، (**فكيف إذا اجتمعت!**)؛ فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فننقل كلامه عليها، ثم نتمم ذلك بما ييسره الله**)؛ وهذا تستفيد منه أن هذه الأصول العظيمة المباركة جمعها من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وخاصةً كتاب: [**نقض التأسيس**]، وأتمها بأشياء من عنده رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

ومن باب تمتين الفائدة لطالب العلم وتقويتها؛ أنصح أن يجلس طالب العلم مع هذه الفوائد يقارنها بالأصل، كل فائدة يقارنها ويرجع إلى أصلها ويطلع عليها، ثم يكون متعرفًا بدقة على الفوائد التي لخصها من كتب ابن تيمية، والفوائد التي قررها هو وبيَّنها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في نقض التأسيس لما ذكر عن هذا المعلم الملحد هذا الأصل الخبيث، والكلام على هذا من وجوه:

أحدها: أن هذا الكلام هو وما ذُكر معه من الحجة أشبه بكلام أهل الجهل والضلال، ومن لا يدري ما يخرج منه من المقال من كلام أهل العلم والعقل والبيان، وهو أشبه بكلام قُصاص الجهال، والمغالطين من كلام العلماء والمجادلين بالحق، وما أحسن ما قال الإمام أحمد في بشر المريسي: "كان صاحب خطب ولم يكن صاحب حجج، بل هذا الكلام دون كلام أهل الخطب والحجج".

الشرح:

هذا الوجه الأول في دحض هذا الأصل الذي يقوم عليه إلحاد هؤلاء، أن هذا الكلام وما ذُكر معه من الحجج أشبه بكلام أهل الجهل، ولهذا ينبغي أن تُعرف هذه الحقيقة أن الإلحاد قرين الجهل، وما يدعيه أربابه أن عندهم علومًا فليس الأمر كذلك، وإن كانت عندهم علومٌ فهي دنيويةٌ بحته، أما الحق والهدى والنور فليس عندهم منه شيء، ولهذا تجد في القرآن يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:٦-٧]؛ فالعلم الذي عندهم هي علوم دنيوية بحته، أما العلم الذي هو الهدى والنور والضياء وموجب سعادة المرء في دنياه وأخراه، فهم في جهلٍ عظيمٍ به، بل جهلٍ تام به، ولهذا الإلحاد هو قرين الجهل تمامًا، فجمع الملحد على نفسه بمصيبتين الجهل بالحق، والتكبر، الجهل بالحق والتكبر والتعالي على الحق، فيصبح يُجادل ويُخاصم لكنه لا علم عنده خلوٌ من العلم تمامًا، لا بصيرة عنده.

فمثل ما نقل الإمام شيخ الإسلام عن الإمام أحمد أنه قال في بشر: (**"كان صاحب خطب ولم يكن صاحب حجج"**)؛ إذا كان يُقال عن مثل هذا صاحب خطب فهؤلاء مثل ما قال ابن تيمية (**"دون كلام الخطب ودون الحجج"**)؛ لا خطب ولا حجج جاهلية جهل وضلالة عمياء، هذا ما يتعلق بالوجه الأول.

خلاصته: أنه إطلاقا لا حجة عندهم، كل ما عندهم مما يبنون عليه أقوالهم زخرفة، زخرفة وتزيين للباطل ليغتر به الجاهل مثلهم والساذج.

المتن:

الوجه الثاني: أن يُقال: ألم يكن في آثار الأنبياء والمرسلين ما يُستغني به في أعظم المطالب وأشرف المعارف، عما يروون عن معلم المبدلة الصابئين الذين انتقلوا عن الحنيفية الثابتة بالعقل والدين، وهو رأس هؤلاء الدهرية.

الشرح:

الآن في الائتمام هذه مسألة مهمة جدًا في رد الباطل، لا يستغني مريد الحق عن الائتمام بحملة الحق ودعاته، فمن لم يأتم بأهل الحق ائتم بأهل الباطل، ائتم بأهل الضياع، ولهذا تأمل قول الله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٢١]؛ ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [سورة الممتحنة، من الآية:٤]؛ فهذا الائتمام مهم جدًا في صلاح المرء واستقامته، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٩٠]؛ ولهذا من لم يأتم بأهل الحق صار إمامه الباطل، من لم يكن مؤتمًا بأهل الحق صار إمامه الباطل، من لم يكن إمامه الكتاب والسُّنَّة والرسل الكرام وإتباع المرسلين صار إمامه الباطل.

ولهذا يقول: (**ألم يكن في آثار الأنبياء والمرسلين ما يُستغني به في أعظم المطالب وأشرف المعارف، عما يروون عن معلم المبدلة الصابئين**)؛ وهذا حقيقة فيه تنبيه على أمر مهم هو ينشأ عن الخذلان والضعف ورقة الدين، عندما ينتقل المرء في طلب علومه على أيدي هؤلاء الضائعين المبدلين المنحرفين الزائغين، ولهذا العصمة والأمنة والسلامة والعافية والنجاة إنما هي باتباع المرسلين، وسلوك ما جاءوا به من الحق والهدى والخير، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[سورة الأنعام، من الآية:٩٠].

المتن:

الوجه الثالث: أن جميع العقلاء الذين خبروا كلام "أرسطو" وذويه في العلم الإلهي قد علموا أنهم أقل الناس نصيبًا في معرفة العلم الإلهي، وأكثر اضطرابًا وضلالًا، فإن كلامه وكلام ذويه في الحساب والعدد ونحوه من الرياضيات مثل كلام بقية الناس، والغلط في ذلك قليلٌ نادر، وكلامهم في الطبيعيات دون ذلك، وكلامهم في ذلك غالبه حقٌ وفيه باطل، وأما كلامهم في الإلهيات ففي غاية الاضطراب ومع قلته كثير الضلال وعظيم المشقة، وهذا أمرٌ يعرفه كل من له نظرٌ صحيح في العلوم الإلهية، فلا يُستدل بكلام هؤلاء في العلم الإلهي وحالهم هذه الحال.

وقد اعترف أساطين الفلسفة بأن العلم الإلهي لا سبيل لهم إلى العلم واليقين فيه، وإنما يؤخذ فيه بالأولى والأخلق والأحرى فيه، فإذا كانوا معترفين بأنهم ليس عندهم علمٌ ولا يقينٌ في العلم الإلهي، فكيف يُستدل بكلامهم فيه؟!

الشرح:

هذا استدلال على بطلان ما عليه هؤلاء أنهم في اضطراب، وتناقض، وأمرٍ مريج، وخلقٍ في العلوم، ولهذا الواحد منهم يتنقل من عقيدةٍ إلى عقيدة بحسب من يتلقى عنهم، أو بحسب الفكر الذي يصل إليه تفكيره وعقله، ولهذا يُعرف هؤلاء بكثرة التنقل، والتلون، وعدم البقاء على دينٍ واحد، وإذا كان السلف قديمًا قالوا: "من جعل دينه عرضةً للخصومات أكثر التنقل"، فكيف الشأن بهؤلاء الذين أصلًا دينهم قائم على التجرد من الحق كله، والإعراض عن الحق كله، والصدود التام عما جاءت به الرسل، والشك التام في كل الحقائق، ولهذا هم من أعظم الناس اضطرابًا وتناقضًا.

وأما الذي جاءت به الرسل وحي الله المنزل، فالشأن فيه كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء، من الآية:٨٢]؛ فهذا الذي عليه الفلاسفة وهؤلاء الضلال هو تناقض واضطراب وتعارض وتصادم، حتى في الأصول التي يقررونها، فهل مثل هؤلاء يصلح أن يُتلقى عنهم، وأن يُؤخذ عنهم، وأن يعتمد على آرائهم وتقريراتهم وهم أنفسهم في تناقض، وأقوالهم متعارضة ومتصادمة، كيف يُستدل بكلام هؤلاء في العلم الإلهي وحالهم هذه؟ كما قال شيخ الإسلام، بل اعترف أساطين هؤلاء بأنهم ليس عندهم يقين، لم يصلوا من خلال علومهم إلا إلى الشك.

المتن:

الوجه الرابع: ما معنى قوله فليستحدث لنفسه فطرةً أخرى؟ والفطرة: هي الخلقة التي فطر الله عباده عليها، أتريد أن يبدل خلقته وما فيها من قوى الإدراك والحركة؟ فهذا غير مقدورٍ للبشر، فإن الله فطر عبادة عليها، أم تريد أن يترك ما فُطر عليه من المعارف والعلم ويستحدث لنفسه معارف تخالف ذلك، وهذا الذي يصلح أن تريده.

فهذا أمرٌ بتبديل فطرة الله التي فطر عبادة عليها، وهي طريقة المبتدعين المبدلة لفطرة الله وشرعته، كما قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**كُل مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ**»، الحديث، فأهل الكتاب المنزل بدلُّوا وحرفوا من كتاب الله ما بدلوه وحرفوه، وهم مع الصابئة والمشركين القائمين بالنظر العقلي، بدلُّوا من فطرة الله التي فطر عباده عليها وغيروا منها ما غيروا.

ولهذا قيل: إن أرسطو هذا بدَّل طريقة الصابئة الذين كانوا قبله مؤمنين بالله واليوم الآخر الذين أثنى عليهم القرآن.

والله سبحانه خلق عباده على الفطرة التي فطرهم عليها، وبعث إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه، فصلاح العباد وقوامهم بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة، وهؤلاء بدلوا وغيروا فطرة الله وشرعته -خلقه وأمره-، وأفسدوا اعتقادات الناس وإرادتهم، إدراكهم وحركاتهم، قولهم وعملهم، من هذا وهذا كما بدَّل بنو إسرائيل القول الذي أُمروا به، والعمل الذي أُمروا به.

الشرح:

هذا الوجه الرابع هم قالوا في تقرير أصلهم السابق قالوا: (**فليستحدث لنفسه فطرةً أخرى**)؛ يخرج من الفطرة التي فُطر عليها، ويستحدث لنفسه فطرةً أخرى، وهذا كلام عجيب! وضلالٌ بيِّن؛ لأن هذا الذي فُطر العباد عليه كلهم مثل ما جاء في الحديث الذي أورده المصنف: («**كُل مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ**»)؛ هذا يشمل أبناء اليهود، أبناء النصارى إلى غيرهم، «**كُل مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فأبواه فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»، كل مولود يولد على الفطرة، فالتغير انسلاخ من هذه الفطرة وانحراف.

وفي الحديث آخر وفي صحيح مسلم حديث قدسي يقول الله: «**خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَأَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**»؛ لاحظ هنا ملاحظة مهمة أن دين الفلاسفة يرتكز أولًا على اجتثاث الناس من فطرة الله التي فطر العباد عليها، ولهذا من أول مطالبهم أن يطلبوا ممن يدعونه إلى ما عندهم أن ينسلخ من الفطرة، أن ينسلخ من الفطرة التي فطر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ الناس عليها، وهذه فطرة جُبلت القلوب عليها، أمر

مرتكز في القلوب جُبلت عليها؛ فيطلبون منه أن ينسلخ من هذه الفطرة، ثم يستحدث فطرةٍ جديدة، وهذا من أعجب الكلام! ومرادهم بالفطرة الجديدة ما يملونه هم على أتباعهم من نتاج أفكارهم وعقولهم الزائغة المنحرفة، فحاصل ما عليه هؤلاء: إخراج الناس من الفطرة التي فطر الله الناس عليها إلى الباطل الذي هم عليه.

أيضًا تلخيصٌ آخر لحقيقة أمر هؤلاء تستفيد من الحديث مقارنةً بما ذُكر هنا؛ الحديث قال فيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: قال الله تعالى: «**خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَأَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**»؛ إذا كان يطلب هؤلاء أول ما يطلبون من أتباعهم أن يستحدثوا فطرةً جديدة؛ إذًا أصبحت مهمتهم مهمة من؟ الشيطان «**فَأَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**»؛ فأصبحت مهمتهم مهمة الشيطان في الاجتيال، اجتيال الناس عن دينهم بأن يكون أول ما يبدئون به مع من يستمع إليهم، أو يُصغي إلى علومهم أن يُجتث أولًا من الفطرة التي فطره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليها.

(**ما معنى قوله فليستحدث لنفسه فطرةً أخرى؟**)؛ والفطرة هي الخلقة التي خلق الله الناس عليها، فطرة الله التي فطر الناس عليها (**أتريد أن يبدل خلقته وما فيها من قوى الإدراك والحركة؟ فهذا غير مقدورٍ للبشر، فإن الله فطر عبادة عليها، أم تريد أن يترك ما فُطر عليه من المعارف والعلم ويستحدث لنفسه معارف تخالف ذلك**)؛ يعني خلاصة الأمر؛ وهذا هو الذي يريدونه أن يترك الحق والهدي الذي فُطر عليه، وجاءت الرسل بتأييده وتأميمه وتكميله، أن يترك ذلك إلى ما عندهم من ضياعٍ وضلالٍ وباطل.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

(المجلس الثاني)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أمَّا بعد...

المتن

فيقول العلَّامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتابه [**الأدلَّة القواطع والبراهين في إبطال أصول المُلحدين**]: «الوجه الخامس: أنَّ الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أخبرنا بشيءٍ من صفات الله وَجَبَ علينا التصديق به، وإن لم نعلم ثبوته بعقولنا، ومَن لم يُقِرَّ بما جاء به الرسول حتى يعلمه بعقله؛ فقد أشبه الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾

[سورة الأنعام، من الآية:١٢٤].

ومَن سَلَكَ هذا السبيل فهو في الحقيقة غير مؤمنٍ بالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا متلقٍّ عنه الأخبار بشأن الربوبية، ولا فَرْق عنده أن يُخبر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيءٍ من ذلك أو لم يُخبر به، فإنَّ ما أخبَرَ به إذا لم يعلمه بعقله لا يُصدِّق به».

انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الشرح:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمَّا بعد..

فهذا (**الوجهُ الخامسُ**)، من الوجوه التي ذَكَرَها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في الردِّ على أعظم الأصول التي بُنِيَ عليها الإلحاد، وعرفنا أنَّ أعظم أصول هؤلاء أنَّ مَن أراد الشروع في المعارف الإلهية فليمحُ من قلبه جميع العلوم والاعتقادات، وليمحُ أيضًا من قلبه الفطرة التي فَطَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العباد عليها.

ثم يوجِّهونه من بعد ذلك إلى أن يكون إيمانه قاصرًا على ما يُشاهَد ويُحَسُّ، وهذا فيه جَحْد للإيمان بالغيب الذي هو أشرف صفات المؤمنين وأعظمها، وفيه جَحْدٌ لجميع الأصول (أصول الديانة، أصول الاعتقاد)، جَحْدٌ للإيمان بالله وبكُتُبه وبرُسُله وباليوم الآخر وبالقدر، كلُّ هذا جَحْده داخلٌ تحت هذا الأصل الخبيث.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذَكَرَ وجوهًا في إبطال هذا الأصل الفاسد، استخلص كثيرًا منها من كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى [**نَقْض التأسيس**]، مع فوائد كثيرة يُضِيفها ويَذْكُرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

قال: (**الوجه الخامس: أنَّ الرسول** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إذا أخبرنا بشيءٍ من صفات الله وَجَبَ علينا التصديقُ به، وإن لم نعلم ثبوته بعقولنا**)؛ بمعنى: أنَّه لا يجوز للمسلم أن يُخضِعَ أحاديث النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأخباره الصادقة لعقله، فيَقبَل ما يقبله عقله، ويرُدّ ما لا يقبله عقله.

لأنَّه إن كان بهذه الصفة لم يكُن ما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنده مقدَّمًا؛ وإنَّما المُقدَّم عنده ما يتصوَّره عقله أو يتوصَّل إليه فكره القاصر.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ومَن لم يُقِرَّ بما جاء به الرسول حتى يعلمه بعقله؛ فقد أشبه الذين قال الله فيهم**: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٢٤])؛ يعني: عقولنا لا تقبل هكذا ما جاءت به الرُّسُل؛ إلَّا أَنْ نُؤتَى مثل ما أُوتِيَ الرُّسُل، أي: يكون لنا مثلهم نبوة خاصة، ورسالة خاصة، وحيٌ خاص.

ونحن نعلم -معاشر المسلمين- أنَّ حكمة الله جَلَّ وَعَلَا اقتضت أن تكون الرسالة في صفوة العباد، فيمَن اجتباهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واصطفاهم؛ لا أن يكون الوحي ينزل على كل فرد من أفراد المُكلَّفِين بما يريده الله، وبما يأمُر به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وإنَّما اقتضت حكمة الله أن يصطفِي من الملائكة ومن الناس رُسُلًا ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج، من الآية:٧٥].

وهذا الاصطفاء عن علم وحكمة وخبرة؛ فالله عَزَّوَجَلَّ اختار من العباد صفوتهم، فبَعَثَهم بالرسالة، وأنزل عليهم وحيه المُبِين، وبلَّغوا رسالات ربهم تامةً كاملة وافية.

فالذي يقول: "أنا لا أُقِرُّ بما جاءت به الرُّسُل إلَّا أن يأتيني مثل ما آتاهم"؛ بمعنى: أن ينزل عليّ وحي مثل ما أُنزل على الرُّسُل، هذه مُكابرة عظيمة جدًّا، بل كِبرٌ عظيم قام في قلوب هؤلاء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ [سورة غافر، من الآية:٥٦].

ولهذا قول هؤلاء: (﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٢٤])؛ هذا تكبُّر على الحق، وفي الوقت نفسه عُجب بالنفس، يرون أنفسهم وعقولهم تامة ووافية وناضجة، ولا يمكن تتقبَّل هكذا كل ما جاءت به الرُّسُل؛ فهذا كِبرٌ قام في قلوب هؤلاء، جَحَدوا به الحق المبين الذي نَزَلت به رُسُل الله عليهم صلوات الله وسلامه.

ردُّ الله على هؤلاء في هذه المقالة: قال: (﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٢٤])؛ الرسالة ليست وَحْيًا ينزل على كل فرد من أفراد المُكلَّفِين؛ وإنَّما في أُناسٍ اختصَّهم الله واختارهم على عِلم، وهم صفوة العباد وخيارهم؛ فأنزل عليهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَحْيَهُ: (﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٢٤])؛ أعلم بالمحال والأماكن المناسبة، والأشخاص المناسبين الذين ينزل عليهم وحي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: (**ومَن سَلَكَ هذا السبيل فهو في الحقيقة غير مؤمنٍ بالرسول**)؛ وهذا حقٌّ؛ لأنَّ إذا كان لا يؤمن بما جاء به الرسول إلَّا بعد أن يُخضَع لعقله؛ صار الذي جاء به الرسول ليس المُقدَّم؛ وإنَّما عقله هو المُقدَّم، وعقله هو الحَكَم والفَيْصل.

ولهذا قديمًا ذَكَرَ العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ذَكَر هذا التَّيْمِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه [**الحُجَّة**] وهو مطبوع، كتابٌ نفيس للغاية في بابه، ذَكَرَ: أنَّ مَن لازم مقالة هؤلاء أنَّه لو قال الواحد منهم: "أشهد أنَّ عقلي رسول الله"؛ لَكان قوله هذا منطبقًا على العقيدة التي هو يعتقدها، وإن لم يُصرِّح بهذا لفظًا.

ولهذا يقول التَّيْمي: "لو قال القائل: "عقلي رسول الله"؛ لم يكن مستَنكَرًا عند هؤلاء من جهة المعنى"؛ يعني: وإن لم يُصرَّح به لفظًا عند هؤلاء؛ لكن من جهة المعنى العقل هو الذي عليه المعوِّل، وما جاء به الرسول لا يُقبَل هكذا مباشرة؛ لا بد أن يُخضِعوه لعقولهم وآرائهم.

(**ومَن سَلَكَ هذا السبيل فهو في الحقيقة غير مؤمنٍ بالرسول، ولا متلقٍّ عنه الأخبار بشأن الربوبية، ولا فَرْق عنده أن يُخبر الرسول بشيءٍ من ذلك أو لم يُخبر به**)؛ لماذا لا فَرْق؟

لأنَّ الذي يأتي به الرسول لا يتلقَّاه ابتداءً بالتسليم؛ يُخضعه لعقله:

- **إن قَبِلَه عقله**: أَخَذَ به.
- **إن لم يقبله عقله**: ردَّه.

إذًا لا فَرْق بين ما أخبر به الرُّسُل، أو لم تُخبر؛ فهذا كلُّه عنده سواء؛ لأنَّه لا يقبل ما جاءت به الرُّسُل إلَّا إذا كان موافقًا لعقله.

وعلى هذا: فالقرآن والحديث عند هؤلاء عديم الأثر تمامًا، ولا يقوم في قلوبهم أي تعظيم للقرآن، عندما يُقال للواحد من هؤلاء: "قال الله تعالى" أو "قال رسول الله ﷺ" توازنَ عندهم قال فلان وقال فلان من الناس؛ فهي عديمة الآن.

بينما المسلم إذا قِيل له: "قال الله" أو قِيل له: "قال رسول الله ﷺ" انتهى، من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية:٣٦].

المتن:

«الوجه السادس: أن يُقال: هذه الوصية مخالفةٌ لِمَا بَعَثَ الله به رُسُله، وأنزل كُتُبه؛ فإنَّه بَعَثَ رُسُله مذكِّرين للعباد ما فُطِروا عليه من الإقرار بوحدانية الله، ووجوب شكر نِعَمه، وافتراض الحب الكامل والتعظيم التام لله المتفضِّل بالنِّعَم الظاهرة والباطنة.

ومُذكِّرين لهم بالأمر بما فُطِرت العقول على استحسانه: كالصِّدْق والبر والإحسان والأخلاق الجميلة.

وبالنَّهي عمَّا فُطِرَت العقول على استقباحه: من الكذب والظُّلم والعدوان، وجميع الأخلاق الرذيلة.

فكيف يُؤمَر الناس أن يمحوا من قلوبهم وفِطَرهم هذه الأمور؟

وهل هذا إلَّا نهيٌ عن جميع مواد السعادة والفلاح والصلاح، وأَمْرٌ بكل مُنكرٍ وفحشاء، وسوءٍ وشرٍّ وفساد؟

وفي هذا من تقويض دعائم الخير والصلاح، والاستبدال بها أصول الشرِّ والفساد والفوضى في العلوم والعقائد والأخلاق ما لا منتَهَى لشرِّه وضرره».

الشرح:

هذا (**الوجه السادس: أن يُقال: هذه الوصية**)؛ أي: وصية هؤلاء الملاحدة: أن يُمحَى من القلب جميع العقائد والعلوم، وأن تُمحَى الفطرة، وأن يُستحدث بدلها فطرةً جديدة -كما تقدَّم من كلامهم-، هذه وصية هؤلاء

لمَن دَخَل في طريقهم أو سَلَكَ سبيلهم يُوصونه بذلك: أن يمحُو كل العلوم من قلبه، والأديان، والاعتقادات، ويمحو ما نشأ عليه من فطرة، كل ذلك يمحوه.

فيُقال في رد هذه الوصية الآثمة الخطيرة: "أن يُقال: هذه الوصية مخالفة لِمَا بَعَثَ الله به رُسُله وأنزل به كُتُبه، لماذا؟ لأنَّ الرُّسُل جاءت بتتميم الفِطَر وتكميلها، لا بتغييرها وتبديلها.

وهؤلاء جاءوا بما يُخالف ذلك، جاءوا بتغيير الفِطَر؛ فصارت مهمة هؤلاء هي مهمة الشيطان، سواءً بسواء الذي جاء ذِكرُها في الحديث القدسي، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءُ فَأَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**»؛ فالشياطين هي التي تُغيِّر الفِطَر، وتُبدِّل الفِطَر؛ والرُّسُل جاءوا بتكميل الفِطَر وتتميمها.

ولهذا يأتي ذِكْر الفطرة في القرآن وفي السُّنَّة، قال الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:٣٠]، في الحديث قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ**»؛ فالرُّسُل جاءت تُتمِّم الفطرة وتُكمِّلها.

أمَّا هؤلاء في دعوتهم الجائرة الآثمة جاءوا لاجتثاث هذه الفطرة وتغييرها، وتبديلها بحُثالات أفكارهم وزُبالات عقولهم وآرائهم الفاسدة.

وهنا أيضًا ننتبه إلى فائدة أُشِير إليها لأهميتها: مَن يُربِّي ولده على الإسلام هو في الحقيقة يُنمِّي خصالًا فُطِرَ عليها وعلى محبَّتها؛ حتى وإن لم يكن على علم بتفاصيلها، إذا ربَّاه على الصِّدْق، على الوفاء، على الأمانة، على الحياء، على الأدب، على الأخلاق الفاضلة، على غير ذلك هذه كلُّها تنمية للفطرة.

لكن الذي يُربِّيه على العقائد الباطلة، مَن يُربُّون أولادهم من أهل الضلال على العقائد الباطلة أو الأخلاق الفاسدة أو المعاملات السيئة هو مزاحمة للفطرة وحَشْرٌ فيها ما ليس منها، وتغييرٌ لها وتبديل.

فإذًا هؤلاء جاءوا بما يُخالف هَدْي المرسلين، جاءوا بتغيير الفِطَر وتبديلها، والرُّسُل الكرام -عليهم صلوات الله وسلامه- جاءوا بتتميم الفِطَر وتكميلها.

المتن:

قال: «الوجه السابع: أن يُقال: هذه الوصية تتضمَّن محو العلوم الصحيحة، والمعارف النافعة، والإيمان الصحيح، والاستبدال عن ذلك بأنواع الجهالات والضلالات والغَيْ، ورَفْض الإيمان بالكلية.

فإنَّ الإنسان في الأصل خُلِقَ ظَلومًا جهولًا؛ ليس فيه هُدى ولا علمٌ صحيح، ولا برهانٌ ويقينٌ في المطالب العالية المقصودة؛ إلَّا من جهة الطُّرُق التي بَعَثَ الله بها رُسُله وأنزل بها كُتُبه.

ولهذا كانت النبوة والرسالة يضطرُّ إليها المُكلَّفون أعظم من ضرورتهم إلى الطعام والشراب، وما به قوام حياتهم المادية؛ فالعلم والهدى الإجمالي والتفصيلي هُدى الله، فلا يليق برحمة الله وحِكمته وحَمْده أن يترُك العباد مُهمَلِين سُدًى بلا رسالةٍ وتعريفٍ لهم ما يُصلحهم حالًا ومآلًا، فأرسَلَ الرُّسُلَ، وأنزل الكُتُبَ حكمةً منه ورحمة ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [سورة النساء، من الآية:١٦٥]، فيقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞ﴾ [سورة المائدة، من الآية:١٩].

فجميع الهدى والعلوم النافعة الموجودة في الأرض، والمعارف النافعة، والإيمان الصحيح، وتوابع ذلك من آثار النبوة والرسالة ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [سورة آل عمران، الآية:١٦٤].

فمَن تمسَّك بوصية هذا المُلحد الضال فقد أَمَرَ بمحو ما جاءت به الكُتُب، وأُرسلت به الرُّسُل، وأن يستبدل بذلك وساوس النفوس ووَحْي الشيطان، فهذه الوصية الباطلة مقصودها الأعظم: جَحْد ما جاءت به الرُّسُل، وأهلها أحقُّ الناس بالدخول تحت قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٧٠ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ﴾ [سورة غافر، الآيتان:٧٠-٧١]».

الشرح:

هذا (**الوجه السابع**)؛ مما تُرَدُّ به تلك الوصية الجائرة (**أن يُقال: هذه الوصية تتضمَّن محو العلوم الصحيحة، والمعارف النافعة**)؛ محوها من القلب، وإخراجها منه حتى يُصبح القلب خاويًا خاليًا من العلوم والمعارف.

وإذا كان بهذه الصفة (خاويًا من العلوم الصحيحة والمعارف الصحيحة)؛ أصبح قلبًا خرابًا تبابًا، وإذا كان بهذه الصفة أصبح مأوى لكل فساد، وموطن لكل رذيلة؛ وهذا مُبتغَى هؤلاء، مُبتغى هؤلاء: أن تُزال من القلوب العقائد الصحيحة، الفِطَر السليمة، المعارف المُستمدَّة من الوحي، كلُّ ذلك يُمحَى من القلب، ثم يُستبدل (**بأنواع الجهالات والضلالات والغَيْ، ورَفْض الإيمان بالكلية**).

انتبه إلى أمر هنا! إن لم يحصُل المحو أولًا؛ لم تقبل النفوس الأمر الآخر وهو هذه الآراء؛ لكنها تجد قَبولًا بعد المحو؛ ولهذا يطلبون المحو أولًا ثم بعد ذلك يُدخلون في هذا القلب الذي مُحِيَت منه هذه المعارف يُدخلون فيه ما شاءوا من آرائهم وضلالاتهم.

ثم يُوضِّح الشيخ القضية، كيف يُطالَب الإنسان بمحو الخير الذي أُمِرَ به قلبه واستضاءت به نفسه، واطمأنَّ فؤاده بذلك، وأَنِسَ به، كيف يُطلَب منه أن يُمحَى ذلك من قلبه؟

وفي توضيح ذلك يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الإنسان في الأصل خُلِقَ ظَلومًا جهولًا**)؛ ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية:٧٢]؛ فالإنسان خُلِقَ ظلومًا جَهولًا، ثم مَنَّ الله عليه بأن فَطَرَه على الدِّين، مَنَّ عليه بتلقِّي ما جاءت به الرُّسُل، والقَبول، والرضا بذلك، مَنَّ عليه بهذا الخير العظيم، كيف يُطلَب مَن كان كذلك أن يمحو هذه الفطرة، وأن يمحو هذا الإيمان الذي تلقَّاه ونشأ عليه ممَّا بُعِثَ به رُسُل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؟!

ماذا ينشأ عن هذا المحو؟

انظر إلى كلامٍ لطيف يُشير إليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (**الإنسان في الأصل خُلِقَ ظَلومًا جهولًا**)؛ وإنَّما زال عنه الجهل بالوحي، بالعلم، بالنور، بالضياء الذي نَزَلَ به وحي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فأصبح قلبه منيرًا مضيئًا بالوحي.

إن بَقِيَ على ظُلمته وجهالته: أهلكته الوساوس، وأهلكته الأفكار المُردية، وأهلكته العقائد الباطلة التي تموج بها الأرض؛ لأنَّ دُعاة الباطل هؤلاء كلُّهم ليسوا على عقيدة واحدة؛ بل الواحد منهم لو نُظِرَ في تاريخه يتبيَّن أنَّه في تنقُّل.

فلمَّا يُطلَب من المسلم أن يمحو هذه المعارف وهذه العقائد وهذا الإيمان من قلبه؛ يُصبح ماذا بعد ذلك؟

يذهب عنه الطمأنينة في الإيمان، يذهب عنه راحة القلب، يذهب عن لذة الإيمان والطاعة والذِّكْر، و..... كل هذه تذهب، ويُصبح قلبه مأوى لكل الأفكار الرديئة، وتُصبح حاله كحالهم في تنقُّل وفي أودية من وادٍ مُهلِك إلى وادٍ آخر، وكل مرة ينتقل من وادٍ مُهلِك إلى آخر يظُنُّ أنَّ فيه نجاته، وهو لا يزال يتنقَّل من هَلَكةٍ إلى هلكة؛ إذ إنَّ النجاة إنَّما هي بما جاءت به الرُّسُل.

يقول: (**ولهذا كانت النبوة والرسالة يضطرُّ إليها المُكلَّفون أعظم من ضرورتهم إلى الطعام والشراب، وما به قوام حياتهم المادية**)؛ من مَسكن أو مَركَب أو مَلبس أو غير ذلك ضرورتهم إلى ما جاءت به الرُّسُل أعظم من ضرورتهم إلى الطعام والشراب، وغير ذلك، لماذا؟

لأنَّ الذي جاءت به الرُّسُل لا يمكن أن تحيا القلوب إلَّا به، ولا يمكن أن تتحقَّق الحياة الحقيقية إلَّا به.

وأمَّا الطعام والشراب وغير ذلك: هذه فيها حياة البدن.

أمَّا حياة الروح، حياة القلب لا يمكن أن تحيا إلَّا بما جاءت به الرُّسُل -عليهم صلوات الله وسلامه-؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٢٢]، قال في الآية الأخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [سورة الأنفال، من الآية:٢٤]؛ إلى ما فيه حياتكم؛ الحياة لا تكون إلَّا بهذا الذي جاءت به الرُّسُل الكرام عليهم الصلاة والسلام.

فكيف يُطلَب من المسلم أن يمحو هذه كلها من قلبه، ثم يصبح قلبه خاويًا خرابًا تبابًا، مأوى لكل رذيلةٍ وشرٍّ وفساد؟!

وفي آخر كلامه في هذا الوجه قال: (**فهذه الوصية الباطلة مقصودها الأعظم: جَحْد ما جاءت به الرُّسُل**)؛ لكن يعملون شيئًا من الحِيَل حتى يُقنعون العقول الساذجة، العقول السفيهة؛ لكن حاصل قول هؤلاء، وحاصل مقصود هؤلاء هو: تكذيب ما جاءت به الرُّسُل.

فأهلها أحقُّ الناس دخولًا في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [سورة يونس، الآيات:٧٠-٧٢].

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «الوجه الثامن: أن يُقال: هذا الكلام باطلٌ شرعًا وعقلًا.

أمَّا الشرع: فجميع الكُتُب المُنزَّلة من السماء، وجميع الرُّسُل جاءت بتقرير ما وَضَعَ الله في فِطَر الخَلْق من الاعتراف بوحدانية الله، وكماله المتنوِّع، وصِدْقه وصِدْق رُسُله، وتقرير الحق والحقائق النافعة في القلوب؛ اعتقادًا وتخلُّقًا وتصديقًا، ودعوة إليها، وهدايةً لها من جميع الوجوه.

ومن المعلوم أنَّ هذه الوصية الباطلة منافيةٌ لذلك غاية المنافاة، مادة للجهالات البسيطة والمُركَّبة وأنواع الضلالات، وداعية إلى الشقاء في الدنيا والآخرة.

ودلالة الشرائع على هذا الأمر أعظم وأوضح من أن تُفصَّل، بل هذا روح الشرائع السماوية والشرائع النبوية.

وأمَّا العقل: فإنَّ أهل العقول الصحيحة متَّفقون على أنَّ أفضل المغانم والمكاسب ما كسبته القلوب وحصَّلته من العلوم الصحيحة، والمعارف النافعة، والإيمان الصادق، والأخلاق العالية التي مَن اتَّصفَ بها صار من عِلية الخَلْق وأكملهم وأرفعهم درجةً ومقامًا.

فمَن أوصَى بتَرْك ذلك ومحوه من القلوب، والحث على الشكِّ والتشكيك؛ فقد جاء لأهل العقول بما لا يعرفونه، بل يُنكرونه أشدَّ الإنكار، ويرونه من فظائع المنكرات.

فماذا بعد الحق إلَّا الضلال؟

وماذا بعد العقائد الصحيحة إلَّا العقائد الباطلة؟

وماذا بعد الأخلاق الفاضلة إلَّا الأخلاق الرذيلة السافلة؟

وماذا بعد الرُّشْد إلَّا الغي والفساد؟

الشرح:

هذا (**الوجه الثامن**)؛ من الوجوه التي تُرَدُّ بها تلك المقالة الفاسدة وذلك الأصل الفاسد (**أن يُقال: هذا الكلام باطلٌ شرعًا وعقلًا**)؛ بمعنى: أنَّ الشرع دلَّ على بطلانه، والعقل أيضًا دلَّ علة بُطلانه.

أمَّا دلالة الشرع فكما قال الشيخ، اقرأ في جميع الكُتُب المنزَّلة، وجميع ما جاءت به الرُّسُل؛ كل ذلك تقرير للفِطَر، وتقرير الاعتراف بوحدانية الله وكماله وعظمته وجلاله، وتقرير لصِدْق الرُّسُل وتأييدهم بالآيات والبراهين المُعجزة..... إلى غير ذلك، هذا الذي جاءت به الرُّسُل.

والأدلة على ذلك من الشرع أعظم وأوضح من أن تُفصَّل من كثرتها، كثيرة في الدلالة على ذلك؛ فالشرع دلَّ على بُطلان ذلك.

وأيضًا العقل دلَّ على بُطلان ذلك؛ لأنَّ قول هؤلاء لو عُرِضَ على عقلٍ سليم أنَّ هؤلاء يطلبون من الإنسان أن يمحو من عقله كل الاعتقادات، وكلُّ ما نشأ عليه وفُطِرَ عليه من الأدب والخُلُق و... و... إلى غير ذلك أن يمحو ذلك من عقله ومن نفسه، ثم يستحدث لنفسه فطرةً جديدة، مَن يُعرَض عليهم هذا القول من ذوي العقول لا يقبلونه؛ يرون أنَّ هذا يتصادم مع العقول السليمة، إضافةً إلى مصادمته للنقول الصحيحة.

المتن:

«الوجه التاسع: أن يُقال: هذا الأصل الخبيث يعود إلى تسلسل محو ما يقع في القلوب من كل عِلمٍ صحيحٍ وفاسد، ومن كل معرفةٍ حاصلةٍ في القلب؛ فهو أعظم مِعولٍ لهدم العلوم كلها؛ لأنَّ لازم ذلك يوجب ألَّا يثبت في القلوب شيءٌ من العلوم الصحيحة؛ بل لا تزال الشكوك والمكابرات تنفِي ما يقع في القلوب حتى تنحلَّ العلوم وتنحلُّ الأخلاق.

ويتدرَّج بذلك إلى مذهب الإباحية والانطلاق في الفوضى وأغراض النفوس الخبيثة الضارة، ولا يبقى دون ذلك مانعٌ علميٌّ ولا مانعٌ خُلُقي؛ وهذا أعظم مِعوَلٍ للشيوعية المُفسدة للدِّين والدنيا، وبهذه الطريقة فشا الإلحاد».

الشرح:

هذا (**الوجه التاسع: أن يُقال: هذا الأصل الخبيث يعود إلى تسلسل محو**)؛ محو كل ما يستجدُّ في القلوب من معارف صحيحة، أو إيمانٍ قويم، أو غير ذلك ممَّا يستجد للقلوب؛ فعلى قاعدة هؤلاء وأصلهم الخبيث أنَّ كل ذلك يُمحَى من القلب.

وسبحان الله! كأنَّ القاعدة (قاعدة هؤلاء) تقول: **"تجرَّد من كل خير، واتَّصف بكل سوء"**؛ يعني: كل خيرٍ تمحوه من قلبك وتُبعده عن نفسك، ويكون هذا المحو -مثل ما أشار الشيخ- متسلسل؛ كل ما استجدَّ خيرٌ أو معارف صحيحة؛ المطلوب -على ضوء قاعدة هؤلاء التي قعَّدوها- أن يُمحَى من القلب، وأن يُزال.

فإذا أُزِيل من القلب كل المعارف، وأصبحت الإزالة أيضًا مستمرَّة دائمة، لا يُصبح في القلب مأوى أو موطن لأي خير، ويُصبح مأوى لكل فساد.

فأي (**مِعولٍ لهَدْم العلوم كلها**)؛ أشد من هذا المِعوَل وأمكن.

ولهذا يُعَدُّ هذا الأصل مِعوَل لهَدْم كل المعارف وكل الخيرات، وكل العقائد، ومَنْ اقتنع بهذا الأصل هَدَمَ كل خير في نفسه، وهَدَمَ كل فضيلة، وهَدَمَ كل رِفعةٍ وسعادة له في دُنياه وأُخراه.

قال: (**لأنَّ لازم ذلك يوجب ألَّا يثبت في القلوب شيءٌ من العلوم الصحيحة؛ بل لا تزال**)؛ مُنكِرة وشاكة ومُكابرة ومكذِّبة، ماذا تُصبح بعد ذلك؟

يقول الشيخ -رحمة الله عليه-: عندما تنحلُّ من العلوم أيضًا تنحلُّ من الأخلاق؛ ولهذا في ارتباط بين العقيدة والخُلُق، العقيدة الصحيحة تدعو إلى كل خُلُقٍ فاضل، والعقيدة المُنحلَّة تدعو إلى الانحلال في الأخلاق؛ ولهذا ينشأ عن ذلك الانطلاق في الفوضى والإباحية والفساد العريض، كلها تنشأ، ويُصبح ينطلق المرء الذي قد انخرط في عقيدة هؤلاء ينطلق في هذه الحياة لا فَرْق بينه وبين البهائم مُنحلًّا من كل عُرى الأخلاق والفضيلة، والأدب.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «الوجه العاشر: أن يُقال على وجه التنزُّل: أيُّهما أَوْلى محو ما يُقَع في القلوب وما اتَّصفت به من الاعتقادات الصحيحة الناشئة عمَّا جاءت به الرُّسُل ونَزَلت به الكُتُب، ثم بعد ذلك يوجِّهه صاحبه بزعمه إلى طلب الحقائق من غير أساسٍ صحيحٍ يُبنَى عليه، ولا معارف نافعة يعتمد عليها؟

وقد عُلِمَ ما يَرِدُ على القلوب الفارغة الساذجة الخالية من كل شيء من أنواع الوساوس والخيالات الفاسدة، والضلالات المتنوِّعة، وأنَّها عند انطلاقها من الحق الصحيح اعتقادًا وتخلُّقًا تأتي بالغرائب المزعجة، والخيالات المُضحكة.

أيُّ هذه الحالة التي لا يرتضيها مَن له مسكةٌ من عقلٍ، وحالة قلبٍ ملآن من العلوم الصحيحة، والمعارف النافعة، والإيمان الصادق القوي المستمدِّ من معِين الرسالة، ومن هُدى الله الذي هَدَى به الخَلْق.

وفيه من الفُرقان بين الحق والباطل، والهُدى والضلال ما يُميِّز به الحقائق إذا وجَّهه صاحبه إلى طلب الحقائق والحق من أبوابها، واستخراج المعارف من طُرُقها.

فهذا القلب السليم عنده من اليقين والنور ما يهتدي به إلى المطالب العالية، فمَن سوَّى بين الحالتَيْن والقلبَيْن؛ فلْيَبكِ على ذهاب عقله بعد ذهاب دِينه.

فالعلوم التي لها أساس قوي تعتمد عليه، ولها براهين قَطْعية تستمدُّ منها وتهتدي بها، وصاحبها عنده من الأصول ما يُفرِّق به بين الحق والباطل هي التي يعتبرها أولوا الألباب، ويُنافسون في تحصيلها، ويرون إدراكها أجلَّ نعمةٍ أنعَمَ الله بها عليهم.

وهؤلاء المُلحدون يُوصون بتَرْكها ومحوها من القلوب التي يَلِجُ الباطل فيها من غير معارضٍ يُعارضه من العلم واليقين والإيمان؛ فالعلوم والمعارف والأدلَّة والبراهين مُحالٌ أن تكون صحيحة نافعة حتى تستنِير بنور الوحي وبرهان الحقيقة، وتُبنَى علومها وأعمالها على الإيمان».

الشرح:

هذا (**الوجه العاشر**)؛ فيه مقارنة يسيرة تكشف فساد هذا الأصل الخبيث الذي يدعو إليه هؤلاء، وهي -مثل ما قال الشيخ- (**على وجه التنزُّل**). (**يُقال على وجه التنزُّل: أيُّهما أَوْلى**).

وذَكَرَ طريقتَيْن في التعامُل مع القلوب:

الطريقة الأُولى -أذكُرها على غير ترتيبها- **طريقة دُعاة الحق، دُعاة الهُدى**: فهم في دعوتهم للناس يعملون على صيانة القلوب وتكميلها، والحفاظ على ما فيها من الخير، وحثِّهم على البُعد عمَّا يُمرض القلب أو يُضعف القلب.

ولهذا تجد دُعاة الحق لهم اهتمام عظيم بالقلوب في توجيهها للصلاح والزكاة والاستقامة، والحِفْظ على المكاسب العظيمة التي في القلوب من الصِّدْق، الوفاء، الأمانة، الحياء، الخُلُق، إلى غير ذلك.

فدُعاة الحق دُعاة لصيانة القلوب وحِفظ الخيرات التي فيها، والعمل على تكبيرها وتنميتها وزيادتها وتوسيعها؛ حتى يكون القلب ملآن بالخير، وعامرًا بالخير.

هذه طريقة دُعاة الحق، وهي مأخوذة من دعوة المرسلين ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [سورة يوسف، من الآية:١٠٨]؛ فهي دعوة قائمة على هذا (على تزكية القلوب وصيانتها وإصلاحها وعمارتها، ورَبْطها بخالقها ومولاها ذُلًّا وخضوعًا وانكسارًا وعبوديةً لله، وتحلِّيًا من بعد ذلك بالأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة، إلى غير ذلك.

هذه دعوة دُعاة لحق، أولئك إذا نَظَرَ الإنسان في الفَرْق أولئك يطلبون محو ما في القلوب حتى تُصبح قلوبًا خاوية لا شيء فيها، يُمحَى كل شيء، حتى لفطرة التي فَطَرَ الله الناس عليها يطلبون محوها، ويُصبح الإنسان قلبه ليس فيه شيء من العلوم، شيء من العقائد، خاويًا، فإذا كان بهذه الصفة أصبح -كما قدَّمتُ- مأوى لكل شر.

فمَن ينظُر في التعامُل مع القلوب، تعامُل هؤلاء مقارنةً بمعاملة دُعاة الحق يجد الفَرْق العظيم، دُعاة الحق فيهم من العناية بالقلوب والنُّصح لها والتهذيب والدعوة.... إلى غير ذلك ما هو معروف؛ بينما هؤلاء دعوتهم قائمة على محو كل خير من القلب، وكل علوم نافعة، وكل إيمان قائم في القلب يطلبون من المنخرط في طريقٍ أو في مَسلكهم أن يمحو ذلك، وأن يستخرجه من قلبه.

ثم أَمْرٌ أشار له الشيخ: الوساوس هذه التي تهجم على القلب (شياطِين الإنس والجن) ما الذي يُقاومها؟

طالب: العلم.

العلم الذي يكون في القلب؛ ولهذا يحتاج المرء إلى علم في قلبه يُقاوم به الوساوس، فإذا محوا هذه العلوم من القلوب، ومحوا الإيمان من القلوب بقاعدتهم التي قعَّدُوها أصبحت مأوى لكل وسواس، ومأوى لكل شرٍّ وفساد.

فأيُّما أَوْلى: محو ما يقع في القلوب وما اتَّصفت به من الاعتقادات الصحيحة الناشئة عمَّا جاءت به الرُّسُل هذا، أو المَسلك الذي قامت عليه دعوة الرُّسُل ودعوة الدُّعاة (دُعاة الحق) من إصلاح القلوب وصيانتها وتكميلها، ورعايتها؟

(فمَن سوَّى بين الحالتَيْن والقلبَيْن؛ فلْيَبكِ على ذهاب عقله بعد ذهاب دِينه)؛ لا يُسوَّى بين هذَيْن الطريقين أو هذَيْن المسلكين ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ

هَارٍ﴾ [سورة التوبة، من الآية:١٠٩]، ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [سورة الرعد، من الآية:١٩]، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر، من الآية:٩].

المتن:

«الوجه الحادي عشر: أنَّ هؤلاء يُعاندون الله ورسوله أعظم معاندة؛ فالله يقول: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية:١٣٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة الأحقاف، الآية:١٣].

وفي الصحيح أنَّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- قال لمَن قال له: «قُل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك! قال: «قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ»؛ أي: على الإيمان.

وهؤلاء المُلحدون يقولون: امحوا هذه الأصول والعقائد التي لا أصحَّ منها ولا أنفع، ولا يُسعِدُ العبد غيرها من قلوبكم، وشُكُّوا لتستحدثوا علومًا وعقائد جديدة تجِيش بها القلوب المنحرفة، والآراء الفاسدة، والضمائر التي أعرضت عن الحق وعارضته، وتوجَّهت إلى الباطل، وهذا لا ريب أنَّه مُشاقَّةٌ ومحاربةٌ لله ورُسُله».

الشرح:

هؤلاء الملاحدة مثل ما وَصَفَ الشيخ في هذا الوجه: (**يُعاندون الله ورسوله أعظم معاندة**)؛ ويُشاقُّونَ الله ورسوله أعظم مُشاقَّة.

فالله عَزَّوَجَلَّ يأمُر عباده بالإيمان: (﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [سورة البقرة، الآية:١٣٦])؛ ورسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يأمرهم بالإيمان (**قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ**).

وهؤلاء يأمرون بمحو هذا الإيمان من القلب؛ فدِينهم وأصولهم قائمة على معاندة الحق الذي نَزَلَ من الله، وجاءت به رُسُله الكرام -عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين-؛ فدِين هؤلاء وأصولهم قائمة على معاندة الحق والمكابرة في تكذيبه، وردِّه، قال: (**وهؤلاء المُلحدون يقولون: امحوا هذه الأصول والعقائد التي لا أصحَّ منها**)؛ امحوها من قلبك ولا تُبقِي في قلبك شيئًا منها.

(**وشُكُّوا**)؛ يعني: في كل العقائد وفي كل الأصول؛ (لتستحدثوا علومًا)؛ ما الذي سيُستحدَث إذا مُحِيَ من القلب هذا الخير الذي نَزَلَ به الوحي؟

وهنا أيضًا يُشار إلى أنَّ العقائد التي عند الناس لا تخرج عن عقيدتَيْن:

إمَّا عقيدة نازلة من الله: وهو عَزَّوَجَلَّ الخالق، وهو المُشرِّع الآمر الناهي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [سورة الشورى، من الآية:٢١]؛ إمَّا أن تكون عقيدة نازلة.

أو عقيدة نابتة: نَبَتتْ في الأرض.

والقاعدة المتقررة في القرآن وفي دعوة المرسلين: «**أنَّ كل عقيدةٍ لا تكون نازلة فهي باطلة**»؛ أيًّا كانت! مهما عظَّمها أربابها، ومهما قالوا عنها «**كل عقيدة لا تكون نازلة فهي باطلة**».

ولهذا كان الرُّسُل في طريقة ردِّهم لباطل أقوامهم يُقرِّرون هذا الأصل في إبطال ما عليهم أنَّ هذا لم ينزل من عند الله في حوار يوسف أو مخاطبة يوسف لصاحبَيْ السجن قال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [سورة يوسف، من الآيتان:٣٩-٤٠]؛ ما نَزَل بها وحي

﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [سورة النجم، من الآيات:١٩-٢٣].

فإن لم تكن العقيدة نازلة؛ فهي نابتة، والعقيدة النابتة فاضلة؛ لأنَّ الدِّين لله هو الذي يشرَع، وهو الذي يأمُر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يوسف، من الآية:٤٠].

فهؤلاء الملاحدة دِينهم قائم على المعاندة لهذا الدِّين النازل من رب العالمين، ويُحِلُّون محلَّه أشياء وآراء وعقول فاسدة توصَّلوا إليها، ثم أيضًا هذه العقول أو الآراء التي توصَّلوا إليها ليست ثابتة على نَفَقٍ واحد؛ بل هي أشياء متصادمة، وعقائد متضاربة، وباطلٌ يُعارضه باطل، هذه حالهم في أمرٍ مريج.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «الوجه الثاني عشر: أنَّ محو العلوم الصحيحة والعقائد الحقَّة من القلوب، وطلب الشك فيها مُحالٌ غير ممكن، ومَن حاوَلَ ذلك فهو مُكابر، فالحقائق الصحيحة المبنية على البراهين الحقَّة الواضحة

لا يمكن إزالتها من القلوب بوجه؛ لأنَّ الحق إذا تمَّت معرفته احتلَّ القلوب، وثَبَتَ فيها واستقرَّ، وصارت له السيطرة على كل باطل، وزَهَقَ الباطل عند مقابلته.

ولهذا قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [سورة النمل، من الآية:١٤]، وقال: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [سورة الإسراء، من الآية:١٠٢].

وقال عن اليهود: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٤٦].

وقال عن كُفار المشركين: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٦٦].

فهؤلاء المُلحدون إنَّما غَرضهم الوحيد: صدُّ الناس عمَّا جاءت به الرُّسُل، ومقاومة ذلك بكل طريق؛ فرأوا هذا طريقًا راج على الأغمار وضعفاء البصائر، ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [سورة إبراهيم، الآية:٤٦].

أمَّا أولوا البصائر والألباب فإنَّهم يسعون لإزالة ما وَقَعَ ويقَعُ في القلوب من الشُّبُهات والشهوات المعارِضة للحق؛ فإنَّ الشُّبُهات والشهوات الواردة على القلوب تُضعف علمها ويقينها وإيمانها.

ودواء ذلك: أن يُقابَل بالعلم الصحيح والبراهين الصادقة؛ فإنَّ الشكوك لا ثبوت لها عند ذلك، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الرعد، من الآية:١٧].

وكذلك إزالة ما يقع في القلوب من الشهوات والأمراض الفاسدة التي يُقدِّمها صاحبها على الحق والتعصُّبِ للمقالات بغير مستندٍ صحيح، ودواء ذلك بتوجيه القلب لقَصْد الحق الصِّرْف، والإخلاص لله، وقوة الرغبة فيما عند الله وتقديمه على هوى النفوس؛ فهذا هو المطلب الصحيح لكل موفَّق: أن يكون فطنًا في إدراك الحق، وفي نَفْي الشبهات المنافية له، وأن يكون حَسَن القَصْد في ترجيح ما يُرجِّحُه الدليل الصحيح من المقالات».

الشرح:

(**الوجه الثاني عشر**)؛ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أنَّ محو العلوم الصحيحة والعقائد الحقَّة من القلوب، وطلب الشك فيها مُحالٌ غير ممكن)؛ فهؤلاء وإن عَمِلُوا ما عَمِلوا فيما يزعمونه من محو لِمَا في القلوب من فِطَر ومن عقائد، هو في الأصل مستقِرٌّ في القلب؛ لكنه عندما يُخضِع نفسه لكلام هؤلاء قد يصير عنده شيء من القبول لِمَا عند هؤلاء، ربما يكون أيضًا مبني على مطامع دنيوية، حظوظ دنيوية .... إلى غير ذلك، وهو في الغالب كذلك.

لكن الذي في القلب هو موجود، مثل ما قال الله عن فرعون، ونعلم ماذا قال من الجَحْد والتكذيب، قال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [سورة النمل، من الآية:١٤]؛ ولمَّا كان فرعون يُخاطب موسى بالجَحْد، وأنَّه لا يُوجد إله ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [سورة القصص، من الآية:٣٨]؛ قال له موسى في آخر سورة الإسراء: (﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ [سورة الإسراء، من الآية:١٠٢])؛ يعني في قرارة نفسك (﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [سورة الإسراء، من الآية:١٠٢])؛ أنت تعلم في قرارة نفسك.

فهذه حال هؤلاء، يعني: هم وإن ادَّعوا أنَّهم يمحون من القلوب؛ لكن القلوب فيها هذا الأصل؛ لكن مَن يقبَل لا بد من وراء قبولها أشياء، أشياء هي من مطامع النفس وحظوظها ومُبتغياتها.... إلى غير ذلك، و(**أنَّ محو العلوم الصحيحة والعقائد الحقَّة من القلوب، وطلب الشك فيها مُحالٌ غير ممكن، ومَن حاوَلَ ذلك فهو مُكابر؛ فالحقائق الصحيحة المبنية على البراهين الحقَّة الواضحة لا يمكن إزالتها من القلوب بوجه**) من الوجوه.

ثم عاد الشيخ للمقارنة السابقة بين هذا القول القائم على هذا المحو، وبين طريقة أُولِي البصائر الذين يسعون لإزالة ما وَقَعَ في القلوب من الشُبُهات والشهوات، فَرْق بين مسلكين:

هؤلاء يسعون لإزالة ما في القلب من خير.

وأهل الباب والبصائر يسعون لإزالة ما يقع في القلوب من الشُّبهات والشهوات التي تُعارض الحق.

المتن:

«الوجه الثالث عشر: أنَّ المقصود الأعظم من تأصيل هذا الأصل الخبيث الكُفر بما جاءت به الرُّسُل والانحلال عنه؛ وإلَّا فأهله من أكذب الناس؛ فإنَّهم متمسِّكون غاية التمسُّك بما عليه أئمتهم المُلحدون، وأقوالهم وعقائدهم مُقدَّمةٌ عندهم على ما جاءت به الرُّسُل، ويتعصَّبون لها غاية التعصُّب، فلو كانوا صادقِين مُحقِّين لوَجَبَ عليهم أن يمحوا من قلوبهم أقوال أئمتهم وعقائدهم التي ما زالوا متمسكين بها ومُقلِّدِين لها تقليدًا أعمى.

فالغرض من كلامهم معروف، وهو قَصْدهم الانحلال من الدِّين الصحيح، والتمسُّك بأقوال هؤلاء الضالين».

الشرح:

هذا كلام متين وعظيم جدًّا في إبطال هذا الأصل الخبيث الذي عند هؤلاء يقول: إنَّ هذا الأصل الخبيث هو في الحقيقة مقصده جَحْد ما جاءت به الرُّسُل، جَحْد الدِّين الحق الذي جاءت به رُسُل الله، ونَزَلَت به كُتُب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحيٌ مُنزَّل.

وإلَّا فالقوم هم أنفسهم لا يعملون بأصلهم هذا، الآن يقولون لصاحب الحق: «امحُ من قلبك كل العقائد، كل المعارف الصحيحة امحُها من قلبك»؛ هل هم محوا من قلوبهم ما تلقَّوه عن أشياخهم أئمة الضلال؟ أساتذتهم أئمة الضلال؟ هل محوا ذلك؟

ولو قُلِبَ عليهم قولهم، وقِيل له: «امحُ من نفسك كل ما تلقَّيْتَ عن هؤلاء أهل الضلال»، ويمكن أن يُقلَب عليه مذهبه يُقال: «امحُ من نفسك كل ما تلقَّيْتَه وتعالَ معي انظر في الإسلام وبهائه، انظر في الدِّين وجماله، انظر في حُسْن ما يدعو إليه، امحُ من قلبك كل التصوُّرات التي أخذتها عن هؤلاء امحُها من قلبك، وتعال بقلبٍ مُحِيَ منه كل هذه التصوُّرات الزائفة، وانظر بهدوء وطمأنينة في الحق الذي دَعَتْ به الرُّسُل».

لكن القوم أهل كذب يريدون من صاحب الحق أن يمحو من قلبه ماذا؟ الحق؛ أمَّا أن يمحوا هم من قلوبهم الباطل ثم ينظروا في الحق فيُقبِلوا عليه؛ لا يريدون ذلك، لا هم أصلًا لا يريدون الخير؛ فقاعدتهم من أساسها وأصلها وفصلها في تكذِيب ما جاءت به الرُّسُل.

وإلَّا لو كانوا صادقين، لو قُلِبَ عليهم الأمر وقِيل لهم: «امحوا كل ما تلقَّيْتموه من أساتذتكم وكُبرائكم وأئمتكم، امحوا كل ذلك، وتعالوا انظروا إلى الحق الذي جاءت به الرُّسُل، وتأمَّلوا وتفكَّروا وتدبَّروا بأناة؛ لعلَّكم بذلك تهتدون إلى الحق وتصلون إليه».

لكن القوم لا؛ القوم مرادهم بذلك أصلًا التكذيب بالحق، وَضَعُوا هذا مِعولًا يهدمون به الحق؛ فهو ليست أداة بناء؛ وإنَّما هو مِعولُ هَدْمٍ للحق، لو كان أداة بناء لطبَّقوه على أنفسهم ومحوا عن أنفسهم جميع ما جاءت به أئمتهم، وأخذوه وتلقَّوه عنهم، ونظروا إلى ما جاءت به الرُّسُل بتجرُّد وإنصاف وعدل؛ لتبيَّن لهم أنَّ هو الحق، وهو الهُدى، وهو الذي به السعادة في الدنيا والآخرة.

لكن -مثل ما قال الشيخ-: (**الغرض من كلامهم معروف، وهو قَصْدهم الانحلال من الدِّين الصحيح، والتمسُّك بأقوال هؤلاء الضالين**).

المتن:

«الوجه الرابع عشر: قال الشيخ: ومن المعلوم أنَّ الله لا يحبُّ الجهل ولا الشكَّ ولا الحيرة ولا الضلال؛ وإنَّما يُحبُّ الدِّين والعلم واليقين».

الشرح:

هذا (**الرابع عشر**)؛ وعندما يقول: (**قال الشيخ**)؛ يقصد ابن تيمية، لمَّا يقول ابن سعدي -رحمة الله عليه- (**قال الشيخ**)؛ يقصد ابن تيمية، وهو -في الغالب- ينقُل عن كتابه [**نقض التأسيس**].

وأيضًا بهذا تعرف أنَّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينقُل ردودًا من [**نقض التأسيس**]، ويُضِيف وجوه كثيرة؛ ولهذا في ثنايا هذه الرسالة -يعني- وجوه كثيرة كلُّها من تقرير الشيخ ابن سعدي رحمة الله عليه.

وفيها ما هو منقول نصًّا يبدأه بقوله: (**قال الشيخ**)، ثم يختمه بقول: (**انتهى**).

ومنها ما يكون منقول بالفحوى والمعنى العام يكون استفاده منه.

ومنها أشياء قرَّرها وبيَّنها هو رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ممَّا فَتَحَ الله عليه به.

ويُؤجَّل (**الوجه الرابع عشر**) إلى لقاء الغد.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلَّا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبيِّنا محمد وآله وصحبه.

شرح الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين

للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه اللّه

من الدرس (٣) إلى والدرس (٦)

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٢/٠٣/٢٧ هـ

(المجلس الثالث)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد..

فيقول العلامة السعدي في كتابه: **[الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين]**:

الوجه الرابع عشر: قال الشيخ: ومن المعلوم أن الله لا يحب الجهل ولا الشك ولا الحيرة ولا الضلال، وإنما يحب الدين والعلم واليقين، وقد ذم الحيرة بقوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[سورة الأنعام، من الآية:٧١]؛ وقد أمرنا أن نستهديه الصراط المستقيم المتضمن للعلم بالحق والعمل به، والقرآن هو الشفاء والهدى والنور، والشك والحيرة ليست محمودةً باتفاق المسلمين، وغاية ما يكون أن من لم يكن عنده علمٌ بالشيء فالواجب عليه أن يسكت ويطلب العلم من طرقه، وهؤلاء الملحدون الشاكون المشككون الذين يأمرون الناس بمحو الحق الذي في القلوب لتتوجه القلوب إلى غيره مخالفون للكتاب والسُّنَّة ولإجماع العقلاء المعتبرين متابعون لأئمتهم الضالين، انتهى.

الشرح:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد..

فهذا الوجه الرابع عشر من الوجوه التي ساقها الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في هذا المؤلف العظيم النافع: **[الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين]**، وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أول الرسالة أصلًا خبيثًا شنيعًا يقوم عليه إلحاد هؤلاء ويتأسس، وهو أن يمحو من قلبه كل علم، وكل يقين، وكل إيمان، وكل دين يدين الله به، يمحو ذلك كله من قلبه ثم يشك في الأشياء، فالقاعدة قائمة على إزالة اليقين الثابت في القلب وأن يُحل محله الشك، وأن يكون محله الشك، وإذا وجد الشك فالحيرة أيضًا ملازمة، والتذبذب، فهم

بهذه القاعدة يُخرجون من يتبعهم في طريقهم من اليقين والعلم والإيمان وثبات القلب، إلى الشك والحيرة والاضطراب والتذبذب الذي هم عليه.

ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سياق إبطال هذا الأصل: (**من المعلوم أن الله لا يحب الجهل ولا الشك ولا الحيرة ولا الضلال**)؛ هذه أمور ليست محبوبة إلى الله، وليست أيضًا من الدين الذي يُتدين به، وليست من باب القرب، بل هي نوعٌ من الضياع والضلال والانحراف.

قال: (**وقد ذم**)؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ (**الحيرة**)؛ ثم أورد قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾[سورة الأنعام، من الآية:٧١]؛ فهذه الآية فيها ذم الله للحيرة، وأن الحيرة إنما هي حال الضائعين، والمتدين المؤمن المقبل على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عافاه الله وسلمه بما عنده من الإيمان من هذه الحيرة التي عليها أهل الضلال والشك الذي هم عليه.

والآية يأمر فيها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نبيه محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقول للمشركين الذين يطلبون من أهل الإسلام أن يكونوا على الدين الذي هم عليه، فيقول الله جَلَّ وَعَلَا لنبيه: ﴿قُلْ﴾[سورة الأنعام، من الآية:٧١]؛ أي: لهؤلاء المشركين، ﴿أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾[سورة الأنعام، من الآية:٧١]؛ وهذا اكتفي به وهو كافٍ وافٍ في إبطال عبادة غير الله، ويكفي في معرفة الباطل تصور ما هو عليه من فساد، فالذي يدعو غير الله يكفي أن يُعرف فساد ما هو عليه بأن الذي يدعوه لا ينفعه ولا يضره، وهذه وحدها كافية في إبطال الشرك.

﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[سورة الأنعام، من الآية:٧١]؛ أي: بعد أن منَّ الله علينا بالإيمان، والاعتقاد، والتوحيد، وبالإخلاص، والإقبال على الله وحده بالعبادة، بعد هذا التوحيد والإيمان نُرد على أعقابنا بعد هذه الهداية، هذا لا يمكن؛ فتكون الحال ممن كان كذلك، ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[سورة الأنعام، من الآية:٧١]؛ أي: استدرجته واستجرته إلى الضياع والباطل، ﴿حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾[سورة الأنعام، من الآية:٧١]؛ والشيخ ابن سعدي رحمة الله عليه في تفسيره لهذه الآية ذكر أن هذا حال كثير من الناس يتجاذبه داعيان، داعي باطل، الشيطان، النفس الأمارة، قرناء السوء،

وسائل الشر، وداعي خير فهذا يجذبه من جهة وهذا يجذبه من جهة، وهو مع من غلبه من هذين الجاذبين، فيحتاج المسلم أن يثبت على دينه، وأن يحذر من هذه الأشياء التي تجذبه إلى الضياع والضلال.

﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾[سورة الأنعام، من الآية:٧١]؛ فالمؤمن عافاه الله وسلمه بما منَّ الله عليه من الهدى، والاستقامة، والصلاة، والعبادة، والاقبال على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الحاصل أن هذه الآية فيها ذم الله للحيرة، والحيرة تتنافى مع الهداية، ولهذا المسلم مأمورٌ بأن يطلب من الله مراتٍ وكرات أن يهديه صراطه المستقيم، ثباتًا عليه، وازديادًا فيه، وسلامةً من الانحراف عنه.

قال شيخ الإسلام: (**وقد أمرنا**)؛ أي: الله جَلَّ وَعَلَا (**أن نستهديه الصراط المستقيم**)؛ وهذا كما هو معلوم في سورة الفاتحة يستهدي المسلم ربه؛ أي: يطلب منه أن يهديه الصراط المستقيم مراتٍ وكرات في كل مرةٍ يتلو فيها الفاتحة، وكلكم يعلم أن الفاتحة تُقرأ فرضًا واجبًا في اليوم والليلة سبعة عشر مرة، فالمسلم في اليوم والليلة سبع عشرة مرة يدعو الله دعاءً فرضه الله عليه، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[سورة الفاتحة، من الآية:٦]؛ هذا استهداء يطلب من الله أن يهديه، والهداية سلامة من الحيرة، سلامة من الشك، سلامة من الضلال والضياع.

إذا نظرت تجد أن أولئك القوم يدعون الناس إلى الخروج من الهداية، والدخول في الحيرة والشك والضلال والضياع، بينما المسلم مطلوبٌ منه أن يثبت على هذه الهداية، ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾[سورة الأنعام، من الآية:٧١]؛ ويسأل ربه مراتٍ وكرات أن يثبته على هذه الهداية، وأن يسلمه، وأن يعيذه من الضلال.

(**وقد أمرنا أن نستهديه الصراط المستقيم المتضمن للعلم بالحق والعمل به**)؛ وهذه فائدة، الصراط المستقيم ينتظم أمرين: "العلم بالحق، والعمل به"، العلم بالحق: أن يكون عالمًا بالحق، عالمًا بالهدى، وفي الوقت نفسه أن يكون عاملًا به من أهله.

قال: (**والقرآن هو الشفاء والهدى والنور**)؛ وإذا كان القرآن هو الهدى والشفاء والنور؛ فالذي يدعو إليه أولئك هو الضياع، والضلال، والظلمة.

قال: (**والشك والحيرة ليست محمودةً باتفاق المسلمين، وغاية ما يكون أن من لم يكن عنده علمٌ بالشيء؛ فالواجب عليه أن يسكت ويطلب العلم من طرقه**)؛ هذه جاءت في سياق الرد في هذا المقام؛ لكنها تُعد فائدة مهمة للمسلم في حياته العملية، وسلوكه العملي؛ ألا يتجرأ على شيء من دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فغاية ما يكون

أن من لم يكن عنده علم بالشيء؛ فالواجب عليه أن يسكت ويطلب العلم من طرقه، هذه تُعد قاعدة منهجية رصينة مهمة للمسلم في حياته، إذا كان ليس عنده علم ما يتكلم، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[سورة الإسراء، من الآية:٣٦].

قال: (**وهؤلاء الملحدون الشاكون المشككون الذين يأمرون الناس بمحو الحق الذي في القلوب لتتوجه القلوب إلى غيره مخالفون للكتاب والسُّنَّة ولإجماع العقلاء المعتبرين**).

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: **الوجه الخامس عشر:** أنه لو فُرض أو قُدر أن الإنسان يمحو من قلبه كل عقيدة، ويصير القلب خاليًا من الحق والباطل، ثم يزن بعقله المستقيم العقائد الصحيحة النافعة التي جاءت بها الرسل بما يضادها من العقائد الأخر، ويزينها بحقٍ وعدلٍ وإنصافٍ وفهمٍ صحيح، فإنه يظهر له الفرق العظيم، ويتضح له أن من سوى بين ما جاءت به الرسل وبين غيره كالمسوي بين الليل والنهار والضياء والظلمة، فكيف بمن فضَّل الإلحاد على دين رب العباد؟ فإن الحق بطبيعته وبراهينه يمحق الباطل ولا يبقى له معه قرار.

الشرح:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الوجه: (**أنه لو فُرض أو قُدر أن الإنسان يمحو من قلبه كل عقيدة، ويصير القلب خاليًا من الحق والباطل، ثم يزن بعقله المستقيم العقائد الصحيحة النافعة التي جاءت بها الرسل بما يضادها من العقائد الأخر، ويزينها بحقٍ وعدلٍ وإنصافٍ وفهمٍ صحيح فإنه يظهر له الفرق**)؛ يقول: لو فُرض ذلك؛ لو فُرض مع أن صاحب الحق لا يمكن، لا يمكن صاحب الحق الذي عرف الحق وفهمه أن يمحو من قلبه أن الله ربنا، وأن الله خالقنا، وأن الله عَزَّوَجَلَّ يبعثنا ويجازينا على ما علمنا، وأن الله أعد الدار الآخرة للجزاء والحساب، وأن غير ذلك من العقائد الرواسخ الثابتة لا يمكن أن يمحوها مؤمنٌ من قلبه، ويزيحها من قلبه بهذه الدعوة الجائرة إلا من خُسف عقله وتلف، من خُسف عقله وتلف تلفًا تامًا هذا الذي يمكن أن.. وإلا فإن المؤمن لا يمكن أن يمحو ذلك.

لكن يقول: لو قُدر أن شخصًا محى هذه العقائد، ثم أخذ ينظر بعقله نظرًا متجردًا فيه، فيوازن بين العقيدة التي في الكتاب والسُّنَّة، والعقائد التي يدعو إليها هؤلاء، سيجد الفرق واضح إن كان عنده عقل، لكن الحقيقة وهذا على التنزل فقط في المثل، هذا الذي محى ثم نظر، محوه لم يكن ناشئًا إلا عن ماذا؟ أكلموا.. لم يكن ناشئًا إلا

عن ضياع عقله، ما عنده عقل، لا يمكن أن يمحو إلا من لا عقل له، لا يمكن أن يمحو هذه العقائد الصحيحة إلا من لا عقل له، لكن هذه تُذكر تنزلًا في مقام المناقشة والردود وإلا لا يمكن أصلًا صاحب الحق يمحو من ذلك، ثم يبقى له عقلٌ مستقيم لينظر؛ لأن محوه للحق يدل على فساد عقله، وإذا فسد عقله فسد أيضًا نظره، لكن هذا إنما يُذكر فقط في مقام التنزل، فلو فُرض ذلك ونظر بعقلٍ مستقيم، أو عقلٍ منصف ووازن، سيجد أن الفرق شاسع، كالفرق بين الضياء والنور.

قال: (**فكيف بمن فضَّل الإلحاد على دين رب العباد؟**)؛ قال: (**فإن الحق بطبيعته وبراهينه يمحق الباطل ولا يبقى له معه قرار**).

المتن:

الوجه السادس عشر: أن الأمور اليقينية، والحقائق الصادقة يستحيل أن تقدح فيها الشبهات والتشكيكات بوجهٍ من الوجوه، وقد عُلم بالأدلة والبراهين المتنوعة نقلًا وعقلًا وفطرة أن ما جاءت به الرسل هو الحق واليقين والدين الحق، وبراهين ذلك لا تُحصى كثرةً وقوةً ووضوحًا، وقد صنفت الكتب الكبار والصغار من أصناف الطوائف في تحقيق صدق الرسل وصحة ما جاءوا به، وأنه الحق والهدى، وأن كل ما نفاه وخالفه إذا قيس به وقرن معه اضمحل وبطل، ولم يكن له إليه نسبةٌ بوجهٍ من الوجوه فمتى علم المنصف ذلك عرف أنه ليس بعد الحق إلا الضلال والمحال، وأن تأصيل هؤلاء الملحدين هذا الأصل الفاسد من أكبر ما يدل على فساد أديانهم وسفاهة عقولهم وسوء مقاصدهم.

الشرح:

هذا الوجه السادس عشر: (**أن الأمور اليقينية**)؛ الثابتة البينة الواضحة (**يستحيل أن تقدح فيها الشبهات**)؛ يستحيل أن تكون الشبهات المجردة قادحة فيها؛ لأن هذه أمور يقينية، والأمور اليقينية مسلمة، فلا يمكن أن تقدح فيها مثل هذه الشبهات، ولهذا الشبهات لا تروج ولا تنطلي إلا مع ضعف اليقين بهذه اليقينيات، لا تروج ولا تنطلي إلا عند ضعف اليقين؛ فتنطلي على المرء بمثل هذه الشبهات، ولهذا أول ما يكون من هؤلاء خلخلة يقين صاحب الحق، فإذا تخلخل اليقين عنده أمكنهم حينئذٍ أن يدخلوا عليه ما يُدخلوا من الشبهات، أما الشبهات في نفسها لا يمكن أن تكون قادحة في اليقين، بل اليقين هو الذي يدحض الشبهات ويكشف عورها وزيفها، مثل ما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[سورة الإسراء، من الآية: ٨١].

المتن:

قال:

الوجه السابع عشر: أن العلوم النافعة التي اتفق عليها أتباع الرسل وأهل الهدى مدارها على أمرين:

أحدهما: أن يُعرف ما أخبرت به الكتب السماوية والرسل عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر وسائر الغيوب، وما أخبرت به وحكمت به من الأحكام التي يتعبد المكلفون بها ويتعاملون، ويُعتقد ذلك ويُعمل به.

الثاني: معرفة براهين ذلك العقلية والسمعية والنظرية، والوقوف على أسرارها وحكمها، فهذه العلوم النافعة التي خلق الله لها الخلق وأُرسلت بها الرسل وتتوقف السعادة والفوز والفلاح عليها، فالسعي في إزالتها من القلوب أعظم معاندةً ومشاقةً ومحاربة لله ورسله، وإنما المطلوب الأعلى حصولها في القلوب وثبوتها، فتبًا لطائفةٍ زائغةٍ قدمت مقالات الملاحدة على كلام الله ورسوله.

الشرح:

الوجه السابع عشر: (**أن العلوم النافعة التي اتفق عليها أتباع الرسل وأهل الهدى مدارها على أمرين**)؛ ثم ذكرهما، حاصل الأمرين أن العلوم النافعة:

- إما مسائل هذا الأمر الأول.
- أو دلائل، ولهذا الدين وأصول الإيمان، وأمور الدين عمومًا هي مسائل ودلائل.

الأمر الأول: من الأمرين هو المسائل، المسائل وهذا يتناول مسائل الاعتقاد التي هي أصول الديانة، ويتناول أيضًا مسائل الأحكام التي هي العبادات التي كُلف بها المكلفون من صلاة وصيام وصدقة إلى آخره، فالدين مسائل.

ودلائل، دلائل؛ أي: دلت على هذه المسائل، والدلائل مردها والمعول فيها على كتاب الله وسُنَّة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدينٌ هذا شأنه، وعلومٌ نافعةٌ هذا شأنها، مسائل هي أعظم المسائل وأجلها وأنفعها وأكبرها، وقائمة على دلائل هي أصح الدلائل وأبينها وأوضحها وأظهرها، كيف يُطلب من أهلها أن يمحوا هذه العلوم

النافعة من مسائل ودلائل، أن يمحوا ذلك من قلوبهم؟! فيمحوا العلم النافع، ويمحوا العمل الصالح، يمحوا العلوم النافعة، ويمحوا أيضًا الأعمال الصالحة، وهذا هو الصراط المستقيم كما تقدم وهو الهدى.

(فتبًا)؛ مثل ما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(لطائفةٍ زائغةٍ قدمت مقالات الملاحدة على كلام الله وكلام رسوله** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ**)**؛ وأخذت تدعو الناس إلى محو كل هذه العلوم النافعة بمسائلها العظيمة ودلائلها وبراهينها الواضحة، ثم يطلبون من الناس أن يدخلوا في الشك المزعوم والحيرة، ثم بعد ذلك ينظروا نظرًا مجردًا أو متجردًا بزعم هؤلاء، فلا يؤمنون إلا بما يكون محسوسًا أو مشاهدًا، وهل هذه إلا إضاعة تامة وجناية عظيمة على العقول، وعلى الفكر، وعلى الألباب، وهدم لما فيها من الكمال والرفعة والعز وما به سعادة الناس في الدنيا والآخرة.

المتن:

الوجه الثامن عشر: أن الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- جاءوا بمحق ما يقع في القلوب مما ينافى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتوابع ذلك، وإزالة كل شبهةٍ تعرض للقلوب تقدح في هذا الأصل، أو تُخل به بالبراهين القاطعة الواضحة، ليكون الإيمان صحيحًا، والقلب سليمًا من الشبهات والشكوك والإرادات الفاسدة، والقرآن والسُّنَّة مملوآن من ذلك، وهؤلاء الملحدون يريدون نقيض ذلك، فهم أئمة الكفر والجحود حادُّوا الله ورسله أعظم محادَّة.

الشرح:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الوجه: **(أن الرسل -عليهم صلوات الله وسلامه- جاءوا بمحق ومحو ما يقع في القلوب مما يُنافى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتوابع ذلك، وإزالة كل شبهةٍ تعرض للقلوب)**؛ وهذا الذي يُعرف بالتزكية؛ تزكية القلوب، الرسل بعثوا بذلك: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٦٤]؛ يزكيهم بتلاوة الآيات، فالرسل بُعثوا بتزكية القلوب وتنقيتها وتطهيرها، وأن يُمحى منها كل شبهة تقدح في الإيمان، وتقدح في هذه الأصول العظيمة، فالرسل جاءوا بمحو الشبهات القادحة في الإيمان، بينما هؤلاء الملاحدة جاءوا بمحو ماذا؟ الرسل جاءوا بمحو الشبهات التي تقدح في الإيمان، والملاحدة جاءوا بماذا؟ جاءوا بمحو الإيمان نفسه، جاءوا بمحو الإيمان التي بُعثت به الرسل، وأُنزلت به الكتب، وقامت عليه أوضح البراهين وأصدق الدلائل، فهؤلاء الملاحدة يريدون محو الإيمان نفسه، فالرسل بُعثوا لمحو ما ينافي الإيمان، أو شبهٍ تقدح في الإيمان أو نحو

ذلك تزكيةً للقلوب وتطهيرًا لها، وأولئك جاءوا بمحو الإيمان نفسه، فهذا من أعظم المشاقَّة لله والمحادَّة لله ولرسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

المتن:

الوجه التاسع عشر: أن من أعظم الأصول التي جاءت بها جميع الرسل، خصوصا خاتمهم، وإمامهم محمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإيمان بالقضاء والقدر مع الحث على فعل جميع الأسباب النافعة في الدين والدنيا، والكتاب والسُّنَّة مملوآن من ذلك، وأن جميع الحوادث مربوطةٌ بقضاء الله وقدره، ونواصي العباد بيده، وأنه لا حول للعباد ولا قوة لهم إلا بالله، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يدفع السيئات إلا هو، وأن جميع النعم الباطنة والظاهرة كلها من الله.

فهذا الأصل الكبير قرره الكتاب والسُّنَّة في مواضع كثيرة، وهو أصل توحيد الربوبية، وقصد تقريره في القلوب، واعتقاده الكامل المثمر لكل خير، وهؤلاء الملحدون يريدون ويحاولون من الخلق أن يجحدوا قضاء الله وقدره، ويعتقدوا أنه لا حاجة إلى الاستعانة برب العالمين رأسًا؛ لأنهم جحدوه وعطلوا أفعاله بالكلية، واعتقدوا أن الأفعال كلها للطبيعة، وكفى بقولٍ جهلًا وضلالًا أن يصل إلى هذا الحد الفظيع.

الشرح:

هذا وجهٌ آخر في الرد على أولئك، أن الرسل أجمعين اتفقوا على الإيمان بالقضاء والقدر، وأن الأمور كلها بقضاءٍ وقدر، وهذا الأصل مع بقية أصول الإيمان وهي ستة متفقٌ عليها بين جميع الرسل، فلا خلاف بين رسولٍ وآخر في أي أصل من أصول الدين، الأصول واحدة، والعقيدة عند جميع الرسل واحدة.

ولهذا قال العلماء: "العقيدة لا يدخلها النسخ"، النسخ يكون في الأحكام والشرائع، أما العقيدة واحدة ثابتة عند الأوليين والآخرين، ومتفق عليها بين جميع النبيين، الإيمان بالله، الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالملائكة، الإيمان بالكتب، الإيمان بالرسل، الإيمان بالقضاء والقدر هذه أصول ثابتة، أصول ثابتة بين جميع الأنبياء وجميع المرسلين.

ولهذا مثل ما قال الشيخ: إذا قرأت القرآن والسُّنَّة تجدهما مملوآن بالأدلة على ذلك، الأدلة على الاتفاق؛ اتفاق الأنبياء والرسل على هذه الأصول العظيمة مع الأخذ بالأسباب، وهذا أيضًا متفق عليه؛ لأن حقيقة الإيمان بالقدر أن يُسلم الأمر، أو يُسلم المرء أن الأمور كلها بقضاء الله وقدره، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأن ما أصاب المرء لم يكن ليخطئه، وما أخطئه لم يكن ليصيبه، ثم مع هذا الإيمان يبذل الأسباب

النافعة فيما تتحقق به مصالحة الدينية والدنيوية، أحرص على ما ينفعك واستعن بالله؛ فاعبده وتوكل عليه، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة، من الآية:٥]؛ فجاءوا بهذا وهذا، جاءوا بفعل الأسباب والإيمان بأن الأمور كلها بقضاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا أصلٌ كبير قرره الكتاب والسُّنَّة، واتفقت عليه جميع الرسل، وهو من الإيمان بربوبية الله.

وهؤلاء الملاحدة يريدون ويحاولون من الخلق أن يجحدوا القضاء والقدر، وأن يكذبوا بالقضاء والقدر، وأن الأمور ليست بقضاء وقدر؛ لأنهم يجحدون أصلًا المقدر، الرب العظيم الذي الأمر كله بتدبيره وقضاءه وقدره يجحدون ذلك، ولهذا ما يدعوا إليه هؤلاء الملاحدة هو هدمٌ لكل الأصول، وهدمٌ لكل القيم العظيمة والأخلاق المتينة، كل ذلك يُهدم على هذه الأصول التي يدعو إليها هؤلاء الملاحدة.

المتن:

الوجه العشرون: أن هؤلاء الملحدين حصروا العلوم المدركة في دائرةٍ ضيقة، فما أدركوه بحواسهم وتجاربهم أثبتوه، وما لم يدركوه بذلك نفوه وأنكروه، فأنكروا من أجل ذلك علوم الغيب كلها، وجحدوا ربوبية الله وأفعاله، وعطلوه من صفاته وأفعاله، إذ لم يدخل ذلك تحت مداركهم القاصرة، وهذا باطلٌ شرعًا وعقلًا.

الشرح:

هذا الوجه العشرون: (**أن هؤلاء الملحدين حصروا العلوم المدركة**)؛ التي يحصلها المرء ويدركها (**في دائرةٍ ضيقة**)؛ وهي دائرة ما يعرفه أو يقف عليه بحسه أو حواسه ومشاهدته ومعاينته، مثل ما مر معنا في الأصل الذي قرره هؤلاء، أتبعوا قاعدتهم بحصر المعلومات بالمحسوسات، فبناءً على ذلك أنكروا جميع الأمور المغيبة التي جاءت بها الرسل، والله وصف المؤمنين بقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[سورة البقرة، من الآية:٢-٣]؛ أي: يؤمنون بكل ما غاب عنهم مما أخبرتهم به رسل الله، فالمؤمن يؤمن بكل هذه المغيبات إيمانًا جازمًا ثابتًا في قلبه لا شك عنده فيه ولا ريب؛ لأنه جاءت على ذلك أخبار صادقة، وبراهين واضحة، ودلائل بينة، فهو يؤمن إيمانًا جازمًا بذلك، بينما هؤلاء الملاحدة يريدون هدم ذلك ومحوه، ومحوه كله وألا يؤمن المرء بزعمهم إلا بما يُحس ويشاهد، وهذا الذي يقولونه وهو أنه حصر المعلومات في المحسوسات فقط، هذا باطل شرعًا وعقلًا، ثم وضَّح الشيخ وجه دلالة الشرع على بطلان ذلك، ثم وجه دلالة العقل على بطلان ذلك.

المتن:

أما الشرع فجميع الكتب السماوية، وجميع الرسل تُبطل قولهم وحصرهم العلوم بمدركات الحس الظاهرة ونفيهم لما عداها، وتُثبت بالبراهين اليقينية من علوم الغيب، ومن العلوم التي لا تُدرك إلا بالوحى من الحقائق النافعة الصحيحة، والمعارف الصادقة ما لا نسبة لعلومهم كلها إليها من أولها إلى آخرها.

قال الشيخ: وهم يعترفون أن علوم الأنبياء لا يمكن أن توزن بميزان صناعتهم، فأكثر الحقائق النافعة يعترفون أنه لا سبيل إلى وزنه بها، فهي يوزن بها المتاع الخسيس دون الحقائق النافعة والأمر النفيس الذي ليس للنفوس عنه عوض، وليس سعادتها إلا فيه، فهم لم يزنوا بالقسطاس المستقيم، ولم يستدلوا بالآيات البينات التي هي العلوم الحقيقية، والحكمة اليقينية التي فاز بالسعادة عالمها وخاب بالشقاوة جاهلها.

وأهل المنطق متفقون على أنه لا يفيد إلا أمورًا كليةً مقدرةً في الذهن لا في الخارج، والعلوم الموروثة عن الأنبياء أجَّل وأعظم من أن يكون لها التفاتٌ أو حاجةٌ إلى عملهم، بل إدخال علمهم في العلوم الصحيحة يطوْل العبارة ويُبعد الإشارة، ويجعل القريب من العلم بعيدًا، واليسير منه عسيرًا، ولا يفيد إلا كثرة الكلام والتشقيق مع قلة العلم والتحقيق، والأمور الموجودة المحققة تُعلم بالحسّ الباطن والظاهر، وتُعلم بالقياس التمثيلي، وتُعلم بالقياس الذي ليس فيه قضيةٌ كلية، ولا شمولٌ، ولا عموم، انتهى.

الشرح:

هذا نقل ذكره عن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقبل ذلك أوضح رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما يتعلق بدلالة الشرع أن جميع الكتب السماوية وجميع الرسل تُبطل قولهم هذا الذي هو حصرهم للعلوم بمدركات الحس، ومن يقرأ القرآن ويقرأ سُنَّة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يجد فيهما من الشواهد والدلائل الكثيرة التي تُبطل هذه الدعوة الفاسدة الباطلة.

ونقل عن شيخ الإسلام أن علوم هؤلاء لا يمكن أن يوزن بها الحق، نعم قد يوزن بها أمورٌ من أمور الدنيا، وأشياء من أمور الدنيا أو نحو ذلك، أما الحقائق النافعة، والأمر النفيس الذي وحي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يمكن أن تُجعل العقول ميزانًا يوزن به هذا الوحي المنزل من الله، فما قبلته قُبل وما لم تقبله لم يُقبل لا يمكن؛ لأن العقول أحقر من أن تكون لها شأنٌ في هذا المقام، بل ليس لها إلا أن تتلقى هذا الوحي بالتسليم والرضا والقبول، نعم تكون تزن أشياء تتعلق بمتع الدنيا وأشياء من هذا القبيل، أما أن يوزن الحق، أن يوزن الوحي المنزل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذا لا يمكن.

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن علوم هؤلاء مع ما تؤول إليه من نتائج فاسدة وعواقب وخيمة فيها مثل ما ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى فيها التطويل؛ تطويل العبارة، وبُعد الإشارة، وجعل القريب من العلم بعيدًا، واليسير منه عسيرًا، ولا يفيد إلا كثرة الكلام والتشكيك، وهذا ذكره شيخ الإسلام في ذم المنطق.

ومن كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي يُشبه أيضًا الذي ذكره هنا أن شبهه بلحم الجمل الغث قال: "كلحم جملٍ غثٍ على رأس جبلٍ وعرٍ فلا سمينٌ"؛ أي: لحم فينتقل، "ولا سهلٌ"؛ أي: الجبل فيُرتقى، فهؤلاء هذا حاصل ما عندهم في هذا العلم الذي هو تطويل في العبارة، وتشكيك في الكلام وإلى آخر ذلك، ثم لا يصلون إلى حقائق يقينية، فكيف يُعرض المرء عن الوحي المنزل؛ كلام الله وكلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويُقبل على كلام هذا شأنه وهذه صفته؟!

المتن:

وأما العقل فجميع العقلاء المعتبرين يثبتون للعلوم مدارك غير مدارك الحس.

الشرح:

نعم أولئك يقولون هي محصورة في الحس، لكن العقلاء يثبتون أن العلوم لها مدارك، مدارك أخرى غير مدارك الحس، سيأتي الإشارة إلى شيءٍ منها، (**وأما العقل..**).

المتن:

فجميع العقلاء المعتبرين يثبتون للعلوم مدارك غير مدارك الحس، فإن مدارك العلوم: الحس، والعقل، والأخبار الصادقة، فالأخبار الصادقة أعلاها وأصدقها وأحقها بالحق خبر الله وخبر رسله، وفى ذلك تبيانٌ لكل شيء، وهدىً للخلائق، وتوضيحٌ للحقائق، وتنبيهٌ للعقول على توجيهها لكل علمٍ نافع.

ويلزم على قول هؤلاء الملحدين إبطال ذلك كله حتى يدركوه بحواسهم، وهذا ميراثٌ محققٌ من مكذبي الرسل الذين ردوا ما جاءت به الرسل بمجرد استبعادات، وأنكروا ما لم يحيطوا به علمًا، وهم لا يزالون ينقضون دليلهم الذي تمسكوا به؛ فيثبتون تجارب ونظريات، ثم تحصل تجارب ونظرياتٌ أخرى لهم ولقومهم تنفى ما أثبتوه وتُثبت ما نفوه، ولا يزالون هكذا في أمرٍ مريج حين كذبوا بالحق.

الشرح:

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن (**جميع العقلاء المعتبرين يثبتون للعلوم مدارك غير مدارك الحس**)؛ ومن ضمنها وأكد على ذلك وهو موطن التوضيح هنا؛ الأخبار الصادقة، الآن يعني في غير قضية أصول الإيمان وعقائد الدين، عندما

يأتي آتٍ إلى شخص، ويخبره عن أمرٍ قد حصل، يقول: أنا جئت الآن من بلد كذا وحصل كذا وكذا، وهو لم يرى ذلك، لكنه يعتقد أن هذا الشخص صادق لا يكذب، ولا يُعرف عنه كذب، هذا طريق من طريق العلوم بالأخبار، طريق معروف عند الناس عمومًا على اختلاف الملل، طريق صحيح معتبر في قبول الأخبار، إذا جاءه من يُخبره بشيء وهو يعلم منه الصدق وعدم الكذب، فإن هذا طريق من طريق الأخبار.

فكيف بهذه الأخبار التي جاء بها أصدق الخلق، وقامت البراهين الواضحة على صدقهم، وأيدهم الله بالحجج البينة الظاهرة، كيف يُقال أن هذا لا يُقبل؟ بل لا يُقبل إلا مقام الحس والمعاينة والمشاهدة عليه، هذا كلام من أبطل الباطل.

فالعقلاء أنفسهم يقررون أن هناك مدارك للعلوم غير الحس معتبرة عندهم حتى في أمورهم، مثل ما أشرت، وعموم يعني عموم مصالحهم، أو عموم علومهم المحصلة أو المدركة، منها علوم يحصلونها حتى لو نظر ناظر في حال هؤلاء الذين يقولون أن لا يقبلون إلا ما دل عليه الحس، تجد أن عندهم أشياء هم قابلون لها لم يدل عليها حس أُخبروا بها، فقبلوها لمجرد الخبر، لكن هذه دسيسة شر وأصل فساد يقصدون به هدم، مثل ما سبق أن عبَّر الشيخ أن هذا معول؛ مجرد معول لهدم الدين والحقائق العظيمة.

ثم هذا الذي يزعمون أنهم توصلوا إليه بالحس، يقول الشيخ: هم أنفسهم في أشياء كثيرة يزعمون أن توصلوا إليها بالحس وقامت عليها التجارب بزعمهم حتى ثبتت، يأتي منهم آتٍ فينقض تجاربهم ويُبطلها، ولا يزالون في أمرٍ مريج، هذا يثبت ويقول: قام الحس والدليل على كيت وكيت، ثم يأتي منهم من ينقض ذلك ويُبطله، ينقض ذلك فتحصل تجارب ونظريات أخرى تهدم النظريات الأولى وهذا كثير عندهم، فأصبحوا في أمرٍ مريج، لكن صاحب الحق عافاه الله وسلَّم بما أتاه من إيمانٍ تلقاه من رسل الله بهذا الوحي المنزل من رب العالمين.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد ذكر الله الأسباب التي دعت أمثال هؤلاء إلى تكذيب الحق، وهو الجهل بما لا يحيطوا بعلمه، والتبجح بما عندهم من العلوم المخالفة لعلوم الرسل، والكبر الذي في قلوبهم ما هم ببالغيه، وتقليد أئمتهم الضالين، فضعف التمييز، وتقليد أئمة الملاحدة، والإعراض عما جاءت به الرسل من أكبر الأسباب التي مكَّنت هؤلاء من لزوم الباطل.

الشرح:

هذه خلاصة جميلة في الأسباب التي دعت أمثال هؤلاء لتكذيب ما جاءت به الرسل، ورد ما جاءت به الرسل، وإن أردت توسعًا في هذه الأسباب وتفصيلًا لها فاقرأها في آخر كتاب الشيخ رحمة الله عليه سؤالٌ وجواب في أهم المهمات، في آخره ذكر سؤالًا حول هذا المعنى، وفصَّل في أظن ذكر قرابة عشرة أسباب، الأسباب التي تمنع هؤلاء من قبول الحق، أو تدفعهم للتكذيب بالحق، ومعرفة هذه الأسباب وأنصح بقراءتها في الكتاب الذي أشرت إليه السؤال والجواب فيه أهم المهمات المصنف عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، معرفة هذه الأسباب من المفيد جدًا للداعي إلى الله وطالب العلم أن يقف عليها؛ لأنه إذا كان بصدد الدعوة لا بد أن يعرف العوائق التي تعوق المدعو من قبول دعوته حتى يعمل خلال دعوته إلى معالجتها، فهنا ذكر خلاصة هو في ذلك الكتاب الذي أشرت إليه ذكر تفصيلًا واسعًا في هذا الباب.

فخلاصة ما يدعو أو ما دعا هؤلاء إلى تكذيب الحق:

- الجهل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾[سورة يونس، من الآية:٣٩]؛هذا منها.
- التبجح بما عندهم من العلوم: ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾[سورة غافر، من الآية:٨٣]؛ هذا أيضًا من الأسباب.
- أيضًا الكبر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾[سورة غافر، من الآية:٥٦]؛الكبر -والعياذ بالله- يُعمي صاحبه ويصمه عن الحق.
- أيضًا تقليد أئمة الضلال، وهذه مصيبة جدًا إذا ابتلي الإنسان بإمام ضلالٍ نشأ في تلقيه على يديه، هذا أمره عسير إلا أن يسلمه الله وينجيه، ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ﴾ [سورة الزخرف، من الآية:٢٢]؛ يقولون: ﴿ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[سورة الزخرف، من الآية:٢٢]؛هذه من الأمور التي صدت كثير من الناس عن الحق، ولهذا قال نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: **«إِنَ أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ»**، فهذه الأسباب التي تدعو إلى رد الحق، أو تمنع كثير من الناس من قبول الحق، وتجدونه مثل ما أشرت مفصلة في آخر كتاب المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ سؤال وجواب في أهم المهمات.

المتن:

الوجه الحادي والعشرون: أن هؤلاء الماديين الملحدين لما سدوا على أنفسهم بهذا الأصل الخبيث أكمل الطرق الموصلة للعلوم النافعة وأصحها وأهداها وأقومها وأوضحها، وهي العلوم التي جاءت بها الرسل، ونزلت بها الكتب السماوية، وفطر الله عليها عقول العباد إلا من فسدت فطرته بالعقائد الفاسدة، فسدَّ هؤلاء

هذا الباب النافع العظيم على أنفسهم وأتباعهم، وحصروا علومهم ومعارفهم في الأسباب المادية فقط، وتوسعوا فيها ومهروا واخترعوا وبلغوا حيث انتهت إليه معارفهم وأفهامهم، وانقطعت بذلك صلتهم بالله، ورسله، وكتبه، وبعلوم الرسل بالهداية الصحيحة المثمرة لصلاح الظاهر والباطن وسعادة الدنيا والآخرة، فوقعوا في أمرٍ مريج، وتخبطت نظرياتهم، وكلما اتفقوا أو أكثرهم على نظرية عن انتظام الأسباب بعضها ببعض وارتباطها الوثيق حاروا في المواد الأولية وفى سبب الأسباب، فينقضون ما اتفقوا عليه، ويُبطلون ما كانوا أسسوه، ولا يزالون كذلك ما داموا لم ينفذوا من الأسباب إلى مسببها، ومن المخلوقات إلى خالقها، فما داموا كذلك فإنهم لا يستطيعون الاستقرار على رأيٍ جامعٍ لجماعتهم ومسعدٍ لهم في الدنيا والآخرة، ونهاية ما يصلون إليه: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:٧]؛ نسوا الله فنسيهم وتركهم في طغيانهم وغيهم وضلالهم يعمهون، ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة غافر، من الآية:٨٣].

الشرح:

هذا الوجه أيضًا وجه عظيم جدًا في إبطال هذه المقالة، أن هؤلاء حصروا أنفسهم في مضيقٍ مظلم، أغلقوا أنفسهم في هذا المضيق بهذه القاعدة التي قعدوها لأنفسهم ولأتباعهم؛ فأصبحوا لا يؤمنون إلا بما دل عليه الحس والمشاهدة، وما سواه لا يؤمنون به، فحصروا أنفسهم في مضيقٍ مظلمٍ تمامًا، وأصبحوا يتوسعون في علوم الدنيا، وبرعوا في كثيرٍ منها، وحصلُّوا منها شيئًا كثيرًا، والله ذكر ذلك في القرآن قال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [سورة الروم، من الآية:٧]؛ يعني: علومًا دنيوية، وبرعوا فيها، لكن أبيْن الحقائق وأوضحها وأصحها وأصدقها ليس عندهم فيها أي علم، ولهذا قال قبلها: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [سورة الروم، من الآية:٦-٧]؛ فنفى عنهم العلم بأصدق الأمور وأوضحها، وأثبت أنهم يعلمون لكن علومًا في حدود الدنيا ﴿ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فهم بهذه القاعدة حصروا أنفسهم في مضيقٍ مظلم تمامًا صرفهم عن أن يصلوا إلى الحق، أو أن يقفوا عليه، ومن عافاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من هذا المضيق الذي أدخلوا أنفسهم ومن اتبعهم فيه سلم من هذا الضلال الذي هو فيه، واهتدى إلى الحق والهدى، لكن أولئك لما حصروا أنفسهم بهذا الأمر بقوا في ظلمة تامة؛ وإن كانوا حصَّلوا شيئًا من علوم الدنيا.

لكن العلم بأوضح الأمور، وأبين الحقائق وأكبرها، ما عندهم منه خبر ولا عندهم فيه علم، يجهلون ما خلقهم الله لأجله، يجهلون ما وجدوا لأجله يجهلونه تمامًا لا يعرفونه، وتجد منهم من هو بارع في أمور هي من أمور الدنيا ومصالح الدنيا ومنافعها، لكن أمور الآخرة أمور التي إذا خرجت روح الواحد منهم عن جسده وآل إلى ذلك المآل ذلك ما عندهم منه أي خبر، ولا عندهم في أي علم، وهذا كله من جنايات هذا الأصل، هذا الأصل يجني على أربابه وأتباعه ومن يقبل هذا الأصل يجني عليه جناية عظيمة حتى يصل إلى الحال التي عليها هؤلاء، ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:٧]؛ يفرحون بعلومهم، لكنهم ليس عندهم أي خبرٍ، أو أي علمٍ بأوضح العلوم وأبينها وأصدقها وأصحها.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ العافية والمعافاة الدائمة في الدنيا والآخرة.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

(المجلس الرابع)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد...

المتن

فيقول العلَّامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتابه **[الأدلَّة القواطع والبراهين في إبطال أصول المُلحدين]**: «الوجه الثاني والعشرون: أنَّهم حِين أصَّلوا هذا الأصل الباطل الذي جعلوه ميزان العلوم كلها تجرَّأوا جراءةً فظيعة على تحليل حياة الرُّسُل بناءً على هذا الأصل، وتجرهموا بعقولهم الفاسدة وعلومهم القاصرة إلى القَدْح بالرُّسُل، وإسقاط منزلتهم من قلوب السمَّاعِين لهم المستجيبين لدعوتهم؛ حتى أبطلوا بذلك الوحي والرسالة والمعاد، وأنكروا الربَّ تصريحًا وتعريضًا، وتدرَّجوا بذلك إلى القَدْح في جميع الأديان.

ولم يجعلوا للرُّسُل مِيزةً على غيرهم؛ بل فضَّلوا طواغِيتهم وفلاسفتهم عليهم.

فأصلٌ هذه آثاره الخبيثة، وهذه ثمراته السُّمِّية المُنتنة الحنظلية، كيف يليقُ بمَن له أدنى معقولٍ أن يُصْغِيَ إليه أو يبنِي عليه شيئًا من علومه ومعارفه؟ فإنَّه مُفسدٌ للأديان والعلوم، ومخبِّطٌ للأذهان؛ فهو أعظم أصول الغي والضلال.

﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢١٣]».

الشرح:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمَّا بعد..

فهذا وجهٌ آخر من الوجوه التي أوردها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في إبطال الأصل الباطل الذي هو أساسٌ بُنِيَ عليه الإلحاد، وعموم الضلال؛ فمرَّ معنا الأصل الذي أصَّلوه، ومرَّ معنا أيضًا وجوهٌ عديدة في إبطاله.

ذَكَرَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هذا الوجه في إبطال ما أصلوه، قال: (**أنَّهم حِين أصَّلوا هذا الأصل الباطل الذي جعلوه ميزان العلوم كلها**)؛ قف عند هذه الكلمة وتأمَّل في الخطورة التي انبَنَتْ على التأصيل الباطل الذي أصَّلوه، أصبح الأصل الذي أصَّلوه ميزان تُوزَن به كل الأمور بما في ذلكم الرُّسُل وما جاءوا به، بما في ذلك الرُّسُل وما جاءت به الرُّسُل كلُّ ذلك يُخضَع لميزان هؤلاء.

وهذا فيه قلب للحقائق، قلب للأصول؛ لأنَّ الرُّسُل -في الحقيقة- هم الميزان الأكبر الذين على ضوء أعمالهم تُوزَن الأمور، وعلى ضوء هَدْيهم تُوزَن الأمور، فما وافَقَ هَدْيهم فهو الحق، وما خالفه فهو الباطل.

ولهذا جاء عن سُفيان بن عُيَيْنة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «إنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الميزان الأكبر؛ فعليه تُعرَض الأشياء؛ على خُلُقه، وسِيرته، وهَدْيه؛ فما وافَقَها فهو الحق، وما خالفها فهو الباطل».

وأولئك عَكَسوا الأمر، بل جعلوا الرُّسُل أنفسهم وما جاءوا به خاضع لموازِينهم، وجعلوا موازينهم تُوزَن بها حتى ما جاء عن الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه.

(**تجرَّأوا جراءةً فظيعة على تحليل حياة الرُّسُل بناءً على هذا الأصل**)؛ بمعنى: أنَّ كل ما جاءت به الرُّسُل من المغيَّبات عندهم ماذا؟ غير مقبول؛ لأنَّه لا يتوافَق مع الميزان الذي وَضَعوه؛ فهو مردود لا يُقبَل.

ولهذا سبحان الله! مثل ما عبَّر بعض أهل العلم أقوال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عندهم كأقوال سائر الناس، أقواله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كأقوال العلماء وأقوال الحُكماء، وأقوال سائر الناس.

فجعلوا أصولهم ميزانًا يُوزَن به حتى ما جاءت به الرُّسُل -عليهم صلوات الله وسلامه-؛ فـ **(تجرَّأوا جراءةً فظيعة على تحليل حياة الرُّسُل بناءً على هذا الأصل)**.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتجرهموا بعقولهم الفاسدة)**؛ وجدتُ في أحد المعاجم اللغوية المتأخِّرة قال: «تجرهَمَ على الأمر» أي: جَسَرَ عليه؛ **(وتجرهموا)**؛ أي: جَسَروا **(بعقولهم الفاسدة وعلومهم القاصرة إلى القَدْح بالرُّسُل، وإسقاط منزلتهم من قلوب السمَّاعِين لهم المستجيبين لدعوتهم)**.

ولهذا -مثل ما ذَكَرَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ- مَن يستمع لدعوتهم، ويَركَن لأقوالهم؛ لا تُصبح عنده قِيمة لِمَا جاءت به الرُّسُل من الأمور والأصول والقواعد العظيمة التي هي أساسٌ يُبنَى عليها دِين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(حتى أبطلوا بذلك الوحي والرسالة والمعاد، وأنكروا الربَّ تصريحًا وتعريضًا، وتدرَّجوا بذلك إلى القَدْح في جميع الأديان، ولم يجعلوا للرُّسُل مِيزةً على غيرهم). **(لم يجعلوا للرُّسُل مِيزةً على غيرهم)**؛ لأنَّه عندما يُقال: «قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» أو «قال فلان بن علَّان من عامة الناس أو من الحكماء....» هذا كله واحد، وجميع هذه الأقوال عندهم مُخضعة للأصول التي أصَّلوها، والقواعد التي قعَّدوها، والموازِين التي جعلوها لتُوزَن بها الأعمال أو الأقوال.

فـ **(لم يجعلوا للرُّسُل مِيزةً على غيرهم؛ بل فضَّلوا طواغِيتهم وفلاسفتهم عليهم)**؛ أي: على الرُّسُل **(فأصلُ هذه آثاره الخبيثة، وهذه ثمراته السُّمِّية، كيف يليقُ بمَن له أدنى معقولٍ أن يُصْغِيَ إليه)**، أو يستمع إليه؛ فتصوُّر مثل هذه الأمور كافي في أن يكون المرء في بُعْدٍ عن مثل ذلك.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «الوجه الثالث والعشرون: أنَّ العلوم المُدرَكَة بالحِسِّ إذا نُسِبت إلى علوم الرُّسُل (كالعلوم المتعلِّقة بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأحوال الآخرة، والجزاء على الخير والشر وأمور الغيب، والإخبار بما كان وما يكون، وما يُسعِد النفوس ويُشقِيها)؛ كانت كقطرةٍ في بحرٍ لُجِّي.

فأمور الغيب التي تتوقَّف على إخبار الرُّسُل ووحي الله وهدايته العامة والخاصة أبطلها هؤلاء الملاحدة؛ إذ ضيَّقوا دائرة المعلومات جدًّا في مدركات حواسِّهم؛ فلهذا حاروا واضطربوا ولم يستقِرَّ لهم قرار على أقوالٍ

تتفق عليها آراؤهم؛ لأنَّهم أنكروا العلم الحقيقي النافع الذي يُزكِّي النفوس ويُسعدها ويُرقِّيها في مدارج الكمال».

الشرح:

هذا أيضًا وجه آخر، عندما حَصَر هؤلاء العلوم فيما يُدرَك بالحِسِّ فقط، عندما حَصَروا العلوم فيما يُدرَك بالحِسِّ فقط نَتَجَ عن ذلك أنَّهم ضيَّقوا دائرة العلم.

بل -مثل ما قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ- هذه العلوم التي تُدرَك بالحِسِّ عندما تُقارَن بالعلوم المتعلِّقة أو العلوم التي جاءت بها الرُّسُل ما يتعلَّق (**بالله وأسمائه وصفاته**) وعظمته، (**وأحكامه، وأحوال الآخرة، والجزاء**)؛ إلى غير ذلك من العلوم العظيمة التي هي أساس السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة؛ يجد أنَّ ذاك العلم الذي إنَّما يُحصَّل بالحِسِّ كقطرة في بحر؛ فضيَّقوا دائرة العلم وحَصَروها في هذا الباب

ثم لمَّا كان منهم هذا الحَصْر للعلم في هذه الدائرة أصبحوا في تخبُّط وفي أمرٍ مريج؛ لأنَّه بهذا الحَصْر لهم للعلم في هذه الدائرة حَجَبوا عن أنفسهم وعن أتباعهم كل خيرٍ ورِفعة، وكل فلاحٍ وسعادة، وأصبحوا في تخبُّط.

ثم لمَّا بنوا العلم على النظريات التي عندهم هي نفسها خَبط؛ ولهذا -مثل ما ذَكَر الشيخ- لم يستقر لهم قرار على أقوال تتفق عليها كلمتهم هم؛ فلا يزال الواحد منهم في تنقُّلات، وفي اضطراب، وفي حيرة، وفي شكوك، يُصبح على عقيدة ويُمسِي على أخرى؛ لأنَّه ليس هناك أساسٌ يبنِي عليه، ولا أصل يُقِيم عليه اعتقاده أو دِينه.

فهذا كله من جناية حَصْرهم للعلم بالشيء المحسوس فقط.

المتن:

قال: «ومن المُنكَر والزور: تخصيصهم علومهم القاصرة باسم العلم، فحيث أطلقوا «العلم» أرادوا به: علوم الفلسفة وما نَتَجَ عنها، ونفوا العلم عمَّا سواها.

وهذا من باب المُكابرات وقَلْب الحقائق؛ وإلَّا فالعلم الحقيقي الذي أثنى الله عليه في كتابه علوم الرُّسُل وهداية الوحي المُنزَّل من عند العليم الخبير، وما سواها:

- فإمَّا علومٌ ضارة.
- وإمَّا قليلة النَّفْع.
- وإمَّا نافعةٌ في أمور الدنيا دون أمور الدِّين.

وقد نَفَخَتْ روح الكِبر في قلوب أصحابها، واحتقروا لأجلها العلوم النافعة في الدِّين والدنيا، فما أضرَّها وأضرَّ ثمرتها، ونعوذ بالله من علمٍ لا ينفع».

الشرح:

يعني: هم لمَّا كان أمرهم بهذه الحال، وكان عندهم العُجْب بعلومهم، آرائهم، فلسفاتهم؛ احتقروا العلم الذي جاءت به الرُّسُل وانتقصوه ولم يروه شيئًا، وعندهم إذا أُطلِق العلم فالمراد به ما عندهم من آراء وفلسفات وأشياء من هذا القبيل.

بينما العلم الحقيقي الذي إذا أُطلِق العلم فإنَّما يتَّجه إليه العلم بما خُلِقَ العبد لأجله ووُجِدَ لتحقيقه، ومَن كان عمًى عن هذا العلم فهو من الجُهلاء ومن أهل الجهل مهما أُوتِيَ من العلوم؛ ولهذا يُوصَف هؤلاء في القرآن بأنَّهم يجهلون.

فمَن لا يعلم ما خُلِقَ لأجله وأُوجِدَ لتحقيقه فهو من الجُهَّال مهما أُوتِيَ من علوم الدنيا، ونحو ذلك ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [سورة الرعد، من الآية:١٩]؛ الذي لا علم له بالمُنزَّل وبما خُلِقَ العباد لأجله فهو أعمى، اعمى حتى وإن أُوتِيَ علومًا دنيوية، وإن توسَّع في شيءٍ منها فهو أعمى لأنَّه في عَمَى عن العلم الحقيقي؛ ومع ذلك يُكابرون ويُسمُّون آراءهم (**العِلم**)؛ انتقاصًا لِمَا سِوَى ذلك، وبخاصةٍ ما جاءت به الرُّسُل الكرام عليهم صلوات الله وسلامه.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «الوجه الرابع والعشرون: أنَّه عن هذا الأصل الخبيث الباطل حَكَموا حُكمًا فظيعًا باطلًا وهو: أنَّ الرجوع إلى الماضي رجعيةٌ فاسدة، وأنَّه يجب إهدار كل قديم.

وهجَّنوا بعبارتهم المتنوِّعة كل قديم؛ ليتَّصلوا بذلك للقَدْح فيما جاءت به الرُّسُل، ونَزَلَتْ به الكُتُب».

الشرح:

يعني: أصبحوا لأجل ذلك عندما يريدون صَرْف الناس عن ما جاءت به الرُّسُل -عليهم صلوات الله وسلامه- لا يقولون هكذا صراحةً «اتركوا دِين الرُّسُل، اتركوا ما جاءت به الرُّسُل» لا يقولون مثل هذا صراحة خطابًا للمسلم؛ وإنَّما يأتون بعباراتٍ تؤدِّي إلى المعنى نفسه، فيقولون مثل ما أشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولون: «هذه رجعية، ويجب إهدار كل قديم، وهذا تخلُّف»؛ أشياء من هذا القبِيل يأتون بها حتى يصرفوا الناس عن الحق الذي جاءت به الرُّسُل الكرام عليهم صلوات الله وسلامه.

(**وهجَّنوا بعبارتهم المتنوِّعة كل قديم**)؛ بما في ذلك ما هو وحيٌ من رب العالمين، مُنزَّلٌ على صفوة عباده وخيارهم رُسُله الكرام عليهم صلوات الله وسلامه.

المتن:

«وقالوا: إنَّ البشر لم يبلغوا سن الرُّشْد إلَّا في هذا الوقت».

الشرح:

(**قالوا: إنَّ البشر لم يبلغوا سن الرُّشْد إلَّا في هذا الوقت**)؛ يعني: الانبهار بالحضارة الموجودة، الصناعات، ونحو ذلك؛ فقالوا بَلَغوا سن الرُّشْد؛ أمَّا قبل ذلك كل ذلك لم يصلوا هذا ال....

وهذا كلَّه مثل ما ذَكَرَ الله ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [سورة غافر، من الآية:٨٣]؛ فأصبحوا ينتقصون كل ما جاءت به الرُّسُل صلوات الله وسلامه عليهم.

المتن:

«وقالوا: إنَّ البشر لم يبلغوا سن الرُّشْد إلَّا في هذا الوقت الذي طَغَتْ فيه علوم المادة، وانحَّلت الأخلاق، وشاعت الإباحية والفوضوية الضارة المُهلكة، حتى تفاقَمَ الشر، وعمَّ الطُّغيان، واضمحلَّ الخير؛ وهذا من أعجب العجائب!

كيف يكون الرُّسُل -صلوات الله وسلامه عليهم- خصوصًا سيِّدهم وإمامهم محمدٌ -صلَّى الله عليه وسلَّم وعليهم أجمعين- ومَن اهتدى بهُداهم من أئمة الهُدى ومصابيح الدُّجى، وخواص الخَلْق لم يبلغوا سن الرُّشد».

الشرح:

يعني: عبارتهم الآن: «أنَّ الآن البشر بَلَغوا سن الرُّشد»، يدخل تحت هذه العبارة أنَّ الرُّسُل -عليهم صلوات الله وسلامه- خصوصًا إمامهم، ثم أتباعه بإحسان الصحابة ومَن اتَّبعهم بإحسان، كل هؤلاء عند هؤلاء لم يبلغوا سن الرُّشد.

وهذا فيه من الانتقاص والاستهانة بمقام الرُّسُل وأتباعهم بإحسان ما لا يَخفَى.

المتن:

«وهم الذين كانوا على الهُدَى المُطلَق، وبهم هَدَى الله البشر وأرشدهم إلى كل علمٍ نافعٍ صحيحٍ، وعملٍ صالح وخيرٍ ورُشدٍ وصلاح.

كيف يكونون هم وأتباعهم ومَن سَلَكَ طريقهم من الهدِين المهديين المهتدِين لم يبلغوا سن الرُّشد، وهؤلاء الزنادقة الملاحدة هم الذين بَلَغوا سن الرُّشد؟! سبحانك هذا بهتانٌ عظيم.

ويكفِي تصوُّر هذا القول وتصوُّر أحكامه ولوازمه معرفةً ببطلانه؛ فإنَّ أكبر الدلائل على رُشد الرشيد وسفه السفيه تصرُّفاته، ونتائج أعماله وثمراتها».

الشرح:

تصوُّر الكلام يكشف؛ لأنَّ مَن أَخَذَ الكلام هكذا دون أن يتصوَّر ما يؤول إليه وما يترتَّب عليه، والأحكام التي تنبني عليه؛ لا يتَّضح له خطورة مثل ذلك.

فمثل هذه الكلمة (أنَّ البشرية بَلَغَت سن الرُّشد) في هذا الوقت؛ هذا ينطوي على إهدار لكل ما هو في السابق، وبخاصة ما جاء به الرسول الكريم -صلوات الله وسلامه عليه-، وإبطالٌ له.

والحق أنَّ المرء لن يبلُغ الرُّشد ولن يكون من أهل الرشاد إلَّا بالاهتداء بهَدْي الرُّسُل -عليهم صلوات الله وسلامه-، فمَن فارَقَ هَدْيَهم فارَقَ الرشاد، فقد قال الله سبحانه عن نبيَّه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [سورة النجم، الآية:٢]؛ ونَفْي الغَيْ هو كمال الرُّشد.

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: **عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي».**

فالرشاد وتحصيل الرُّشد إنَّما يكون باتِّباع النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، واتِّباع الصحابة الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

المتن:

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «انظُر إلى أحوال الرُّسُل وأتباعهم كيف هدَوْا إلى كل عقيدةٍ صالحةٍ نافعة، وإلى كل خُلُقٍ جميلٍ وعملٍ صالح، وكيف نَهَوْا وحذَّروا عمَّا يُضاد ذلك ويُناقضه، وكيف نشروا الصلاح والرحمة والحكمة على البلاد والعباد، وكيف تمَّ بإرشادهم الصلاح الذي ليس بعده صلاح، والسعادة العاجلة والآجلة والفلاح؛ فهل تَجِدُ علمًا نافعًا أو خُلُقًا فاضلًا أو خيرًا ناميًا أو شرًّا مدفوعًا أو ضررًا مرفوعًا إلَّا بسبب الرُّسُل وإرشادهم وهدايتهم وسعيهم؟

أمَّا هؤلاء المُلحدون الماديُّون فعلى العكس من ذلك؛ فإنَّ آثار علومهم وأعمالهم هَبَطَتْ بالبشر والإنسانية إلى أسفل سافلين، وشَقُوا في دنياهم كما شَقُوا في دِينهم وعقولهم.

وهذه المخترعات التي تكبَّروا بها وطَغوا وبَغوا هل توسَّلوا بها إلى الخير والحياة الطيِّبة والرحمة، أم صارت أكبر نكبةٍ على البشر وأعظم مصيبةٍ عليهم وعلى غيرهم؟

فأين الرُّشد وأين العقول، وأين الأحلام الصحيحة من قومٍ هذا وَصْفهم ووَصْف أعمالهم المُطابق لأحوالهم الذي لا يمكن أحدًا إنكاره؟

ولكن الكِبر والأشر والنظر القاصر والبهرجة روَّجَتْ باطلهم؛ فجَرَفَتْ جمهور البشر الذين لا بصيرة لهم ولا عقول صحيحة؛ وإنَّما معهم التقليد الأعمى والزهُوِّ والغرور.

فيا مَن عافاه الله من هذه البلِيَّة ومنَّ عليه بهداية الرُّسُل، احمد الله حمدًا كثيرًا، واشكره شكرًا متتابعًا؛ فإنَّ الله أنعَمَ عليمك بنِعَم لا يُقادَرُ قَدْرها ولا يُبلَغ كُنْهُها، وسَلْ ربَّك الثبات على الإيمان الصحيح المؤيَّد بالعقل الصريح والفطرة السليمة والطرائق المستقيمة».

الشرح:

يعني: كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى كلُّه مُنصبٌّ على مَن طَغَى بسبب هذه العلوم وتكبَّر وتجبَّر واستهان بالرُّسُل وبدعوة الرُّسُل، وعظَّمَ هذه العلوم تعظيمًا أهدَرَ به ما جاءت الرُّسُل -صلوات الله وسلامه عليهم-؛ فكلامه كلُّه في هذا.

وإلَّا ما كان من الصناعات النافعة والحضارات النافعة الشيخ ليس بصدد نقده أو القَدْح في ذلك أو نحو ذلك؛ بل له رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى كتابات جيِّدة ونافعة في هذا الباب.

لكن مَن كانت هذه العلوم سببًا لطُغيانه وتكبُّره وإعراضه عن الرُّسُل وتكذِيب ما جاءت به الرُّسُل وإلحاده، وغير ذلك فكلامه في هذا رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

المتن:

«الوجه الخامس والعشرون: أنَّ لا عاصمَ من الفوضوية وانطلاق النفوس في أغراضها وشهواتها السَّبُعيَّة البهيمية إلَّا الاعتصام بالحق الذي جاءت به الرُّسُل ونَزَلتْ به الكُتُب، من توحيد الله وعبادته، والحثِّ على الأخلاق الجميلة والتحذير من ضدها».

الشرح:

يعني: لا يمكن أن يَسلَم للناس أمْرَهم وأمْنهم إلَّا بالإيمان، وهذا أمْرٌ بيَّنه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القرآن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٨٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن

﴿ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [سورة النحل، من الآية:٩٧]؛ فالحياة الطيِّبة والأمن وسلامة الناس من الفوضى، وغير ذلك إنَّما هو بالدِّين الذي رَضِيَهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده ولا يَرضَى لهم دِينًا سواه.

فلا سلامة من الفوضوية وانطلاق النفوس في نزواتها وأغراضها إلَّا أن تُهذَّب بهذا الدِّين القويم الذي جاءت به الرُّسُل ونَزَلَت به كُتُب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المتن:

«وهؤلاء المُلحدون لمَّا أعرضوا وعارضوا الحقَّ الذي جاءت به الرُّسُل، وقاوموه أشد المقاومة بخَيْلهم ورَجِلهم وشياطينهم، وفَتَحوا باب الاستغناء بما تقذِف به القلوب من الأفكار التابعة للشهوات النفسية، اندفَعَت أفكارهم وإراداتهم وشهواتهم إلى شهوات الغَيْ، وإعطاء النفوس مُناها.

ولم تقف عند حدٍّ؛ فاستباحَت كل قولٍ وفِعلٍ مُحرَّم، ووقعوا في الإباحية المَحْضة، وصارت الحيوانات على نقصِها أحسن حالًا منهم.

ثم مع هذا الشر العريض والفساد الكثير زيَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون؛ فجَعلوا يدعون إلى هذه الأخلاق السافلة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [سورة يونس، الآيتان:٩٦-٩٧].

انظروا إلى أعمالهم إن كنتم مرتابِين، وتأمَّلوا آثارهم إن كنتم تعقلون، كم هَدَموا من محاسن وفضائلّ! وكم أقاموا من شرورٍ ورذائل!

ولا يغُرَّنَّك تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد، ولا تغترَّ بما أُعطيَهُ هؤلاء المُلحدون من إدراكاتٍ، وقوة ذكاءٍ، وفِطنةٍ وأعمال؛ فإنَّ الذكاء وتوابعه إذا لم يُصرَف فيما خُلِقَ له العبد، وإذا أنكَرَ صاحبه أوضَحَ الأشياء وأحقَّها؛ كان ضررًا كبيرًا على صاحبه مآله الهلاك».

الشرح:

أُوتُوا ذكاءً ولم يُؤتوا زكاءً، وأُوتوا علومًا ولم يُؤتوا فهومًا.

المتن:

«كما قال تعالى عن أمثال هؤلاء: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [سورة الأحقاف، من الآية:٢٦]؛ فذَكَرَ أنَّ جحودهم بآياته أوجَبَ لهم ألَّا ينتفعوا بما أُوتوا من هذه الإدراكات، وصارت النِّعَم جالبةً للنِّقَم.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [سورة غافر، الآية:٨٣]؛ فهُم عظَّموا علومهم التي تبجَّحوا بها وتكبَّروا، وقاوموا الرُّسُل وسخروا بما جاءتهم به الرُّسُل؛ فانحَرَفتْ علومهم إلى الباطل، ونَزَلَ بهم ما كانوا به يستهزءون».

الشرح:

يعني: انظر هذا يوضِّح ما سَبَق: أنَّ لمَّا بَلَغَ الأمر بهم أن أُعجِبُوا بعلومهم وعظَّموا علومهم وكبَّروا من شأنها حتى آلَ بهم الأمْر إلى أن (**وسخروا بما جاءتهم به الرُّسُل؛ فانحَرَفتْ علومهم إلى الباطل، ونَزَلَ بهم ما كانوا به يستهزءون**)؛ فالغرور والعُجْب بما عندهم من علوم حتَّى أَخَذوا يسخرون بما جاءت به الرُّسُل، ويُكذِّبون بالوحي (وحي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ)، وَقَعوا في الإلحاد الصريح؛ فصار هذا الانحراف بسبب ذلك، بسبب ذلك انحرَفَتْ علومهم إلى الباطل.

أمَّا العلوم من حيث هي ما دامت نافعة فهي ممَّا هيَّأه الله وسخَّره لعباده في هذه الحياة الدنيا لينتفِعوا به في مصالحهم المتنوِّعة؛ فكلُّ ذلك لا شيء فيه ما لم يكُن مناقضًا أو مخالفًا لشَرْع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ووَحْيه وتنزيله.

المتن:

«الوجه السادس والعشرون: قال الشيخ: ما أخبَرَتْ به الرُّسُل من الغيب هي أمورٌ موجودةٌ ثابتة أكمل وأعظم ممَّا نُشاهده نحن في هذه الدار، وتلك أمورٌ محسوسة تُشاهَدُ وتُحسُّ؛ ولكن بعد الموت وفي الدار الآخرة، ويمكن أن يشهَدَها في هذه الدار مَن يختصُّهُ الله بذلك؛ ليست عقلية قائمةً بالعقل كما تقوله الفلاسفة».

الشرح:

يعني: لمَّا حَصَرُوا العلوم بالمحسوسات، وأنكروا الجنة والنار، وغير ذلك من المغيَّبات؛ لأنَّه لا يُحَسُّ، فهذا وجه من الوجوه التي يُرَدُّ بها على هؤلاء: أنَّ هذه الأشياء التي أخبَرَتْ بها الرُّسُل هي (**هي أمورٌ موجودةٌ ثابتة**)؛ في نفس الأمر.

وهي أيضًا مُشاهَدة وتُحَسُّ لكن بعد الموت، بعد الموت سيرى الناس هذه الأشياء وتُصبح محسوسة، وهذا الذي ميَّزَ المؤمن إيمان بالغيب، أي: بكل ما أخبرت به الرُّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم.

فهذه أمور مُغيَّبة بالنسبة لنا؛ لأنَّا لا نراها؛ لكن من حيث هي موجودة وسيراها الناس يوم القيامة.

ويقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ويمكن أن يشهَدَها في هذه الدار مَن يختصُّهُ الله بذلك**)؛ مثلًا: النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في صلاة الكسوف رأى الجنة بعينه، ورأى النار بعينه، ورأى بعض المُعذَّبِين في النار، والصحابة من ورائه ما رأوا شيئًا؛ فهي أشياء موجودة، الجنة موجودة والنار موجودة وغير ذلك من الملائكة موجودون، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى جبريل قد شدَّ الأُفُق، رآه على صورته وقد شدَّ الأُفُق.

فهذه المغيَّبات قد يمكن أن يُشاهدها في هذه الدار مَن يختصُّه الله بذلك، مثل ما اختصَّ الله نبيَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأن رأى جبريل على صورته وله ستمائة جناح وقد سدَّ الأُفُق، رأى الجنة ورأى النار.

هذه كلُّها -يعني- ذَكَرَها نقلًا عن شيخ الإسلام وجهًا في إبطال قولهم: أنَّ لا نؤمن إلَّا بالمحسوسات»؛ هذه المُغيَّبات التي يُكذِّبون بها هي من وجه محسوسة؛ لأنَّها ستُرى يوم القيامة، ومن الناس مَن اختصَّهم الله في هذه الدنيا بأن رأوا هذه المغيَّبات أو بعضها.

المتن:

قال: «ويمكن أن يشهَدَها في هذه الدار مَن يختصُّهُ الله بذلك؛ ليست عقليةً قائمةً بالعقل كما تقوله الفلاسفة؛ ولهذا كان الفَرْق بينها وبين الحِسِّيَّات التي نشهدها أنَّ تلك غَيبٌ وهذه شهادة.

وكون الشيء غائبًا أو شاهدًا أَمْرٌ إضافيٌّ بالنسبة إلينا، فإذا غاب عنَّا كان غيبًا، وإذا شهدناه كان شهادة، وليس هو فَرْقًا يعود إلى أنَّ ذاته تُعقَل ولا تُشاهَد ولا تُحَسُّ؛ بل كلُّ ما يُعقَل ولا يمكن أن يُحسُّ بحالٍ فإنَّما يكون في الذهن.

والملائكة يمكن أن يُشهدوا ويُرَوْا، والرب تعالى يمكن رؤيته بالأبصار، والمؤمنون يرَوْنه في القيامة وفي الجنة كما تواتَرت بذلك النصوص. انتهى.

وهذا يُبطِل أصل الملاحدة الذين يحصرون المعلومات بمدركاتهم الخاصة القاصرة؛ فإنَّه ثَبَتَ بالبراهين القوية صِدْقُ الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وقد تواترت عنهم هذه الأمور وحَصَلَ اليقين التام لجميع مَن صدَّقهم، فإنكار الملحدين لذلك إبطالٌ لأعظم المعلومات بأقوى البراهين وأصحِّها وأوضحها، وذلك مكابرةٌ منهم ومباهتة.

وقال الشيخ: واستدلال الملاحدة على إلحادهم بقوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾ [سورة فاطر، من الآية:٤٣]؛ على أنَّ العالَم لا يتغيَّر؛ بل لا تزال الشمس تطلُع وتغرب لأنَّها عادة الله».

الشرح:

شيخ الإسلام في **[النَّقْض]** نَقَلَ عن أحد هؤلاء استدلالهم بهذه الآية، وأجاب عنه بالجواب الآتي.

المتن:

«فيُقال لهم: انخراق العادات أَمْرٌ معلوم بالحِسِّ والمشاهدة بالجملة، وقد أخبر في غير موضعٍ أنَّ سبحانه لم يخلق العالَم عَبَثًا وباطلًا؛ بل لأجل الجزاء، فكان هذا من سُنَّته الجميلة، وهو جزاؤه الناس بأعمالهم في الدار الآخرة كما أخبر به مِن نَصْر أوليائه وعقوبة أعدائه، فبَعْثُ الناس للجزاء هو من هذه السُّنَّة، وهو لم يُخبِر بأنَّ كلَّ عادةٍ لا تنتقض؛ بل أخبَرَ عن السُّنَّة التي هي عواقب أفعال العباد بإثابة أوليائه ونَصْرهم على الأعداء، فهذه هي التي أخبَرَ أنَّه لا يوجَد لها تبديلٌ ولا تحويل، كما قال: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾ [سورة فاطر، من الآية:٤٣].

وذلك لأنَّ العادة تتبَع إرادة الفاعل، وإرادة الفاعل الحكيم هي إرادةٌ حكيمة فتُسوِّي بين المتماثلات».

الشرح:

ينصر أولياءه ويخذل أعداءه، وهذه سُنَّة الله ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾ [سورة فاطر، من الآية:٤٣]؛ هذا هو المعنى وهذا هو المراد.

المتن:

«ولن يُوجَد لهذه السُّنَّة تبديلٌ ولا تحويل، وهو إكرام أهل ولايته وطاعته، ونَصْر رُسُله والذين آمنوا على المكذِّبين.

فهذه السُّنَّة تقتضِيها حكمته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ فلا انتقاض لها، بخلاف ما اقتَضَتْ حِكمته تغييره فذاك تغييره من الحكمة أيضًا، ومن سُننه التي لا يوجد لها تبديلٌ ولا تحويل؛ لكن في هذه الآيات ردٌّ على مَن يجعله يفعل بمجرد إرادةٍ تُرجِّحُ أحد المتماثلَيْن بلا مُرجِّح، فإنَّ هؤلاء ليس عندهم له سُنَّةٌ لا تتبدَّل ولا حِكمةٌ تُقصَد، وهذا خلاف النصوص والعقول؛ فإنَّ السُّنَّة تقتضِي تماثُل الآحاد، وأنَّ حُكم الشيء حُكم نظيره، فيقتضِي التسوية بين المتماثلات وهذا خلاف قولهم. انتهى».

الشرح:

سُنَّة الله مثل ما وضَّح رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى قبل قليل: أنَّه يُكرِم أهل ولايته وطاعته، وينصُر رُسُله والذين آمنوا على المكذِّبين، ويخذُل أعداءهم ويُحِلُّ بهم العقوبات.

هذه السُّنَّة لله لن تَجِدَ لها تبديلًا ولن تَجِدَ لها تحويلًا.

المتن:

«الوجه السابع والعشرون: قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما جاءت به الرُّسُل -صلوات الله عليهم- لا يعرفه هؤلاء الفلاسفة وليسوا قريبين منه، بل كُفَّار اليهود والنصارى أعلم منهم بالأمور الإلهية، لا فَرْق بين العلوم النَّقْلية ولا العقلية الصحيحة التي جاءت بها الرُّسُل؛ فهذه العقليات الدِّينية الشَّرْعية الإلهية هي التي لم يشمُّوا رائحتها، ولا في علومهم ما يدلُّ عليها.

وأمَّا ما اختصَّت الرُّسُل بمعرفته وأخبرت به من الغيب فذاك أمرٌ أعظم من أن يُذكَر ترجِيحه على الفلسفة، فإذا كان أشرف العلوم لا سبيل للفلاسفة إلى معرفتها بطريقهم كما قرَّر وتقرَّر واعترفوا به، لَزِمَ أمران:

أحدهما: أنَّه لا حُجة لهم على ما يُكذِّبون به مما ليس في قياسهم دليلٌ عليه.

الثاني: أنَّ ما علِموه خسيسٌ بالنسبة إلى ما جهِلُوه؛ فكيف إذا عُلِمَ أنَّ لا يُفِيد النجاة ولا السعادة؟

والرسول أخبر عن أمورٍ مُعيَّنة، مثل نوحٍ وخطابه لقومه وأحواله المعيَّنة، ومثل إبراهيم وأحواله المُعيَّنة، ومثل موسى وعيسى وأحوالهما المعيَّنة.

وليس شيءٌ من ذلك يمكن معرفته بقياسهم، لا البرهاني ولا غيره؛ فإنَّ أقيِستهم لا تُفِيد إلَّا أمورًا كليَّة، وهذه أمورٌ خاصة.

وكذلك أخبر عمَّا كان وسيكون بعده من الحوادث المعيَّنة حتى أخبر عن التَّتَر بما ثَبَتَ في الصحيحَيْن عنه من غير وجهٍ أنَّ قال: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا التُّرْكَ؛ صِغَارُ الْأَعْيُنِ ذِلْفُ الْأُنُوفِ، حُمْرُ الْخُدُودِ يَنْتَعِلُونَ الشَّعْرَ كَأَنَّ وُجُوهَهُم الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ**»؛ فهل يُتصوَّر قياسهم وبرهانهم يدلُّ على آدميٍّ معيَّن أو أُمَّةٍ معيَّنةٍ، فضلًا عن أن يوصَف بهذه الصفات قبل ظهورهم بنحو سبعمائة سنة؟».

الشرح:

يعني: هذا مما يُبطَل به بناؤهم على أقياسهم الفاسد في جَحْد ما جاءت به الرُّسُل -عليهم الصلاة والسلام-، النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أخبر بأمور قبله لم يُدركها ولم يُعاينها ولم يُشاهدها أخبر عن قصة نوح، أخبر عن قصة

موسى، وأخبر عن تفاصيل دقيقة جدًّا في قصص الأنبياء، وأيضًا أخبر عن أمورٍ ستَقَعُ وشاهدها الناس صِدْقًا لِمَا أخبر به -صلوات الله وسلامه عليه-، أشراط الساعة وعلاماتها الصغرى والكبرى ما وَقَعَ منها وما لم يَقَعُ هذا كلُّه من علامات نبوَّته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ولهذا في أحاديث كثيرة منها هذا الحديث الذي أشار إليه، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: **«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَقَعَ كذا»**؛ بعضها وَقَعَت مثل هذا الذي ذُكِرَ في الحديث؛ ولهذا قال العلماء في شَرْحه: «فيه علامة لنبوَّة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأنَّه سيبلُغ مُلْك أُمَّته غاية المشرق التي فيها هؤلاء الذين هذه صفتهم؛ فهذا علامة من علامات نبوَّة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَعَ بعد مئات السنين مطابقا لِمَا كان أخبر به صلوات الله وسلامه عليه.

هذا الذي يَذْكُر شيخ الإسلام وله نظائر كثيرة جدًّا ما علاقة أقيستهم به، وماذا تصنع أقيستهم بمثل هذه الأمور ومثل هذه الحقائق؟ فهذا ممَّا يُبيِّن -يعني- فساد هذه الأقيسة أو الموازين التي جعلوها ليردُّوا بها ما جاءت به الرُّسُل عليهم صلوات الله وسلامه.

المتن:

قال: «وكذلك إخباره بخروج النار التي خَرَجَتْ سنة ٦٥٥ للهجرة، وسائر ما أخبر به من الأمور الماضية والمستقبلية والأمور الحاضرة مما يعلمون أنَّه يمتنِعُ أن يُعرَف ذلك بالقياس البُرهاني وغيره؛ فإنَّ ذاك إنَّما يدُلُّ على أَمْرٍ مُطلَق لا على شيءٍ معيَّن.

وليس مع الفلاسفة ما ينفِي وجود ما يمكن أن يختصَّ به بعض الناس بالباطن كالملائكة والجن، ولا معهم ما ينفِي تمثُّل الأرواح أجسامًا حتى تُرَى بالحسِّ الظاهر وما أشبه ذلك».

الشرح:

مثل مجيء جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على صورة رجل ومخاطبته للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

المتن:

«فليس معهم في نَفْي هذه الأمور الثابتة بإخبار الأنبياء وببراهِين أُخَر إلَّا الجهل المَحْض؛ فقد كذَّبوا بما لم يُحيطوا بعلمه ولمَّا يأتهم تأويله، مع أنَّ عامة أساطين الفلاسفة يُقِرُّون ذلك، وكذلك أئمة الأطباء.

وطريق هؤلاء الملاحدة لا يُفرِّقُ بين الحق والباطل بخلاف طريق الأنبياء. انتهى.

وقال في سبب إلحاد بعض المُلحدِين قال....».

الشرح:

هذا الكلام سيأتِي منقول عن شيخ الإسلام ابن تيمية حقيقة كلام عظيم جدًّا، وأُوصِي بأن يُتأمَّل وأيضًا أن يُنشَر حتى يُستفاد منه الفائدة المرجوَّة بإذن الله، ماذا يقول؟

المتن:

«وقال في سبب إلحاد بعض المُلحدين».

الشرح:

(قال في سبب إلحاد بعض المُلحدين)؛ أيوة!

المتن:

«من أَضرِّ الأمور على العبد أن يكون متميِّزًا عن العامة ببعض العلوم الطبيعية أو غيرها، فإذا جاءته العلوم الدينية النافعة التي لم تدخُل في علمه نفاها فخَسِرَ دِينه وصار علمه الجزئي لبعض المعلومات وبالًا عليه».

الشرح:

ولهذا في لقائنا الأول كنت أَوصيْتُ بوصية: أنَّ مَن شَرَعَ في تعلُّم شيء من العلوم الدنيوية ليتخصَّص فيه لا ينبغِي عليه أن يكون عنده حظ من العلم الشرعي يصون به نفسه عن الشُّبُهات، وأن يكون عنده حظٌّ من التديُّن والتقرُّب إلى الله يصون به نفسه عن الشهوات؛ أمَّا إذا دَخَلَ في العلم الدنيوي وانخرَطَ فيه فربما يُوصله إلى مثل هذا: أن يتكبَّر على الحق.

ولهذا ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكُر من أسباب الإلحاد: **(من أَضرِّ الأمور على العبد أن يكون متميِّزًا عن العامة ببعض العلوم الطبيعية أو غيرها، فإذا جاءته العلوم الدينية النافعة التي لم تدخُل في علمه نفاها)**؛ ينفِيها يعني: ينفِي -مثلًا- ما جاءت به الرُّسُل بالدراسة التي دَرَسَها في الطب -مثلًا-، أو الدراسة التي دَرَسَها في الهندسة، أو الدراسة لتي دَرَسَها في كذا؛ يُكذِّب ما جاءت به الرُّسُل لأنَّها في زعمه تُنافِي هذا العلم الذي حصَّله؛ فيجنِي عليه علمه من هذه الجهة.

لكن مَن دَرَسَ هذه العلوم وأَخَذَ من النافع فيها والمفيد، مع وجود علم شرعِي عنده وتديُّن بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تتحقَّق له السلامة.

المتن:

قال: «وهكذا تجِدُ مَن عَرَفَ نوعًا من العلم وامتاز به على العامة الذين لا يعرفونه يبقَى بجهله نافيًا لِمَا لا يعلمه، وبنو آدم ضلالهم فيما جَحَدوه ونَفَوْه بغير علمٍ أكثر من ضلالهم فيما صدَّقوا به وأثبتوه، قال تعالى..».

الشرح:

هذه قاعدة يقول: (**بنو آدم ضلالهم فيما جَحَدوه ونَفَوْه بغير علمٍ أكثر من ضلالهم فيما صدَّقوا به وأثبتوه**)؛ يعني: أكثر ما يكون الضلال في النَّفْي والتكذيب؛ فضلالهم فيما نفوه أكثر مما ضلالهم فيما صدَّقوه.

المتن

قال: «وهذا لأنَّ الغالب على الآدميين صحة الحِسِّ والعقل، فإذا أثبتوا شيئًا وصدَّقوا به كان حقًّا بخلاف ما نفَوْه؛ فإنَّ غالبهم أو كثيرًا منهم ينفون ما لا يعلمون، ويُكذِّبون بما لم يُحِيطوا به علمًا».

الشرح:

مثل ما تقدَّم في الآية ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ [سورة يونس، من الآية:٣٩].

المتن:

«ويتفرَّع على هذا الأصل الباطل: الجهل بالإلهيات وبما جاء به الرُّسُل، والجهل بالأمور الكليَّة المحيطة بالموجودات، وبهذا ضل زنادقة الفلاسفة وغيرهم كما أنكروا الجن والملائكة وأمور الغيب؛ إذ لم تدخل تحت علومهم القاصرة فجَحَدوها وكذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه وجاءتهم الرُّسُل بالبيِّنات والبراهين ففرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون».

الشرح:

انتهى. نكتفِي بهذا.

سبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلَّا أنت نستغفرك ونتوب إليك.

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

طالب: جزاكم الله خيرًا..

(المجلس الخامس)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد..

فيقول العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتابه: **[الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين]**:

الوجه الثامن والعشرون: أن يُقال لهؤلاء الملحدين المنكرين لأمور الغيب التي أخبر الله بها ورسوله: لم أنكرتموها؟ فيجيبون بأنها لم تدخل تحت علومنا التي بنيناها على إدراكات الحواس والتجارب، فيُقال لهم قدِّروا أنها لم تدخل في ذلك، فإن طرق العلوم اليقينية كثيرة وأكثرها لا تدخل تحت إدراكاتكم، فإن إدراكاتكم قاصرة حتى باعترافكم، فإنكم تعترفون أن مدركاتكم خاصةٌ ببعض المواد الأرضية وأسبابها وعللها، ومع ذلك لم تدركوها كلها باعترافكم وأعمالكم، فإنكم لا تزالون تبحثون وتعملون التجارب التي تنجح مرة وتخفق مرات، فإذا كانت هذه حالكم في الأسباب والمواد الأرضية التي يشترك بنو آدم في إدراكها ويفترقون في مقدار الادراك فكيف تنفون بقية العوالم؟ عوالم السماوات وعوالم الغيب، وما هو أعظم من ذلك من أوصاف رب العزة وعظمته، وأنتم لم يتصل شيءٌ من علومكم بذلك، فإن هذا النفي باطلٌ بإجماع العقلاء وإنما هذا مكابرة.

الشرح:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد..

فهذا وجهٌ آخر من الوجوه التي بينها وقررها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في إبطال الإلحاد، والملحد يحصر ما يؤمن به بالمشاهد الذي يُحس ويُلمس ويُعاين وما سوى ذلك لا يؤمن به؛ لأنه بزعمه لم يقم عليه البرهان، والبرهان عنده الحس، فمن الأجوبة التي أجاب بها أهل العلم وكشفوا بها باطل هؤلاء أن العلوم التي تدخل تحت الوصف الذي يبنون عليه العلم وهو الحس هم أنفسهم فيه ليسوا على نسقٍ واحد، فإذا قالوا: نحن لا نؤمن إلا بما دل عليه الحس، إن نظر الناظر في هذه الدلالة التي هم عليها في إيمانهم فقط بما دل عليه الحس يجد أنهم في اضطرابٍ فيه، فكيف يُبنى على أمرٍ هم في اضطرابٍ فيه، كيف يُبنى عليه نفي علوم هي مغيبة أصلًا ولا تدركها الحواس؟ أو لا تصل إلى علمها الحواس بالحس المجرد، بل تتوقف على بابٍ آخر في العلم لتصل إلى ذلك.

ولهذا ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أن إدراكات هؤلاء قاصرة حتى باعترافهم على أنفسهم بذلك.

قال: (**فإنكم تعترفون أن مدركاتكم خاصة ببعض المواد الأرضية وأسبابها**)؛ ثم هذا الإدراك الذي عندهم هم في اضطرابٍ فيه فيما يتعلق بهذه العلوم الأرضية، فكيف يجعلون هذا العلم حاكمًا على الأمور المغيبة فينفون به صحة أمورٍ لم يروها بالحس بزعمهم؛ فيبنون على الحس نفي تلك الأمور مع أنه في الأمور الأرضية ثمة أمورٌ يضطرب حسهم في إدراكها، يدركها بعضهم ولا يدركها البعض ويتناقضون فيها، فكيف يجعلون هذا الحس حكمًا على الأمور المغيبة ينفونه بها، وحقيقة الأمر كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾[سورة يونس، من الآية:٣٩]؛ وكثير ما يكون الخطأ هذا سبق وأن أشار إليه السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقلًا عن شيخ الإسلام كثيرًا ما يكون الخطأ عند الخلق من جهة النفي.

المتن:

قال: وإذا قلتم وأنتم تقولون بلسان المقال ولسان الحال إن أئمتكم ورؤساءكم قالوا ذلك وأنكروه، فيقال:

أولًا: رؤساؤكم قد تضاربت أقوالهم، وتناقضت مقالاتهم ولم يثبتوا على مقالةٍ واحدة، ولم يزالوا في خبطٍ واختلاطٍ، وإحداث نظرياتٍ ونقضها، واتفاقٍ وافتراق، ولو قُدر على وجه الفرض اتفاقهم على الانكار فكيف يؤخذ بأقوال من لم يُعرف صدقهم، بل عرف كذبهم وخطؤهم في ذلك، ولا يؤخذ بأقوال الرسل من أولهم إلى آخرهم الذين ثبت صدقهم بالبراهين اليقينية، والآيات القواطع، وثبت علمهم الذي تتضاءل معه علوم جميع البشر، ولم يصل أحدٌ إلى العلم الصحيح والهداية إلا من جهتهم، وهم متفقون على ذلك، والكتب السماوية المنزلة عليهم وأتباعهم الذين عُرفت هدايتهم ودرايتهم، وعُرف أن الواحد من أئمة هؤلاء الهداة يقاوم الفلاسفة من أولهم إلى آخرهم.

فقد اتفقت الرسل والأنبياء وأتباعهم وأدلة العقول الصحيحة والفطر السليمة التي لم تغيرها العقائد الفاسدة على الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وجميع ما يجب الإيمان به من الغيوب، وهؤلاء الملحدون ليس معهم نقلٌ ولا عقلٌ صحيح، إنما معهم ظنونٌ كاذبة، وآراءٌ خاطئة، ونظرياتٌ مضطربة، وتقليدٌ أعمى للضالين الحائرين، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[سورة الجاثية، من الآية:٦-٨]؛ وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا

كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[سورة لقمان، من الآية:٧]؛ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾[سورة يونس، من الآية:٩٦-٩٧].

الشرح:

إذا أورد عليهم الإرادة المتقدم الذي ذكره المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو قوي جدًا قد يُحيل بعض هؤلاء إلى أقوال أئمتهم وكبرائهم الذين عنهم يأخذون، ومنهم يُتلقون، فقد يعول بعض هؤلاء على أقوال الأئمة، أئمة هؤلاء في هذه الضلالة.

فيقول الشيخ: (**وإذا قلتم وأنتم تقولون بلسان المقال ولسان الحال إن أئمتكم ورؤساءكم قالوا ذلك وأنكروه، فيُقال: أولًا: رؤساؤكم قد تضاربت أقوالهم**)؛ فهم في أقوال مضطربة، وقولٍ مختلف ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ٩ قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾[سورة الذاريات، من الآية:٩-١٠]؛ هؤلاء خرَّاصون أقوالهم متضاربة ليسوا على جادة واحدة، بل الواحد من هؤلاء له أقوال كثيرة تدل على اضطرابه وتناقضه، فإذا كنتم تعولون على هؤلاء الرؤساء وتحتكمون إليهم فهؤلاء مضطربون ليسوا على مسلكٍ واحد، وليسوا على طريقةٍ واحدة، بل لا يزالون على خبطٍ واختلاطٍ وإحداث نظريات ونقدها، واتفاقٍ وافتراق هذه حالهم.

ومع ذلك يقول الشيخ: لو قُدر أنهم متفقون، وأنهم على كلمة واحدة، أيهما أولى بالإئتمام؟ أن يؤتم بهؤلاء، أو يؤتم بصفوة الخلق رسل الله؛ الذين اصطفاهم الله واجتباهم، وعُلم صدقهم بالبراهين البينة والدلائل الواضحة الظاهرة القاطعة، وكيف يُترك ما عند الرسل مع قيام البراهين الواضحة عليه إلى أقوال هؤلاء الذين هم في اضطرابٍ وأمرٍ مريج.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

الوجه التاسع والعشرون: أن هؤلاء الملحدين كاذبون في دعواهم إثبات كل ما دخل تحت حواسهم؛ فإنه قد تواترت آيات الرسل وشاهدها الخلق العظيم، واعترفوا وخضعوا لها، وشاهدوا ما فعله الله في الأرض من نصر الرسل وأتباعهم ونجاتهم، وإهلاك الأمم المكذبة، وهذه وقائع كثيرة لا يمكن إحصاؤها، ولم يشتهر ويتواتر شيءٌ كاشتهارها وتواترها، ولم يعترف البشر بشيءٍ من الأشياء أعظم من اعترافهم بها؛ لأنهم شاهدوها رأى العين ونقلتها الأمم قرنًا بعد قرن، وهؤلاء يكابرون ويباهتون ويجحدون ما اعترفت به الأمم على اختلاف

مللهم ونحلهم، فهم تابعون لأئمتهم الذين قال الله عنهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل، من الآية:١٤].

الشرح:

هذا أيضًا وجه آخر في إبطال ما عليه هؤلاء أن يُقال: إنهم كاذبون في دعواهم أنهم لا يؤمنون إلا بما دل عليه الحس، فهناك أمور محسوسة شاهدها الناس وهي البراهين العظيمة التي أيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها رسله -عليهم صلوات الله وسلامه-، ومن لم يشاهدها نُقلت إليه بتناقل الأمم لتلك الأخبار العظيمة التي أيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها رسله -عليهم صلوات الله وسلامه-، فإذا كان هؤلاء يقولون: لا يؤمن الواحد منهم إلا بالمحسوس، هذه أشياء محاسه ومشاهدة، وعاينها الناس وتناقلوها، وهي برهانٌ على صدق رسل الله، وأيدهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها، فهي آياتٌ معجزاتٌ ظاهراتٌ دالاتٌ على صدق الرسل، فأين دعواهم أنهم لا يؤمنون إلا بما دل عليه الحس وهم في هذا نفسه كاذبون، يعني أمورٌ شوهدت وعوينت ورآها الناس، أيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها رسله الكرام، ومع ذلك يُكذب بها هؤلاء.

المتن:

الوجه الثلاثون: أنك إذا تصورت قول هؤلاء الملحدين الماديين الذين زعموا أن الحوادث كلها من أولها إلى آخرها: حوادث الطبيعة، ومع ذلك هذه الطبيعة لا شعور لها بما يصدر منها من أفعال، وإنما هي آلةٌ محضة، ومع ذلك تصدر عنها الأفعال العظيمة التي هي في غاية الإبداع والإتقان، وفي نهاية الحكمة والرحمة، وفي غاية الارتباط الوثيق الذي استقامت به الأمور وصلحت الأحوال من دون مدبرٍ لها ولا خالقٍ ولا فاعل، فمن تصور هذا القول حق تصوره عرف أنه قولٌ يشبه أقوال المجانين الذين سُلبت عقولهم، وهذوا بما لا شعور لهم فيه، وعرف كل عاقلٍ بصير أن نفس مقالاتهم تدل أكبر دلالة على كذبهم وافترائهم؛ فضلًا عن دلالات البراهين النقلية والقواطع العقلية، وما فطر الله عليه الخلق من الاعتراف بوحدانية الله وتفرده بكل كمال، وأنه الفاعل لما يريد، وأنه مبدع السموات والأرض، ومودعٌ فيها من بدائع حكمته، وأسرار حمده، وسعة عظمته ورحمته، وعموم بره وفضله، وأنه لا يخرج موجودٌ ولا حادثٌ عن قدرته ومشيئته، وأن رسله صادقون في كل ما أخبروا به وشرعوه، والحمد لله على أكبر النعم وهو الاعتراف بالحق الذي جاءت به الرسل، والعافية من هذا البلاء الذي هو أكبر المصائب على العبد وهو اتباع كل ملحدٍ مارقٍ من العقل والدين.

الشرح:

هذا الوجه الثلاثون أن تصور مقالة هؤلاء كافٍ في معرفة بطلانها وفسادها؛ لأن هؤلاء لما جحدوا وحدانية الله ووجوده وتفرده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالخلق، قالوا إن هذه المخلوقات حوادث الطبيعة، يعني ليس لها ربٌّ مدبر ولا خالقٌ موجد، حوادث الطبيعة هذا القول مجرد تصوره كافي في فساده؛ لأن الحوادث التي يضيفونها هم إلى الطبيعة هي نفسها دليل على بطلان كلامهم وفسادهم؛ لأنه لا يمكن أن تكون هذه الحوادث التي تمضي بهذا السنن، وهذا الاتقان، وهذا الابداع، وهذا الانتظام، وهذه الدقة، وهذا الكمال، وهذه الهدايات التي جعلها خالق هذا الكون في هذه المخلوقات لا يمكن أن تكون هكذا حوادث الطبيعة، فالحوادث نفسها النظر فيها دليلٌ على كذب هؤلاء وبطلان قولهم في نسبة هذه الحوادث للطبيعة؛ لأن هذه الحوادث خُلقت بإبداع، وأوجدت بإحكام وانتظامٍ دقيق، يدل على كمال من خلقها، وعظمة من أوجدها، وأنه خلق خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بإحكامٍ واتقان، دالٌّ هذا الإحكام على كمال البارع وعظمة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإذًا من وجوه الرد الذي تقرر في هذا الموطن أن تصور هذا القول كافي في فساده وبطلانه، فمن تصور هذا القول حق تصوره عرف أنه قولٌ يُشبه أقوال المجانين، وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى؛ لأن لعله يُذكر هنا قصة تُنسب لأبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ اجتمع أو طُلب منه أن يناظر بعض الملاحدة، فكأنه تأخر قصدًا، ولما وصل إلى المكان، قال: كان بيني وبينكم نهر دجلة انتظر سفينةً، وبينما أنا واقف وإذا بالأخشاب تجتمع، وإذا بالمسامير تأتي وكل مسمار في مكانه، وإذا بسفينة تكونت أمامي هكذا، وركبت وعبرت النهر وجئتكم، قالوا: هذا العالم الذي جاء لمناظرتنا؟ قال: نعم، قال: هذا مجنون هذا كلام المجانين، فقال لهم: إذا كنتم ما قبلتم سفينة صغيرة تكونت هكذا بدون أن يكون من وراء تكوينها أحد، كيف العالم كله بهذه الدقة وبهذا الانتظام قبلت عقولكم أن يكون وجد هكذا بدون أن يكون له موجد؟!

فتصور كلام هؤلاء يدل على أن هؤلاء يتكلمون بكلامٍ يشبه كلام المجانين السفهاء الذين لا عقول لهم؛ فضلًا على أن يكونوا نظارًا أو عقلاء أو حكماء أو غير ذلك مما يُدعى.

المتن:

الوجه الحادي والثلاثون: أن يُقال لرؤساء الملحدين وأذكيائهم -فضلًا عن عوامهم ومقلديهم-: أنتم لا تزالون في علومكم التي افتخرتم بها، لا تزالون تحدثون نظريات تتفق عليها آراؤكم أو أكثرها، وتقررونها

وتعتقدونها وتجزمون بصدقها، ثم مع تكرار أفكاركم وأنظاركم عليها تشكون فيها، وربما تجزمون ببطلانها، وتُحدثون ما يضادها من النظريات التي باتفاقكم أن النظرية تقبل التحليل والشك والقدح فيها، وهي عرضةٌ للاضمحلال، وكم قد أبطلتم منها ما كنتم ترونه حقًا، وكم كذبتم ما كنتم به مصدقين، فعلومكم العالية عندكم وهذه حالها ومآلها، كيف يسوغ من له أدنى معقولٍ أن يجعلها معارضةً لما جاءت به الرسل من الحقائق الصادقة التي اتفقت عليها الرسل، ونزلت بها الكتب، وأيقن بها الأئمة الفضلاء، والهداة المهتدون؟

الشرح:

وهذا أيضًا وجه آخر في الرد على هؤلاء، أن علومهم التي جحدوا بها المغيبات، وجحدوا بها وحدانية الله، وجحدوا بها اليوم الآخر إلى غير ذلك، علومهم هذه التي هم يفتخرون بها لا يزالون تتجدد لهم في علومهم أمورٌ تكشف خطأهم في أمورٍ كانوا قد اتفقوا على صحتها، وكانوا قبل ذلك قامت البراهين عندهم على صحتها، ثم تتجدد لهم علومٌ أخرى أو نظرياتٍ أخرى تكشف لهم أن الذي كانوا يرونه صوابًا هو عين الخطأ، وهذا كثير في علوم هؤلاء، وقد يُحدث بعضهم نظريات يقول بها كثيرٌ منهم، ثم ينقضها آخرون ويُبينون كذب هذه النظريات، فإذا كانت هذه حال علومهم كيف أصبح عندهم مسوْغ وعلومهم هذه حالها أن ينكروا أعظم الحقائق وأبينها وأوضحها وأظهرها؟ في علومٍ هم فيها في اضطراب وفي تناقض، فنفس العلوم التي عند هؤلاء لم ترتقي إلى انضباط أمرهم واجتماع كلمتهم على نظرياتٍ محددةٍ معينة لا يختلفون فيها بل هم في اضطراب، فإذا كانت هذه حال علومهم، كيف سوغوا لأنفسهم بهذه العلوم القاصرة الضعيفة أن يُنكروا بها أكبر الحقائق وأوضحها وأصدقها؟ كيف جعلوها معارضة لما جاءت به الرسل من الحقائق الصادقة التي اتفقت عليها رسل الله ونزلت بها كتبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

المتن:

الوجه الثاني والثلاثون: قد تقرر عند جميع الأمم -سوى هذه الطائفة التي كابرت وباهتت- صدق الرسل بما كانوا عليه من الأخلاق العلية والأوصاف الرفيعة، وبما جاءوا به من الدين الحق الذي أصلح الله به الدين والدنيا، وهدى به العباد إلى كل خيرٍ وصلاحٍ وفلاح خاصٍ وعامٍ عاجلٍ وآجل، وأيدهم بالآيات البينات والبراهين القاطعات التي تواترت تواترًا لم يقاربه شيءٌ من المتواترات حتى تناقلتها الأمم والقرون، وصارت في مقدمة الحقائق وفي أعلى مراتب الصدق، وخصوصًا إمامهم وسيدهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن جميع

الخلق شهدوا بصدق ما جاء به، واعترفوا به وخضعوا أولياؤه وأعداؤه، ولو لم يجيء إلا بهذا القرآن الذي تحدى الله به الإنس والجن أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور، أو بسورةٍ واحدة لبلاغته العظيمة، وأسلوبه الجميل الجليل، وأحكامه التي هي أحسن الأحكام، وإخباره عن الغيوب الماضية والمستقبلة المتعلقة بالخلق.

الشرح:

(المتعلقة بالخلق والمتعلقة بالخالق)؛ المتعلقة بالخلق مثل الإيمان باليوم الآخر، هذه مخلوقات وهي مغيبة والملائكة، والمتعلقة بالخالق صفاته ونعوته.

المتن:

وإخباره عن الغيوب الماضية والمستقبلة المتعلقة بالخلق والمتعلقة بالخالق.

فمن عرف شيئًا من أحوال الرسل وصدقهم وأخبارهم وأحكامهم عرف أن من أنكر ما جاءت به الرسل قد كابروا المحسوسات، وباهتوا المعقولات، وعاندوا العلوم الصحيحة، وردوا المعارف اليقينية، وأنهم بلا شك معاندون للحق، أو مقلدون للمعاندين تقليدًا أعمى، فهم كما قال الله عن أئمتهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة النمل، من الآية:١٤]؛ فإذا لم يؤمنوا ويصدقوا بما جاءت به الرسل: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الجاثية، من الآية:٦]؛ أما أولو الألباب فقد قال الله عنهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٩٣]؛ ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٥٣].

الوجه الثالث والثلاثون: أن يُقال لهؤلاء الملاحدة: ما جاء به محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الدين والشرع وحيٌ من الله قد جاء على يد الرسولين جبريل ومحمدٍ -صلى الله عليهما وسلم-، وهو مؤيدٌ بشهادة الآيات والبراهين القاطعة، والعقول تهتدي به وتسترشد إلى جميع المطالب العالية؛ فتشهد بكمال حسنه، وتعترف بحاجتها وضرورتها العظيمة إلى إرشاده وتستنير به، وتعرف أنه لا سبيل لها إلى الوصول إلى تفاصيل ما أخبر به من الغيوب المفصلة، وأنه ليس في علومها ما يدل على ذلك، فسلَّمت لما جاء به الوحي والشرع، ولم تعبأ بعقولٍ بُنيت على الشبه والخيالات، فإنها لو جُمعت حكم جميع الأمم، ونُسبت إليها لم يكن لها إليها نسبة.

الشرح:

نعم واضح، يعني (**لو جُمعت حكم جميع الأمم، ونُسبت إليها**)؛ إلى ما جاءت بها الرسل، (**لم يكن لها إليها نسبة**)؛ في باب الحكمة والبيان والنصح.

المتن:

وهذه الشريعة متضمنةٌ لأعلى المطالب بأقرب الطرق وأتم البيان، وهي متكفلة بتعريف الخليقة ربها وفاطرها المحسن إليها بأنواع الإحسان بأسمائه وصفاته وأفعاله، وتعريف الطريق الموصل إلى رضاه، وإبطال ما يضاد ذلك وينافيه، فابتداؤها من الله، وانتهاؤها إليه، سالمةً من هذيانات الملحدين وافتراءات المفترين.

الشرح:

هذا الوجه الثالث والثلاثون: يُقال: (**ما جاء به محمدٌ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **من الدين والشرع وحيٌ من الله قد جاء على يد الرسولين: جبريل ومحمدٍ -عليهما الصلاة والسلام-**)؛ جبريل الرسول الملكي، ومحمد الرسول البشري صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج، من الآية:٧٥]؛ فهما رسولان جبريلٌ رسولٌ ملكي، ومحمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رسولٌ من البشر، فالعلم الذي جاء به محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليس كعلوم هؤلاء، أو غيرها من العلوم التي هي اختراع الناس وآراء ونظريات وغير ذلك، وإنما هي وحي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، نزل به جبريل على محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وبلغه للأمة وما على الرسول إلا البلاغ، وهذا العلم الذي جاء به الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو وحي من الله مثل ما أشار رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى يتركز في بيان ثلاثة أمور أشار إليها، وهي:

- التعريف بالرب المعبود بجلاله وكماله وعظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
- والتعريف بالطريق التي توصل إلى الله وهي العبادة التي رضيها لعباده ولا يرضى لهم سواها.
- والأمر الثالث: التعريف بما أعد لأهل هذا الطريق من الثواب، وما أعده لمن خالف هذا الطريق من العقاب.

وهذا الأمور الثلاثة عليها تدور دعوة الرسل -عليهم صلوات الله وسلامه-، فهذا الذي جاء به محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليس كالعلوم الموجودة عند الناس التي هي من اختراعهم وإجادهم، وإنما هي وحيٌ منزل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: (**فابتداؤها من الله، وانتهاؤها إليه، سالمةً من هذيانات**)؛ البشر، هذا وحي من الله ولا يُقارن، وحي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بنظريات الناس وفلسفاتهم وعقولهم؛ فضلًا على أن يُخضع الوحي إلى عقول الناس، أو آرائهم، أو فلسفاتهم.

المتن:

قال: وقد أكمل الله الدين لنبيه وأمته فلم يحوجه هو ولا أمته إلى عقلٍ ونقلٍ سواه، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[سورة المائدة، من الآية:٣].

الشرح:

(**لم يحوجه هو**)؛ أي: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (**ولا أمته إلى عقلٍ ونقلٍ سواه**)؛ أي: سوى الوحي الذي نزل على نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكمل الله به الدين وأتم به عليهم النعمة.

المتن:

ولا يمكن أن يعارضه عقلٌ صحيح، ولا علمٌ صادق، ومن تأمل ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة وجدها شبهاتٍ فاسدة يُعلم بالعقل بطلانها وثبوت نقيضها، والرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- تُخبر بما تعرفه العقول جملةً وتفصيلًا، أو تعرفه جملة ولا تهتدي إلى تفصيله، أو تُخبر بأمورٍ لا تهتدي إليها العقول بمجردها لا جملةً ولا تفصيلًا، ومحالٌ أن تُخبر بما تحيله العقول الصحيحة، وهذا يعرفه كل من له خبرةٌ بالشريعة الإسلامية، وخبرةٌ بمقالات الأمم.

وقد تتبع كبار العلماء، وأساطين الحكماء، وفحول أهل النظر ذلك فوجدوه كذلك في جميع الحقائق التي جاءت بها الرسل، وبرهنوا أن كل ما خالفها فهو ضلالاتٌ وجهالاتٌ وخيالات؛ حتى باعتراف من أنصف من هؤلاء الملحدين فضلًا عن أولى الألباب والبصائر، وأهل العقول الوافية المتغذية بالوحي والهداية النبوية، فإنهم علموا علم اليقين أن جميع ما جاءت به الرسل من أمور الغيب، ومن الأحكام الشرعية القدرية والجزائية فهو حق اليقين، تيقنوه بقلوبهم، وشهدت به ألسنتهم، وهدوا به الخليقة، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٨]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[سورة المائدة، من الآية:٥٠]، وقوله: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سورة سبأ، من الآية:٦]، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ

عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾[سورة مريم، من الآية:٥٨]، ولما ذكر صفات أولي الألباب قال عنهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّا﴾[سورة آل عمران، من الآية:١٩٣].

الوجه الرابع والثلاثون: أن أصل بلاء المشركين والملحدين قياس الرب العظيم بالمخلوق الناقص الحقير، ولم يعترفوا أن الله ليس كمثله شيء، وأن له المثل الأعلى في السماوات والأرض، وأن له العظمة كلها والكبرياء كله والمجد والحمد والجلال، وأن ما للخلق من أولهم إلى آخرهم من قوةٍ وعظمة وأوصاف؛ فإنها تضمحل غاية الاضمحلال ولا يبقى لها نسبةٌ بوجهٍ من الوجوه إذا نُسبت إلى عظمة الله وجلاله وكماله؛ وإلا فلو علموا أن الله تعالى هو الخالق لجميع الموجودات أعيانها وأوصافها وأفعالها ومن سواه مخلوق، وأنه مالك الملك المطلق ومن سواه عبدٌ مملوك، وأنه العليم الذي أحاط علمه بكل شيء، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، القدير الذي لا يعجزه شيء، العزيز الذي علا على كل شيء، وقهر المخلوقات كلها ودانت لعزته وقدرته، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء، الحكيم في كل ما خلقه وحكم به شرعًا وقدرًا وجزاءً، إلى آخر ما وصلت إليه معارف الرسل وأتباعهم من أوصافه، فلا يُحصي أحد ثناء عليه، لو علموا شيئًا من ذلك لعرفوا أن قولهم واعتقادهم أبطل الباطل، وأشنع الكذب، وأعظم الجراءة على الله، والمكابرة لآياته وبراهينه التي خضعت لها الخليقة، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾[سورة الإسراء، من الآية:٤٤]، وقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾[سورة مريم، من الآية:٩٣-٩٥].

فهؤلاء الملحدون لمَّا لم تصل معارفهم الضئيلة إلى شيءٍ من ذلك، وحصروها في بعض الأسباب، ولم ترتق إلى مسبب الأسباب، ولم يصلوا من المخلوقات إلى خالقها، ظنوا أن ما وصلوا إليه هو غاية العلم، ونهاية المعرفة جهلًا وضلالًا، ومنهم من كان كذلك ظلمًا وعنادًا، فيا أيها المؤمن بالله احمد الله على هذه النعمة التي هي أكبر النعم، والسلامة من عقوبة الإلحاد التي هي أكبر النقم.

الشرح:

هنا يذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الوجه أن البلاء في هؤلاء والشر وسبب العطب عندهم القياس الفاسد، القياس الفاسد وهو من أفسد القياس وأشنعه، وهو قياس الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بخلقه، وهذا أفسد القياس والله ليس كمثله شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٧٤]، ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[سورة الروم، من الآية:٢٧]؛ سبحانه، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[سورة مريم، من الآية:٦٥]؛ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[سورة الإخلاص، من الآية:٤].

فهذا القياس الفاسد هو شرٌ عظيم على صاحبه عندما يقيس الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بخلقه، فعند القوم علوم تتعلق بنطاق معين؛ مثل ما وصف الشيخ الأشياء الأرضية، علوم تتعلق بهذا، فلما جاء ما يتعلق بوحدانية الله، وأخضعوا ذلك لعلومهم وأقيستهم وآرائهم وفلسفاتهم، بها جحدوا أكبر الحقائق وأعظمها، وكثير ما يأتي الخطأ من جهة القياس الفاسد، والله جَلَّ وَعَلَا لا يُقاس بخلقة، فلما أخضعوا ما يتعلق بوحدانية الله وعظمته وأسماءه وصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى علومهم، قاسوا ما يتعلق بالعلم الذي يختص بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعلم المدرك بالحواس، بالعلم المدرك بالحواس حواسهم المجردة؛ فوجدوا بزعمٍ منهم أن هذا لا ينطبق على علومهم ولا تؤيده علومهم، فنفوه بذلك.

أضرب لكم مثلًا فقط، وهو مثل طريف، لكنه يكشف هؤلاء، لو أن شخصًا تخصص في الهندسة وبرع فيها، ووقته أمضاه في دراسة الهندسة، وهو ليس عنده من العلوم الشريعة خبر، ثم ذُكر له حديث عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: هذا لا يصح، هذا لا يصح ولا يثبت؛ لأنه يختلف عن ما توصل إليه بدراسته، هل مثل هذا الحكم يقبله العقلاء؟ وما ينفيه لا علاقة له أصلًا بعلمه، وعلمه ليس من العلوم التي يُهتدى بها إلى هذا، فالحاصل أن مثل يعني هذا الفساد العظيم الذي عند هؤلاء راجع إلى أن ما يتعلق بالله وعظمته وجلاله وأسماءه قاسوه بأشياء أرضية لعلومٍ فيها مجال، تنظر، وتبحث، وتُثبت، وتنفي إلى غير ذلك، فاخضعوا ما يتعلق بالعلم بالله وأسماءه وصفاته وعظمته أخضعوه لمثل هذا، فتوصلوا بزعمٍ منهم إلى أن هذا غير ثابت، فجحدوه وكذبوه وأبطلوه بذلك.

قال: (**أن أصل بلاء المشركين والملحدين قياس الرب العظيم بالمخلوق الناقص الحقير، ولم يعترفوا أن الله ليس كمثله شيء، وأن له المثل الأعلى في السماوات والأرض، وأن له العظمة كلها والكبرياء كله والمجد والحمد**).

وختم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بختمٍ جميل، قال: (**فيا أيها المؤمن بالله احمد الله على هذه النعمة**)؛ أن هداك إلى ذلك، وعافاك من هذا البلاء الذي ابتلي به هؤلاء.

المتن:

الوجه الخامس والثلاثون: أن هؤلاء الدهريين لما كانوا يقولون ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ما يهلكنا إلا الدهر، وما هي إلا الطبيعة تتولد عنها الموجودات والحوادث، حصروا مداركهم في هذه الحياة الدنيا؛ فأدركوا منها ما أدركوا، وجحدوا ما سوى ذلك من أمور الغيب، وما أخبرت به الرسل من الغيوب والأحكام، فضاقت دائرة علوم هؤلاء الملحدين، وامتلأت قلوبهم من الكفر والكبر والسخرية بعلوم الرسل، وساءت قصودهم وختم الله على مداركهم القلوب والأسماع والأبصار، فلم ينتفعوا بها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأحقاف، من الآية:٢٦]؛ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة غافر، من الآية:٥٦]، فنعوذ بالله من هذا الكبر الذي هبط بصاحبه إلى هذه الدركات، ومنعه من الوصول إلى العلوم النافعة والسعادة والفلاح، وحسَّن له ما هو عليه من العلوم الناقصة والأعمال القباح.

ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المعلومات المعاينة التي لا تُدرك إلا بالخبر أضعاف أضعاف المعلومات التي تُدرك بالحس والعقل.

الشرح:

(**المعلومات المعاينة**)؛ ما تستقيم، (**المعلومات المعاينة التي لا تُدرك إلا بالخبر أضعاف أضعاف المعلومات التي تُدرك بالحس والعقل**)؛ هذا نقل عن كتاب: **[الصواعق المرسلة]** لابن القيم صفحة ٨٧٦ من المجلد الثالث، أنا راجعتها؛ لأن هذه العبارة يعني ما تستقيم في السياق، ففي الأصل: (**المعلومات الغائبة التي لا تُدرك إلا بالخبر أضعاف أضعاف المعلومات التي تُدرك بالحس**)؛ التي هي المعلومات المعاينة، المعلومات المعاينة هي التي تُدرك بالحس، ويعني الظن أن هذا من أخطاء الناسخ، أو في الطباعة، أو نحو ذلك.

المتن:

ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المعلومات الغائبة التي لا تُدرك إلا بالخبر أضعاف أضعاف المعلومات التي تُدرك بالحس والعقل، بل لا نسبة بينها بوجهٍ من الوجوه، ولهذا كان إدراك السمع أعم وأشمل من إدراك البصر.

الشرح:

يعني الأشياء التي يعرفها المرء بسمعه أعم من التي يعرفها بالبصر، وانظر في هذا الباب واعتبر ببعض غير المبصرين، كم عندهم من العلوم التي لا يُدركها من هو مبصر.

المتن:

فإنه يُدرك الأمور المعدومة والموجودة والحاضرة والغائبة، والمعلومات التي لا تُدرك بالحس والأمور الغائبة عن الحس نسبة المحسوس إليها كقطرةٍ من بحر، ولا سبيل إلى العلم بها إلا بالخبر الصادق، وقد اصطفى الله من خلقه أنبياء أنبأهم من أنباء الغيب بما يشاء، وأطلعهم منها على ما لم يُطلع عليه غيرهم، فليس كل ما أخبر به الأنبياء يمكن معرفته بدون خبرهم بل ولا أكثره، ولهذا كان أكمل الأمم علمًا أتباع الرسل، وأن كان غيرهم أحذق منهم في علم النجوم والهندسة وعلم الكم المتصل والمنفصل، ونحوها من العلوم التي لما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وآثروها على علوم الرسل.

الشرح:

انظر دقة العبارة عند ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عليه، يقول: (**ولهذا كان أكمل الأمم علمًا أتباع الرسل**)؛ لأن عندهم العلم، العلم الذي يُهتدى به إلى النجاة والسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، (**وإن كان غيرهم أحذق منهم في العلوم**)؛ أي: الأرضية، العلوم الدنيوية، لكن أكمل العلم عند أتباع الرسل؛ لأنه العلم الذي به نجاة المرء وسعادته وفلاحه في دنياه وآخراه، وهذا الذي هو أحذق في علوم دنياه، إذا ما كان عنده علم الرسل، إذا فارقت روحه جسده مصيبته عظيمة جدًا؛ لأنه لا يمكن أن ينجو المرء ويسعد إلا بهذا العلم الذي جاءت به الرسل – عليهم صلوات الله وسلامه– فأكمل الناس علومًا أتباع الرسل؛ لأن عندهم العلم، العلم الذي يُهتدى به، العلم الذي تكون به النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة.

المتن:

وهي كما قال الواقف على نهايتها: ظنونٌ كاذبة، وعلومٌ غير نافعة، فنعوذ بالله من علم لا ينفع، وإن نفعت فنفعها بالنسبة إلى علوم الأنبياء كنفع العيش العاجل بالنسبة إلى الآخرة ودوامها، فليس العلم في الحقيقة إلا ما أخبرت به الرسل عن الله طلبًا وخبرًا، فهو العلم المزكي.

الشرح:

(**طلبًا**)؛ يعني: الأوامر والنواهي (**وخبرًا**)؛ أي: ما جاءه به من إخبارات عن الله، وعن اليوم الآخر، وعن الملائكة وغير ذلك.

المتن:

فهو العلم المزكي للنفوس المكمل للفطر المصحح للعقول الذي خصه الله باسم العلم، وسمى ما عرضه "ظنا"، لا يُغني من الحق شيئًا وخرصًا وكذبًا، وإذا تأملت ما عند المعارضين لنصوص الأنبياء بعقولهم رأيت كله خرصًا، وعلمت أنهم هم الخرَّاصون، وأن العلم في الحقيقة ما نزل به الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي أقام الله به حجته، وهدى به أنبياءه وأتباعهم، وأثنى عليهم به، وذكر الآيات الدالة على هذا، انتهى.

الشرح:

نعم انتهى نقلًا من كتاب: **[الصواعق]** لابن القيم، المجلد الثالث، الصفحة ٨٧٦ وما بعدها، مع بعض الاختصار في مواضع من النقل، ونكتفي بهذا.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

(المجلس السادس)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد...

المتن:

فيقول العلَّامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتابه **[الأدلَّة القواطع والبراهين في إبطال أصول المُلحدين]**: «الوجه السادس والثلاثون: أنَّ آيات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ومعجزاتهم التي شاهَدَها الخَلْق العظيم، وتناقَلَتها القرون، واجتَمَعَت عليها الدلالات المتنوِّعة (دلالة العقل، ودلالة الحِسِّ،

واضطرار الخَلْق الذين شاهدوها أنَّها من عند الله ومن آياته وبراهينه تهدم الأصل الذي أصَّله الملاحدة حيث لم يُثبتوا إلَّا ما دلَّ عليه الحِسُّ؛ فإنَّ أكثر المحسوسات إذا نُسِبَت لآيات الأنبياء ومعجزاتهم لم يكن لها إليها نسبةٌ من هذه الجهة، فضلًا عن بقية الاستدلالات عليها فهي من أقوى الطُّرُق وأوضحها وأدلِّها على الصانع وصفاته وأفعاله.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها؛ فإنَّها جَمَعَتْ بين دلالة الحِسِّ ودلالة العقل، ودلالتها ضرورية بنفسها؛ ولهذا يسمِّيها الله «آياتٌ بيِّنات»:

- فإنَّ انقلاب عصا تُقِلُّها اليد ثُعبانًا عظيمًا يبتلع ما يمُرُّ به ثم يعود عصا كما كانت.
- وكذلك اليد.
- وفَلْق البحر طُرُقًا والماء قائمٌ بينهما كالحيطان.
- ونَتْقُ الجبل من موضعه ورَفْعه على قَدْر العسكر العظيم فوق رؤوسهم.
- وضَرْب حجرٍ مربَّعٍ بعصًا فتسِيل منه اثنتا عشرة عينًا تكفي أُمَّةً عظيمة.
- وإخراج الناقة لصالح.
- وتصوير طائرٍ من طِين ثم ينفخ فيه النبي فينقلب طائرًا ذا لحمٍ وريشٍ وأجنحةٍ يطير بمشهدٍ من الناس.
- وإنزال العقوبات المتنوِّعة على المكذِّبين للأنبياء ثم نجاة النبي ومَن معه من المؤمنين.
- وإيماء الرسول إلى القمر فينشقُّ نصفَيْن بحيث رآه الحاضر والغائب ويُخبر به كما يراه الحاضرون.
- وكذا بقية الآيات التي شاهدها الناس من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي متنوِّعةٌ جدًّا.

وأمثال ذلك من الآيات من أعظم الأدلَّة على الصانع وصفاته وأفعاله، وصِدْق رُسُله واليوم الآخر، وهذه من طُرُق القرآن التي أرشَدَ الله إليها عباده ودلَّهم بها كما دلَّهم بما يُشاهدون من أحوال الحيوانات والنباتات والمطر والسحاب والحوادث التي في الجو، وأحوال العلويَّات من السماء والشمس والقمر والنجوم، وأحوال النُّطْفة وتقلُّبها طَبَقًا بعد طَبق. انتهى».

الشرح:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله صلَّى الله وسلَّم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمَّا بعد..

فإنَّ آيات الله العظيمة الباهرة التي أيَّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها أنبياءه؛ فكانت معجزةً ظاهرةً بيِّنة دالَّةً على صِدْق الرُّسُل، وأنَّهم مؤيَّدون بتأييد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم، مُصدَّقُون بما أظهَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على أيديهم من معجزات، أمورٍ خارقاتٍ للعادة بَهَرَتْ مَن شاهدها، ودلَّت على صِدْق مَن ظَهَرَتْ على يديه تأييدًا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأنبيائه عليهم صلوات الله وسلامه.

وهذه البراهين كانت لمَن رآها مشاهَدةً بالحِسِّ عايَنَها الناس ورأَوْها بأعيُنهم، ومَن لم يَرَها سَمِعَها ممَّن رآها؛ فتناقَلها الناس، وشاعت وذاع أمرُها؛ لكن مَن بلاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالجحود ما تُغنِي عنه الآيات، ولا تُغنِي النُّذُر، ولا ينتفع بشيءٍ من ذلك.

لكن الغرض من هذا الوجه: «أنَّ القوم يقولون: إنَّهم لا يؤمنون إلَّا بالمحسوس»؛ فهذه الآيات كانت أمورًا محسوسة مشاهدة معاينة رآها الناس، ومَن لم يَرَها نُقِلَتْ إليه أخبارها، وتواتَرَ نَقْلُها شاهدةً على صِدْق الرسول، وبرهانًا على وحدانية المُرسِل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعظيم قُدرته وتدبيره، وأنَّ الأمر طَوْع تفسيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالحاصل: أنَّ آيات الأنبياء هي تُعَدُّ من البراهين التي تدحض شُبْهة أولئك، وتُبيِّن فسادها حيث يزعمون أنَّهم لا يؤمنون إلَّا بمحسوس، فإذا نَظَرَ المرء إلى هذه البراهين العظيمة التي أيَّد الله بها أنبياءه وهي محسوسة شاهدها مَن شاهدها.

مثلًا: ذَكَرَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمثلة كثيرة جدًّا:

انفلاق القمر: مَن كان بمكة عندما أومأ إليه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بيده، أي: أشار، فانفَلَقَ إلى قسمين (انشقاق القمر) رآه الحاضر عنده، ورآه أيضًا مَن لم يكن حاضرًا في المكان نفسه. آية مشاهدة معاينة.

وهكذا قل في جميع الآيات العظيمة التي أيَّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها أنبياءه.

قصة إهلاك فرعون من أعظم القصص وأدلِّها على عظمة الله؛ فإنَّ فرعون طغى وتجبَّر وتكبَّر وحَصَلَ منه الأذى العظيم (استباحةً للنساء، وقَتْلًا للأولاد)، إلى غير ذلك من الشر والعلو والفساد في الأرض.

ولمَّا أمَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يأخُذ بني إسرائيل معه ليلًا، أن يُسرِيَ بهم ليلًا، فلمَّا وَصلوا إلى جهة البحر وصار البحر أمامهم، وإذا بفرعون وجنوده وعتاده قد وَصَلوا إلى المكان، فقال أصحاب موسى:

﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [سورة الشعراء، من الآيتان:٦١،٦٢]؛ فأوحَى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إليه في تلك اللحظة أن يضرب بعصاه البحر ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [سورة الشعراء، من الآية:٦٣]؛ أي: الجبل الشامخ.

هذه آية ظاهرة، البحر، الماء السيَّال وَقَفَ وقوف الجبال، مثل الجبال الماء أصبح واقفًا، وفي اللحظة نفسها بين هذه الجبال الواقفة من الماء أصبح الأرض يَبَسًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف مستقِيمًا.

فَدَخَل موسى ومَن معه في هذه الطُّرُق بين جبال الماء واقفة حتى عَبَرُوا إلى الجهة الأخرى، ثم دَخَلَ فرعون ومَن معه، فلمَّا تكامَلَ موسى ومَن معه خروجًا، وتكامَلَ فرعون ومَن معه دخولًا أَمَرَ الله عَزَّوَجَلَّ البحر أن يعود كما كان؛ فهَلَكوا هلاك نفسٍ واحدة.

ومثل هذه الآيات كثيرة جدًّا أيَّد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بها أنبياءه.

عصا موسى لمَّا التقى مع السَّحَرَة، عصا بيده ومعهم حبالهم وعِصيِّهم كثيرة في الوادي، السَّحَرة ليس عددهم بالقليل، قِيل: بالآلاف أعدادهم، وكلٌّ معه سِحْره، فألقَى موسى عصاه فتحوَّلَتْ إلى حيَّة تبتلع كل ما في الوادي، والقوم يعرفون السِّحْر ورأوا شيئًا مختلف تمامًا، رأوا آية عظيمة تدُلُّ على عظمة الله وكماله سبحانه؛ فمباشرةً أعلنوا إيمانهم.

في أول النهار كانوا سَحَرةً فَجَرةً كَفَرةً، وفي آخر النهار أصبحوا مؤمنين مستقِيمين بَرَرة في قوة إيمانٍ عجيبة، حتى لمَّا عَرَضَ فرعون مهدِّدًا لهم أن يقتُلهم ويُقطِّع أيديهم وأرجُلهم من خلاف؛ لم يُبالوا بذلك؛ ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَ﴾ [سورة الشعراء، من الآية:٥٠]، اقضِ ما أنت قاضٍ؛ من قوة الإيمان الذي حَصَلَ لهم لرؤية هذه الآية.

وهكذا آيات الأنبياء العظيمة التي أيَّد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بها أنبياءه، هي أشياء كانت محسوسة، وباب الآيات بابٌ أعظم في الدلالة؛ لأنَّه إذا كانت جميع المخلوقات دالَّة على عظمة خالقها؛ فإنَّ الآيات الخارقة أخصُّ في هذا الباب دلالةً على عظمة الخالق وكمال تدبيره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فالحاصل: أنَّ هذا من الوجوه التي يُرَدُّ بها على هؤلاء، وخاصَّةً في زَعْمهم أنَّهم لا يؤمنون إلَّا بالأمور المحسوسة.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذا إبطالٌ لقول مَن يستهِين بمعجزات الأنبياء ويُجاري الملحدين في تحليلها تحليلًا يُعلَم بالضرورة بُطلانه، وأنَّه قَدْحٌ في الضروريَّات».

الشرح:

هذا يفعله المُكابر، المُكابر المُبتَلَى بالهوى وفساد القلب يفعل مثل ما أشار إليه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يُحلِّلُها تحليلًا طبيعيًّا حتى يُبعِد عن أفهام الناس أنَّها من تدبير الرب العظيم والخالق القدير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المتن:

«وأنَّه قَدْحٌ في الضروريات والمحسوسات؛ ولكن التقليد الأعمى والخضوع للملاحدة وموافقتهم على كثيرٍ من أصولهم الباطلة أوصَلَهم إلى حالة الاستهانة بآيات الأنبياء وخوارق ما أجرى الله على أيدِيهم ممَّا هو معلومٌ بالحِسِّ والعقل والخبر والمشاهدة، ومنقولٌ نَقْلًا متواتِرًا لا يُشبهه شيءٌ من المتواترات».

الشرح:

لأنَّها أمور عظيمة جدًّا، أمور عظيمة -يعني- تتحرَّك الدنيا كلها مثل هذه الأمور العظيمة، مثل قصة هلاك فرعون، مثل القصص التي أشار إليها ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ نوَّعَ في ذِكْرها هذه قصص عظيمة جدًّا تتشوَّفَ النفوس لسماعها ونَقْلها وتناقُلها ونَشْرها؛ فتناقَلَها الناس تناقُلًا عظيمًا متواترًا، وشاعت في الناس وعظُمَ ذِكْرها بينهم.

المتن:

«والله تعالى يُنوِّع آياته ويجعلها في كل فنٍّ وتصريفٍ لتقوم الشواهد على توحيده وصِدْق رُسُله؛ ليحيا مَن حيَّ عن بيِّنة ويهلِكَ مَن هَلَكَ عن بيِّنة، وليعلَم العباد أنَّ قُدْرته تعالى يُصرِّف بها الأمور بأسبابٍ يعرفها العباد، وأسبابٍ لا يعرفون وجهها؛ وإنَّما يعرفون نتيجتها وفائدتها الدالَّة على صِدْق رُسُله وكذب أعدائه وبُطلان قولهم الذي خالفوا فيه الرُّسُل.

والحمد لله وسلامٌ على عباده الذين اصطفى.

الوجه السابع والثلاثون: أن يُقال لهؤلاء المُلحدين الدهريين ما قالته الرُّسُل لأسلافهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية: ١٠]؛ فالله تعالى وجوده أظهر الموجودات، وهو واجب الوجود، وغيره وُجِدَ بعد العدم.

وهو تعالى فاطر السماوات والأرض؛ فكلُّ الموجودات الحاضرة والسابقة واللاحقة، وجميع الحوادث في جميع الأوقات كلها بخَلْقه وتسخيره وتدبيره وتصريفه أوجدها بعد العدم، أمدَّها بكل ما تحتاج إليه، وحفِظَها

من الزوال والاضمحلال، وهو يُحييها ويُميتها ويعدمها ويُبقِيها ويتصرَّف فيها بكمال الحكمة وبديع العناية، قد شَهِدت بوحدانيته جميع الموجودات، وخَضَعت لعظمته جميع الكائنات، وافتَقَرت إليه جميع البريَّات في كل شؤونها، كل يومٍ هو في شأن؛ شؤونٌ يُبدِيها ويبتدِيها.

وقد قامت البراهين القواطع التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى على هذا الأمر، وشَهِدت به الكُتُب والرُّسُل وأتباعهم وأولو العقول الصحيحة والفِطَر المستقيمة».

الشرح:

(**يُبدِيها**)؛ أي: يُظهرها.

و(**يبتدِيها**)؛ أي: ينشئها ابتداءً.

فهناك أمورٌ (**يُبدِيها**)؛ أي: يُظهرها، وأمورٌ (**يبتدِيها**)؛ يعني: ينشئها النشأة الأُولى، وأمور يُظهرها، مثل الآيات التي يُظهرها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ دالَّةً على عظمته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ونُسختي أنا قديمة لكنها ليست معي اليوم، واللفظ فيما أذْكُر فيها بدون هذه (اللام).

المتن:

«وافتَقَرت إليه جميع البريَّات في كل شؤونها، كل يومٍ هو في شأن؛ شؤونٌ يُبدِيها ويبتدِيها.

وقد قامت البراهين القواطع التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى على هذا الأمر، وشَهِدت به الكُتُب والرُّسُل وأتباعهم وأولو العقول الصحيحة والفِطَر المستقيمة، لا يمكن أحدًا له مُسكةٌ من عقل أن يُنكر هذا إلَّا هؤلاء الملحدون الذين فَسَدتْ عقولهم ومَرَجتْ أخلاقهم واقتدوا بكل شيطانٍ مَريد، كفرعون وأشباهه الذي قال له موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [سورة الإسراء، الآية:١٠٢]، وقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة النمل، الآية:١٤].

وحيث خاطَبَ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين أَمَره بالإيمان: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [سورة طه، الآيتان:٤٩-٥٠]؛ فاستدلَّ عليه بجميع الكون، ناطقه وصامته، وأنَّه الذي انفرد بخَلْقه لم يُشاركه في ذلك مُشارك، وهَدَى كل مخلوقٍ إلى مصالحه ومنافعه المشاهَدة».

الشرح:

هذا أيضًا من البراهين والوجوه التي ذَكَرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أن يُقال لهؤلاء (**ما قالته الرُّسُل لأسلافهم:** ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية:١٠]) ؛ وهذا الاستفهام -كما عرفنا- استفهام إنكار، أي: لا شك فيه؛ لأنَّ وحدانيته والدلائل عليها هي أظهر الدلائل وأبيَنُها.

وعرفنا أنَّ الأمر كلَّما اشتدَّتْ حاجة العباد إليه كانت الطُّرُق لمعرفته وتحصيله أعظم وأكثر من غيره، وليس هناك حاجة للعباد إلى شيء أعظم من حاجتهم إلى الإيمان بوحدانية الله.

ولهذا الدلائل والبراهين والشواهد على وحدانية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كثيرة وعديدة، وفي كل شيءٍ له آية تدلُّ على أنَّه الواحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالحاصل: أنَّ وحدانية الله أظهر الحقائق، وأجلى الأمور وأبيَنُها؛ فيُقال لهؤلاء كما قِيل لأسلافهم ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[سورة إبراهيم، من الآية:١٠]؛ هذا واحد من البراهين والدلائل على وحدانيته، ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية:١٠]؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وجوده ووحدانيته من أبيَن الأمور وأوضحها، والدلائل عليها هي أكثر الدلائل وأبينها وأظهرها.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «فهذا البرهان جميع العقلاء يعترفون به، ولا ينكره إلَّا كل مكابرٍ مُباهت، مثل فرعون وأئمة هؤلاء؛ ولهذا جاءه موسى وخاطَبه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية:٢٣]؛ إنكارًا له ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية:٢٤]؛ فكلُّ عاقلٍ لا بد أن يعترف به، ومَن لم يعترف به فإنَّه إمَّا مجنونٌ أو معاندٌ مباهت أو ضالٌّ مقلدٌ تقليدًا أعمى».

الشرح:

يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا البرهان جميع العقلاء يعترفون به، يعني: على وحدانية الله ودلالته على وحدانية الله، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا شك في وحدانيته ووجوده وربوبيته وتدبيره لهذا الكون سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ جميع العقلاء يعترفون به.

لا يُنكره إلَّا مُكابر مباهت، يعني: يُنكر الواضح.

المباهت المكابر هو: اللي يُنكر الواضح، الشيء البيِّن إذا أنكره شخص هذه مُباهتة ومكابرة؛ لإنكاره لأبيَنِ الأمور وأوضحها؛ ولهذا قال الله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل، الآية:١٤]؛ هذا هو السبب.

وقال موسى مخاطبًا فرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [سورة الإسراء، الآية:١٠٢]؛ أنت تعرف ذلك في قرارة نفسك.

فالإنكار يكون من المُباهِت المُكابِر، أو يكون من المُقلِّد تقليدًا أعمى، وهؤلاء أتباعهم هؤلاء المباهتين، أو مجنون فاقد للعقل؛ أمَّا مَن أعطاه الله عقل وأعطاه فهمًا لا يُنكِر ذلك؛ لأنَّ هذا لا يُنكره جميع العقلاء لوضوحه وجلائه وبيانه.

المتن:

«فقال فرعون مموِّهًا على أهل مجلسه: ألَا تسمعون ما يقول موسى؟

فقال موسى: ربُّكم وربُّ آبائكم الأوَّلِين؛ إنكارًا عليهم أنَّهم أنكروا أَمْرًا لم يزالوا ولا يزالون إليه مضطرِّين مفتقرين كل وقت، وهو ربوبية الله لهم ولآبائهم الأوَّلِين التي لا يمكن إنكارها؛ فهو الذي ربَّاهم بخَلْقه ونِعَمه صغارًا وكبارًا، هم وأصولهم وفروعهم وسائر الخَلْق؛ ولكنهم باهَتوا.

ومن مباهتتهم ومكابرتهم: رَمْيه لموسى بالجنون وهو يعلم أنَّه أكمل الناس عقلًا، وهو الذي أقامه وأقعده وأحرجه في أحواله كلها، فقال: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [سورة الشعراء، الآية:٢٧].

فلمَّا رآه يُكابر ويجحد ربوبية الله للخَلْق التي لا يمكن المكابرة فيها قال له: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الشعراء، الآية:٣٠]؛ ظاهرٍ واضحٍ قويٍّ دالٍّ على صِدْقِي وصحة ما جئتُ به، وإنَّ الجاحدين هم المُبطلون، فذَكَرَ الآيات وما جرى له مع فرعون، وكيف اعترف السَّحَرة كلُّهم أنَّه من عند الله، وأثَّرَ فيهم وآمنوا الإيمان الصحيح الصادر عن قوةٍ وبصيرةٍ وخبرةٍ تامَّة، ولم يُبالوا بالمُعارِضَات وما أصابهم من فرعون، وظَهَر الحق وبَطَلَ ما كانوا يعملون.

فهذه في الحقيقة حالة هؤلاء الملحدين مع جميع الرُّسُل.

ولقد قصَّ الله علينا من نبئهم ما فيه عبرةٌ للمعتبرين وحُجَّة على المُعاندين، كم في الكتاب والسُّنَّة من الدلالات العقلية والنقلية على ذلك، فمَن جَحَدَ ذلك أم شكَّ فيه فبأي حقيقةٍ يعترف؟».

الشرح:

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فصَّل تفصيلًا نافعًا جدًّا لِذِكْر هذه الدلالات في كتابه **[البراهين العقلية على وحدانية الله]**.

المتن:

«ومَن أنكره فبأي حديثٍ بعد الله وآياته يؤمنون؟ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الجاثية، الآيتان:٧-٨].

الشرح:

أورَدَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا تأكيدًا لِمَا سَبَقَ أنَّ مَن يُنكر هذا الأمر الذي هو أوضح الأمور وأبيَنُها لا يكون إنكاره إلَّا عن مكابرة ومباهتة، أورَدَ الحوار الذي كان بين موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وفرعون فذَكَرَه الله عَزَّوَجَلَّ في أوائل سورة الشعراء، فكان موسى في ذلك الحوار يُبدِي براهين واضحة ظاهرة بيِّنة، وفرعون عندما يتكلَّم في هذا الحوار لا يذكُر أي برهان؛ وإنَّما يذكُر كلامًا يستخفُّ به عقول قومه، مثل ما قال الله في آيةٍ أخرى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [سورة الزخرف، من الآية:٥٤]؛ فيأتي بكلامٍ يستخفُّ به العقول، ويستهجم به فقط كلام موسى ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [سورة الشعراء، الآية:٢٧]؛ نحو هذا الكلام؛ لكن لا يَذْكُر شيئًا.

ودائمًا المُفلس من الحجج هذه طريقته دائمًا، هذا معروف المُفلس من الحُجج هذه طريقته، طريقة فرعون في محاورةٍ مع موسى -عليه صلوات الله وسلامه-؛ فما كان يذْكُر شيئًا في باب البرهان وباب الحُجَّة؛ وموسى ينتقل من برهان إلى برهان، ومن حُجَّةٍ إلى حُجَّة؛ ومع ذلك بَقِيَ فرعون مكابرًا.

ولمَّا تهدَّد فرعون في خاتمة الحوار العلمي الرصين المُدعَم بالأدلة والبراهين خَتَمَ الحوار بتهديده بالسجن، فقال له موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الشعراء، الآية:٣٠]؛ يعني: جئتك بدلالة تراها بعينك تُشاهده؟

فقال: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة الشعراء، الآيتان:٣١-٣٢]؛ فكانت آية عظيمة باهرة ظاهرة واضحة؛ فزَعَمَ فرعون ومَن معه من الملأ أنَّ هذا سِحْر، وتواعدوا مع موسى أن يجمع له السَّحَرة.

وفعلًا جَمَعهم في يوم الزينة اجتمعوا ضُحى وتنازلوا في ذلك الميدان، قِيل في بعض كُتُب التفسير: أنَّ عدد السَّحَرة الذي جَمَعهم فرعون يزيدون على الثلاثين ألف، وكلٌّ معه سِحْره من عتاولة السَّحَرة وكبرائهم،

واجتمعوا بسِحْرهم العظيم ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [سورة طه، الآية:٦٧]؛ قال الله له: ﴿لَا تَخَفْ﴾ [سورة طه، من الآية:٦٨]، وأَمَره أن يُلقِي عصاه.

ألقَى عصاه التي يمسكها في يده فتحوَّلت إلى ثُعبانٍ والتَقَمَتْ كل ما في الوادي من حبال وعِصيّ.

القوم يعرفون السِّحْر؛ لكن رأوا شيء مختلف، آية عظيمة من آيات الله الباهرة؛ فأعلَنَ السَّحَرَة كلُّهم إيمانهم، في الصباح كانوا سَحَرةً فَجَرةً كَفَرة، ولمَّا رأوا هذه الآية مباشرةً تحوَّلوا إلى مؤمنين أتقياء بررة، ومع ذلك بَقِيَ هذا الفرعون على عناده ومباهتته، وقال للسَّحَرة: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [سورة طه، من الآية:٧١]، ومَضَى يستخفُّ بقومه إلى أن أهلكه الله في طُغيانه وكِبره.

فالحاصل: أنَّ هذا الأمر براهينه بيِّنة، والشأن فيه كما صدَّر المؤلِّف هذا الوجه كما قالت الأنبياء لأُممهم: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[سورة إبراهيم، من الآية:١٠].

المتن:

«الوجه الثامن والثلاثون: أن يُقال لهؤلاء الملحدين الماديِّين: هاتوا برهانكم وميزانكم الذي تزعمون أنَّ ميزان الحقائق، وقابِلوه بميزان الحق اليقين وهو ميزان الدِّين.

زنوا الحقائق مفصَّلة حقيقةً حقيقة، واعرضوها على ذوي العقول الصحيحة والأذهان والمعارف الصادقة فإنَّه يتَّضح عند ذلك أنَّهم كانوا كاذبين مُبطلين».

الشرح:

يعني: هذا الوجه في الميزان ميزان هؤلاء الذين يزعمون أنَّه دقيق، وأنَّه تُوزَن به الأمور وتُعرَف به الحقائق، وأنَّ الحق ما دلَّ عليه ميزانهم، وما لم يدلُّ عليه فهو باطل.

فيقول: هاتوا ميزانكم ننظُر في هذا الميزان، ونأتي بميزاننا الذي هو ميزان الدِّين والشَّرْع، وحي الله المُنزَّل من رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وننظُر أيُّ الميزانَيْن أحق؟

المتن:

«أوَّل ذلك أن يُقال: قابلوا بين أي موجودٍ من الموجودات التي اختصصتُم بإثباتها أو التي اشترك بنو آدم في إثباتها».

الشرح:

(**اختصصتُم بإثباتها**)؛ أي: بالميزان الذي عندكم تزنون به الحقائق وتزعمون دِقَّته؛ هاتوا شيء من هذه الأمور التي ثَبَتت بميزانكم (**لتي اختصصتُم بإثباتها أو التي اشترك بنو آدم في إثباتها**)، وبين.....

المتن:

«وجود الخالق؛ فإنَّ وجود الخالق جَلَّجَلَالُهُ وتقدَّست أسماؤه وجود واجبٍ، مستحيلٌ وممتنعٌ ثبوت تقيضه؛ فهو أعظم الموجودات وأظهرها، بل لا لشيءٍ من الأشياء إلَّا بإيجاده، ووجود ما سواه من المخلوقات والحوادث مفتقرٌ غاية الافتقار إلى ربه، ليس لشيءٍ منها من نفسه وجود؛ فليس لها إلَّا العدم.

فهي حادثةٌ بعد العدم، ومضطرَّةٌ إليه كل وقتٍ بعد الوجود، ولو قَطَعَ عنها الأمور التي حفِظَها بها وأبقاها لاضمحلَّتْ.

والله تعالى وجوده مركوزٌ في العقول والفِطَر، معلومٌ بالضرورة وبالطُّرُق التي هي أقوى الطُّرُق الدالَّة على الحق ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [سورة الحج، من الآية:٦٢]؛ فحَصَرَ الحق فيه؛ إذ هو الحق في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ولا حقَّ لشيءٍ من الأشياء إلَّا باستناده إليه؛ فهو واجب الوجود المُوجِدُ لكلِّ موجود.

فوا عجبًا كيف يُعصَى الإله ** أم كيف يجحده الجاحد

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ ** تدلُّ على أنَّه واحدُ

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ [سورة غافر، الآية:٦٩]؛ عن الحق الذي هو أظهر الأشياء وأوضحها؛ ولكن العِلَّة والسبب الذي حَمَلَهم على هذه المجادلة الباطلة قوله عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ [سورة غافر، من الآية:٧٠]؛ فتكذيبهم بجميع الكتب المنزَّلة من عند الله وبجميع الرُّسُل، ومَنْعهم من قَبول الحق الذي لا حقَّ غيره وتَرْكهم في ضلالهم وطغيانهم يعمهون، ثم ذَكَرَ وعيده لهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [سورة غافر، من الآيتان:٧٠،٧١].

الشرح:

ذَكَرَ هذه الآيات من سورة غافر، وفي أثنائها ذَكَرَ توضيحًا لها كما هي طريقته في التفسير وطريقة غيره من أهل العلم، ذَكَرَ الآيات قول الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ [سورة غافر، الآيات:٦٩-٧٤].

الحاصل: أنَّ هذه الآيات فيها ما أشار إليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أنَّ مجادلة هؤلاء مجادلة بالباطل، وهي مبنية على ما ذَكَرَه الله ووصَفَهم به تكذيبهم بالكتاب وبما جاءت به الرُّسُل، وُجِدَ هذا التكذيب في الكتاب وبما جاءت به الرُّسُل أَخَذَ القوم يُكابرون ويُباهتون ويُنكرون الواضحات البيِّنات الظاهرات.

(ومَنْعهم من قَبول الحق الذي لا حقَّ غيره وتَرْكهم في ضلالهم وطغيانهم يعمهون، ثم ذَكَرَ وعيده لهم).

المتن:

«فتكذيبهم بجميع الكتب المنزَّلة من عند الله وبجميع الرُّسُل، ومَنْعهم من قَبول الحق».

الشرح:

هذه نقف عندها نشوف النُّسخة اللي مع الأخ قبل قليل، نشوف ماذا فيها؟

طالب: «مَنَعَ» بدون واو.

أيوة، بدون واو، الواو زايدة هنا ما يستقِيم الكلام.

المتن:

«فتكذيبهم بجميع الكتب المنزَّلة من عند الله وبجميع الرُّسُل، مَنَعَهم من قَبول الحق، وتَرَكَهم في ضلالهم وطغيانهم يعمهون، ثم ذَكَرَ وعيده لهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [سورة غافر، من الآيتان:٧٠،٧١].

زنوا أيُّها العقلاء ما ثَبَتَ لربكم العظيم من الوحدانية في أوصاف الكمال، والتفرُّد بكل جلالٍ وجمال، والتفضُّل بكل خيرٍ ونِعَمٍ جزال، وما شاهدته الخليقة من عنايته وحكمته وإتقانه المخلوقات في غاية الإحكام والانتظام العجيب الذي حَسْب العقول والأفهام؛ إذ تهتدي إلى ما ....».

الشرح:

الفاصل هنا إذا كان عندكم يُحذَف، أنا عندي فاصل بعد كلمة **(والأفهام)**؛ الكلام متَّصل.

المتن:

«الذي حَسْب العقول والأفهام إذ تهتدي إلى ما بثَّه في المخلوقات من....»

الشرح:

(**حَسْب العقول والأفهام**)؛ يعني: صحةً واستقامةً (**إذ تهتدي إلى ما بثَّه في المخلوقات من حُسْن....**).

المتن:

«ما بثَّه في المخلوقات من حُسْن الخَلْق وبديع الصُّنْع ولطيف الانتظام وقيام المنافع التي لا تُحصَى المترتبة على ذلك.

ثم انظروا إلى ما نَشَرَه من رحمته التي وسِعَت كل شيء؛ فما من مخلوقٍ يستغنِي عن رحمة خالقه طرفة عين، فما بالعباد من نعمةٍ ظاهرةٍ ولا باطنةٍ خفِيَّة أو جليَّة إلَّا من الله، وهو الذي لا يأتي بالخير والحسنات إلَّا هو، ولا يدفع السوء والسيِّئات إلَّا هو، وهذا من أكبر الأدلَّة على سعة علم الله ورحمته وشمول حكمته وعظمة اقتداره.

وانظر ما في العالم العلوي والسفلي من الحوادث والتدبيرات المتنوِّعة والأفعال العظيمة، وما تدلُّ عليه من عظمة مُدبِّرها وجلاله وكبريائه ومجده، وأنَّه المتفرِّد بالوحدانية والكمال الذي لا غاية له.

وهذه أمورٌ معلومةٌ بالضرورة والمشاهدة؛ فهل يستوِي مَن أثبَتَ ما دلَّت عليه من وحدانية الله وثبوت أوصافه وأسمائه الحسنى ومَن جَحَدَ ذلك وأنكره وردَّ الأدلَّة القواطع وكابَرَ وعاند وجادل بالباطل؟».

الشرح:

كل هذه مقارنة بين الميزانين يعني: هل يستوي مَن أقام ميزانه على الدِّين والشَّرْع والوحي فآمَن بهذه الأصول وبين مَن جَعَلَ ميزانه ميزان أولئك الذي هو من أفسد الموازين وأخبثها؟

المتن:

«وهل يستوي الأمر بعبادة الله وحده وإخلاص الدِّين له، والقيام بحمده وذِكْره وشُكره والإنابة إليه التي هي أفرض الفروض التي جاءت بها الرُّسُل وأفضل ما قام به العباد واكتسبته القلوب وأعظم سببٍ يُوصِل إلى كل خيرٍ وسعادةٍ ومطلوب، أم الأمر بضد ذلك من الشِّرْك بالله والاستكبار عن عبادته وتعلُّق القلب بالخَلْق والوقوف مع المادة وعبادتها؟

وهل يستوي ما أَمَرَتْ به الرُّسُل من الصِّدْق في الأقوال والأفعال والنصيحة لله ورسوله وكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، والأمر بالبِرِّ والصلة والقيام بحقوق الجيران والأصحاب والمعامَلِين، ومَن يتَّصل بهم العبد على اختلاف طبقاتهم؟ أم الأمر بضد ذلك؟

وهل يستوي الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القُربَى، والنَّهْي عن الفحشاء والمُنكر والبَغْي على الخَلْق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، والتعاون على البِرِّ والتقوى، أو الأمر بضِدِّ ذلك؟

وهل تستقِيم الأمور كلُّها وتصلح الأحوال إلَّا بالتزام ذلك والعمل به؟

وهل يمكن القيام بأصول الإيمان وشرائع الإسلام والوفاء بالحقوق والعقود والعهود والوَرَع عن المحارم القولية والفعلية إلَّا مع الإيمان بالله واليوم الآخر الذي هو أساس الخيرات والصلاح المُطلَق؟».

الشرح:

يعني: كل هذه الأعمال أعمال البِرِّ والإحسان وحُسن المعاملة، وغير ذلك ما تستقِيم استقامةً تامة ويصلُح أَمْر الناس بها إلَّا إذا استَنَدَتْ على هذا الأصل الذي هو (**الإيمان بالله واليوم الآخر**)؛ لأنَّها إذا استَنَدتْ على هذا الأصل دَخَلتْ في باب القُرَب، وطَلَبُ ما عند الله، وأتقنها الناس وأحسنوا فيها لِمَا يرجونه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي هو المقصود بالعمل، ولما يرجون في الدار الآخرة التي هي دار الجزاء والثواب على العمل.

ومَن سِوى هؤلاء إذا تعاملوا بالأخلاق الفاضلة لا يتعاملون بها ديانةً وتقرُّبًا إلى الله؛ وإنَّما يتعاملون بها لمصالح آنية ومطالب وَقْتية ليست قُربَى يتقرَّبُون بها إلى الله؛ ولهذا لا تنفعهم في الدار الآخرة لأنَّها ليست من القُرَب التي تقرَّبُوا بها أو طلبوا بها ما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فنَفْع أخلاقهم لهم نَفْعٌ آني، نَفْعٌ وقتي في حدود المصالح الدنيوية.

المتن:

«وهل إذا أطلَقَ الملحدون الماديُّون على هذه الأصول العظيمة والشرائع الجميلة النافعة التي لا ينفع غيرها: أنَّها رَجْعية ترجع بالناس إلى الوراء وأنَّها قديمة، والقديم يجب أن يُزهَدَ فيه ويُحذَر عنه؟».

الشرح:

هذه طريقتهم، يعني: في قديم الزمان وحديثه، يعني: استهجانهم أو استخفافهم بالشرع بمثل هذا الكلام رجعية أو تخلُّف أو قديم أو.... أو .... مثل هذا الكلام؛ استخفافًا بشَرْع الله ودِينه، وهذا الذي يقولون عنه مثلًا: رجعية والقديم والتخلُّف؛ هو الذي قال الله عنه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ

ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ [سورة التوبة، من الآية:١٠٠]؛ هذا هو دِين الله، وهذا الذي كان عليه أنبياؤه وأصفياؤه وأولياؤه.

المتن:

«هل هذا القول منهم والدعاية الخبيثة إلَّا من أكبر الأدلَّة على ضَعْف عقولهم وسفاهة آرائهم وكذبهم الصريح».

الشرح:

يعني: لمَّا تكن عندهم براهين فاحتاجوا إلى مثل هذا الكلام الذي يستخفُّون به عقول بعض الناس.

المتن:

«وهل يستغني العباد عنها في حالةٍ من أحوالهم؟ وهل هي إلَّا أكبر نعمةٍ وأجلُّ كرامة أكرم الله بها العباد: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [سورة آل عمران، الآية:١٦٤]، وقوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٥٠].

فمَن وَزَنَ بعقله الصحيح ما جاءت به الرُّسُل وأَمَرتْ به وأرشَدَتْ إليه من معرفة الله وعبادته والإنابة إليه، والامر بالقيام بجميع الحقوق كلها على وجه العدل والفضل والإحسان، وما نَهَتْ عن ضدِّه، ثم نَظَرَ إلى ما يدعو إليه أهل الإلحاد عَرَفَ أنَّ الخير والفلاح والصلاح الدِّيني والدنيوي العاجل والآجل، الظاهر والبطن، مع ما دَعَتْ إليه الرُّسُل، وأنَّ الملحدين ترمِي دعوتهم إلى الانحلال من كل خُلُقٍ جميل والحث على كل خُلُقٍ رذيل، ومآلها الفوضوية التامة والانطلاق مع شهوات النفوس حتى تكون البهائم أشرف منهم وأنفع، وهذا هو الواقع بلا ريب، ولسان حالهم ومقالهم يُصرِّح بذلك؛ فنسأل الله أن يُتِمَّ علينا وعلى المسلمين نِعَمه، وأن يثبِّتنا على دِينه ويزيدنا من فضله وكرمه».

الشرح:

اللهم آمين! نسأل الله أن يجزيه خير الجزاء نُصْح ودعاء.

المتن:

«ومن أعجب العجائب أنَّ كثيرًا من الكتَّاب العصريين والسياسيين الذين يسعون في معالجة كثيرٍ من مشاكل الحياة ويطلبون حلَّها من جميع النواحي، ومشكلة الإلحاد الذي جَرَفَ بتيَّاره أكثر الناشئة لم يسعوا في حلِّها ومداواتها بالرجوع إلى الإيمان الصحيح واليقين النافع والصلاح المُطلق من جميع الوجوه؛ بل تركوهم في ظلالهم يعمهون».

الشرح:

لأنَّ الإلحاد -يعني- تحاربه دول، حتى -يعني- بعض الدول الكافرة؛ لكن تختلف الطرائق في محاربته؛ وإلَّا الإلحاد فساده أعظم الفساد، وشرُّه أعظم الشر على الدول وعلى المجتمعات وعلى أمن الناس وعلى قرارهم وعلى مصالحهم من الإلحاد من أضر؛ لأنَّ الإلحاد هو فرط للزمام، والانطلاق في كل شر والعياذ بالله.

فمن أعظم الأمور وأخطرها وأضرِّها على الناس وعلى المجتمعات وعلى أمن البُلدان وعلى مصالح الناس الخاصة والعامة **الإلحاد»**؛ ولهذا -يعني- يجب أن تكون محاربته في أَوْلى أوليات الأمور التي تُحارَب ويُسعَى في قَطْع دابره؛ لأنَّه من أعظم الأمور وأضرِّها على الناس، وإذا أُريد الفتك في بلد في أمنه ورخائه واطمئنانه بُثَّ فيه دعاية الإلحاد العظيمة الخبيثة التي شرُّها شرٌّ مستطير.

فيقول: (**أنَّ كثيرًا من الكتَّاب العصريين والسياسيين الذين يسعون في معالجة كثيرٍ من مشاكل الحياة ويطلبون حلَّها من جميع النواحي، ومشكلة الإلحاد الذي جَرَفَ بتيَّاره أكثر الناشئة لم يسعوا في حلِّها ومداواتها بالرجوع إلى الإيمان الصحيح واليقين النافع**)؛ والشيخ -رحمة الله عليه- له رسالة قديمًا عَقَدنا في هذا المكان لقراءتها بعض المجالس عنوانها **«الدِّين الصحيح يحُلُّ جميع المشاكل»**؛ رسالة عجيبة ونافعة جدًّا **«الدِّين الصحيح يحُلُّ جميع المشاكل»**؛ منها هذه المشكلة، مشكلة تتعلَّق بالإيمان، وما يضاد الإيمان كيف تُحَل هذه المشكلة، وأنَّ هذا لا يُحَلُّ إلَّا بالدِّين الصحيح الذي هو وَحْي الله ودِينه وتنزيله على عباده.

يقول: لم يسعوا لمداواتها (**بالرجوع إلى الإيمان الصحيح واليقين النافع والصلاح المُطلق من جميع الوجوه**).

المتن:

«بل تَرَكوهم في ضلالهم يعمهون وفي غيِّهم يتردَّدون، وازدادت المشاكل التي يريدون حلَّها مشكلاتٍ أخرى تعذَّر حلُّها كما هو المأمول، فكلُّ مشكلات الحياة إذا لم تُبنَ على الإيمان والدِّين الصحيح ازدادت تعقُّدًا

وعظُمَ ضررها وبَعُدَ خيرها، فلو أنَّهم أسَّسوا معالجاتهم المتنوِّعة على الدِّين الصحيح ، ووجَّهوا النشء إلى عقيدته والتخلُّق بأخلاقه؛ لأثمَرَت مساعِيهم كل زوجٍ كريم، ولتوجَّهَت الوجوه والأعمال إلى الخير والصلاح، وانصرفت عن الشر والأضرار والأعمال القِباح؛ فالفساد لا يسود إلَّا إذا عُدِمَ الإيمان الذي يُنافِيه ولا يُجامعه».

الشرح:

وإذا عُدِمَ الإيمان وُجِد كل فساد ووُجِد كل شر؛ لأنَّ صلاح الناس واستقامة أمرهم ورَغَدَ عَيْشهم وتحقُّق الطمأنينة لهم إنَّما هي بالإيمان ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة النحل، الآية:٩٧].

ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ الكريم رب العرش العظيم أن ينفعنا أجمعين بما علَّمنا، وأن يزيدنا علمًا وتوفيقًا، وأن يُصلح لنا شأننا كلَّه وألَّا يكِلْنا إلى أنفسنا طرفة عين؛ إنَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبُنا ونعم الوكيل.

جزاكم الله خيرًا!

شرح الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين

للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه اللّه

من الدرس (٧) إلى والدرس (١٠)

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٢/٠٤/٠٩ هـ

(المجلس السابع)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد..

فيقول العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتابه: [**الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين**]:

الوجه التاسع والثلاثون: أن يُقال لهؤلاء الملاحدة الماديين: من الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة والكثيرة؟ ومن الذي أحكمها هذا الإحكام البديع؟ ومن الذي نظم حركاتها العجيبة التي تحار الأفكار في حسنها وحسن نظامها؟ فيستجيبون: إن هذا كله أثر المصادفة، وأعمال الطبيعة العمياء التي ليس عندها علمٌ ولا قدرة، ولا إرادةٌ ولا غيرها من الأنصاف، وهذا قولهم الذي صرحوا به، واقتدوا فيه بالمتمردين من أئمتهم الضالين؛ فحينئذٍ يتضح لك أن عقول هؤلاء أقرب إلى عقول المجانين منها إلى عقول الصبيان الذين لا يعقلون، فلو تُركت هذه العوالم العظيمة ساعةً واحدة، بل لحظةً واحدة للمصادفة والفوضوية، لزالت السماوات والأرض واختبطت العوالم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [سورة فاطر، من الآية: ٤١].

الشرح:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد..

في هذا الوجه بيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ دلالةً أخرى من وجوه الدلالات في إبطال قول الملحدين، دعوتهم إلى النظر في هذا الإحكام والإتقان لخلق هذا العالم بهذه الدقة المتناهية، والإحكام البالغ، والانتظام العجيب، فإن هؤلاء يُدعون إلى النظر في هذا الإحكام، والاتقان لهذا العالم ويُقال من خلق هذا الخلق المتقن البديع العظيم؟
فجوابهم المنبني على عقيدهم الفاسدة: أن هذا إنما هو أثر المصادفة وأثر الطبيعة، هذا الإحكام البالغ الدقيق في العالم كله بانتظامه العجيب، كل ذلك أثر المصادفة وأثر الطبيعة، مع أن هؤلاء لا يقبلون دون هذا بقليل أن يُقال أنه أثر المصادفة أو أثر الطبيعة، لكن فساد العقول جعل أقوالهم مثل ما قال الشيخ رحمة الله عليه شبيهًا

تمامًا بأقوال المجانين الذين لا عقول لهم، وإلا كيف يصح من عقلٍ مستقيم، أو من ذي لُبٍ قويم أن يقول مثل هذا القول! فالحاصل أن هذا الإتقان والدقة البالغة، والإحكام في الخلق، وانتظام هذه المخلوقات في سيرها وحركتها، فيه الدلالة البينة أن هذا من تقدير العزيز العليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي أحكم كل شيءٍ خلقه، وأحسن كل شيءٍ خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صنع الله.

والأمر مثل ما ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى لو تُركت هذه العوالم العظيمة ساعة لو تركت ساعةً واحدة، بل لحظةً واحدة للملاحظة والفوضوية التي يدعونها هي الموجدة، وأن هذا أثر من آثارها، لو تُرك هذا لحظةً واحدة لهذه المصادفة، أو الطبيعة المزعومة عند هؤلاء لأضطرب العالم، اصطدم بعضه ببعض، وارتطم بعضه ببعض، وهلك كل من فيه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [سورة فاطر، من الآية:٤١]، فهذا الاتقان في العالم خلقًا وتقديرًا وتدبيرًا، والإحكام في إيجاده هو شاهدٌ من شواهد الوحدانية، ودليلٌ على خالق هذا الكون ومبدع هذا العالم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المتن:

قال: وإذا أورد عليهم بعض الإيرادات الصحيحة المبطلة لقولهم؛ أجابوا بأنه يحتمل كذا ويحتمل كذا، احتمالاتٌ في غاية الضعف والوهى، فيا عجبًا لمن اغتر باحتمالات عقولٍ قد تبين سفاهة أهلها وجراءتهم وهجومهم على أشرف العلوم وأعظم الحقائق؛ فأبطلوها وأنكروها.

الشرح:

يعني مثل ما قال الشيخ رحمة الله عليه عندما تورد عليهم الإيرادات الواضحة البينة الداحضة القاطعة، ما عندهم إجابات؛ إلا مثل هذه المراوغة التي هي مسلك من مسالكهم، يحتمل كذا ويحتمل كذا، يعني يتهربون ويوردون على الدليل احتمالات محاولةً منهم في إضعاف الدليل البيِّن الظاهر قوي الدلالة.

المتن:

ولا يغرنك كما غرهم مهارتهم في بعض علوم الهندسة، والطبيعة، والمخترعات الصناعية؛ فإنها لا تغني من الحق شيئًا، ولا تدل على فضل أهلها الفضل الحقيقي ولا شرفهم، ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٩٦-١٩٧]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا

وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[سورة الأحقاف، من الآية:٢٦].

الشرح:

هذا تنبيه غاية في الأهمية ينبه عليه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ألا يغتر المرء العاقل بما أوتي هؤلاء، أو بعض هؤلاء من علوم دنيوية برعوا فيها وأتقنوها؛ كالطب مثلًا، أو الهندسة، أو غير ذلك من العلوم الدنيوية والصناعات الحديثة والمهارة فيها أو نحو ذلك، لا يغتر المرء بذلك، فهذه أشياء عُجلت لهم في الحياة الدنيا، وأما الآخرة فهم عنها غافلون وليس عندهم منها خبر، ولو سُئل حذاق هؤلاء وأذكياءهم عما خُلقوا لأجله، وأوجدوا لتحقيقه؛ لما عرفوا شيئًا، ولا عندهم خبرٌ من ذلك ولا يعرفونه، فالغاية التي وجدوا فيها أو أوجدوا فيها في هذا العالم لا يدرون ما هي، ولا يعرفون الغاية من الخلق، عرفوا علومًا، أو بعض العلوم الدنيوية برعوا فيها واتقنوها، فلا يغتر الإنسان بذلك، لا يغتر الإنسان بذلك، ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾[سورة آل عمران، من الآية:١٩٦-١٩٧]؛ مهما كان مما أوتيه لا يغتر الإنسان به، والمعنى المقصود بذلك ألا يغتر الإنسان بدنيا هؤلاء فيأخذ دينهم الضائع، وعقائدهم الفاسدة، وأديانهم الباطلة المتلوثة، لا يغتر فهذه دنيا بحته تعلموها، لكن أمور الآخرة أمور الدين حقيقةً ما عندهم منها أي خبر، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[سورة الروم، من الآية:٦-٧].

المتن:

والله تعالى جعل للعقول حدًا لا تتعداه ولا تتمكن من مجاوزته.

الشرح:

هم لم يلتزموا بحد العقل، يعني عقلهم حدوده مثل ما توصلوا إليه، العلوم الدنيوية، لكن أدخلوا عقلهم هذا القاصر في المغيبات، وزعموا أن عقلهم حكم بانتفاء وجود رب، أو وجود الملائكة، أو اليوم الآخر، أو غير ذلك كل ذلك جحدوه؛ لأنه بزعمهم عقلهم أو ميزانهم العقلي حكم بذلك، فلا يؤمنون بذلك؛ فأدخلوا عقولهم في تجاوزٍ لحدود عقولهم، في حدٍ تجاوزوا فيه حد العقل، العقل له حدود لا يتعداها ولا تتمكن من مجاوزته، فلما حصَّلوا مثل هذه العلوم واغتروا بها سلطوها على علوم الدين، علوم الآخرة؛ فنفوا، وجحدوا، وكذبوا، وتكبروا، وردوا الحق الواضح.

المتن:

قال: وما أدركته وتدركه من المعلومات فهو قليلٌ جدًا في جانب ما لا تعلمه من هذه العوالم، فكيف تتجاوز هذه العوالم التي قصُرت العقول عن إدراكها حتى تجحد الرب العظيم الذي هذه العوالم كلها داخلةٌ في ملكه وتصريفه وتدبيره؟! ثم ترجع إلى هذه المخلوقات وما فيها من الحوادث؛ فتدعي أنها وليدة المصادفة من غير خالقٍ خلقها، ولا محدثٍ أحدثها، ولا حكيمٍ ابتدعها ونظمها، سبحانك هذا بهتانٌ وجرمٌ عظيم: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ [سورة مريم، من الآية:٩٠-٩١]؛ فكيف بمن جحده ونفاه بالكلية؟

الوجه الأربعون: أن يُقال: من أكبر الخيانات للعلم والحقيقة أن تكون بحوث علماء الطبيعة والمواد والعناصر مبتورةً مقطوعة الصلة بالله وبدينه، فإنهم يبحثون في الموجودات بحوثًا ضافيةً كثيرة، ويستخرجون منها فوائد كثيرة، ولكنهم مع ذلك لا نجدهم يذكرون الله فيها، ولا يقدرون قدر خالقها ومدبرها، ولا يشكرون من أنعم بها، ولا يذكرون مشيئة الله وإرادته وقدرته فيها حتى يظن الظانون، بل يظن كثيرٌ من هؤلاء الباحثين أن هذه الموجودات التي وقع البحث فيها هي حاصل الوجود لا وجود سواها، فيقعون في الجحود والإنكار الصريح، ويصيرون في خبطٍ وخلطٍ من جهة العقيدة الصحيحة: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ [سورة ق، من الآية:٥].

الشرح:

هذا أيضًا يعني بيان عظيم من الشيخ وهو وجه من الوجوه التي يُرد بها على هؤلاء، وهو الكلام عن الخيانة العلمية، والخيانة في العلم من أشد الخيانات، وهي أنواع كثيرة، الخيانة في العلم أنواع كثيرة جدًا يتحدث عنها العلماء، لكن ليس هناك في الخيانات العلمية أشد خيانةً مما وقع من الواقع من هؤلاء الملاحدة، فأشد ما تكون الخيانة العلمية هي الخيانة التي حصلت من هؤلاء، ولهذا علمهم كله خيانة؛ لأن الخيانة من صورها أن يجحد الباحث الأصل والأساس، إذا جحد الأصل والأساس الذي بُني عليه الأمر، وقامت عليه الأمور، وأنكر ذلك ولم ينسب هذه الأمور لمسديها والمتفضل بها والمنعم، هذه أكبر خيانة.

ولهذا يقول الشيخ: (**من أكبر الخيانات للعلم والحقيقة أن تكون بحوث علماء الطبيعة والمواد والعناصر مبتورةً مقطوعة الصلة بالله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ)؛ بينما أهل الإيمان في كل خطوة من خطواتهم العلمية، وبحوثهم، وما يتوصلون إليه، وما يستنتجونه، وما يخلصون إليه من أمور العلم إلى غير ذلك في كل ذلك يقولون: الحمد لله،

الفضل لله، هذا فضل الله، هذا تيسير الله، هذه نعمة الله ومنة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بخلاف من ذكرهم الله في القرآن بقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[سورة النحل، من الآية:٨٣]؛ أي: بنسبتها إلى غير المنعم، وإضافتها إلى غير المتفضل.

فهؤلاء فيهم أكبر الخيانات العلمية من جهة أن بحوثهم وعلومهم مبتورة الصلة بالله وبدينه، وإلا فهذه كلها مخلوقات الله، والفضل فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والمنَّ منه -جل في علاه-، فهي مبتورة الصلة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبدينه، (**فإنهم يبحثون في الموجودات بحوثًا ضافيةً كثيرة، ويستخرجون منها فوائد كثيرة، ولكنهم مع ذلك لا نجدهم يذكرون الله فيها، ولا يقدرون قدر خالقها ومدبرها، ولا يشكرون من أنعم بها، ولا يذكرون مشيئة الله وإرادته وقدرته فيها**)؛ كل هذا لا يذكرون شيئًا منه، فهذه أعظم الخيانات، وهذا فضل الله، وهذه مخلوقات الله، وهذا إنعام الله، وبحوثهم دقيقة جدًا في بعض هذه المخلوقات، لكن هي مبتورة الصلة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: (**حتى يظن الظانون، بل يظن كثيرٌ من هؤلاء الباحثين أن هذه الموجودات التي وقع البحث فيها هي حاصل الوجود لا وجود سواها**)؛ يعني: يجحدون ما سواها من المغيبات، حاصل وجود هذا هو ليس هناك موجود سواها تحت هذه الجملة، يجحدون وحدانية الله، ويجحدون الجنة، والنار، والملائكة، وغير ذلك من أصول الدين.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: فإهمال أصل الأصول من علمهم وذكرهم وتوجههم وتوجيههم أضلَّ خلقًا كثيرًا، فلو أنهم قاموا بما يجب عليهم وعلى الخلق من بناء المعلومات على حقائقها وأصولها والموجودات على موجدها، والنعم على مسديها والمتفضل بها؛ لهدوا إلى صراطٍ مستقيم، وسلموا من الخيانة وطرق الجحيم.

الشرح:

ولهذا ميز الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أهل الإسلام وهذه من نعمة الله عليهم أن بحوثهم قائمة على حمد الله، أن بحوثهم وما يتوصلون إليه قائمة على حمد الله، ومتأسسة على شكره والاعتراف بفضله ومنته، وإضافة الأمور إلى مشيئته، فتجد على لسانه إن كان متكلمًا، أو في كتابه إن كان كاتبًا، أو في بحوثه إن كان محررًا لبحوث يتحدث أن هذا فضل الله، وأن هذا بمنَّة الله، ويحمد لله، ويشكر الله، فهي ليست مبتورة الصلة بالله، أما هؤلاء فبحوثهم كلها، واختراعاتهم كلها، وما يتوصلوا إليه من علوم إلى غير ذلك كل ذلك مبتور الصلة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا مثل ما وصف الشيخ: يعد خيانة؛ بل هو من أشد الخيانة في العلم.

المتن:

الوجه الحادي والأربعون: أن الله أيَّد رسوله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمرين عظيمين قائمين إلى يوم القيامة، كل واحدٍ منهما يشتمل على براهين كثيرةٍ قطعيةٍ تدل على وحدانية الله وصدق رسوله.

أحدهما: شهادة الله له.

والثانية: هذا القرآن.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٩].

الشرح:

هذا الوجه الحادي والأربعون من وجوه الرد على هؤلاء: (**أن الله أيَّد رسوله محمدًا** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بأمرين عظيمين قائمين إلى يوم القيامة، كل واحدٍ منهما يشتمل على براهين كثيرةٍ**)؛ يعني هذان الأمران هما بمثابة النوع الذي يدخل تحته أفراد من البراهين الكثيرة المتعددة، فأيده الله بأمرين عظيمين:

الأول: (**شهادة الله له**)؛ وسيوضح لك الشيخ ذلك.

والأمر الثاني: أيده بالقرآن، هذا القرآن المعجزة الخالدة الباقية إلى قيام الساعة.

وهذان الأمران اللذان أيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهما نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جُمع في هذه الآية التي ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٩]، هذه الأولى ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ هذه الثانية، ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ هذه الأولى، الأمر الأول الذي أيد الله به نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ هذه أيضًا شهادة أخرى أيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها، أو أمرٌ آخر أيد الله به نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثم شرع الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يوضح هذين الأمرين.

المتن:

فأما شهادته لرسوله ولما جاء به فبقوله الذي أنزله في كل كتابٍ وعلى لسان كل رسول، وشهد به وتيقنه أهل البصائر والألباب، وبفعله تعالى بما أيده به من القوة والنصر والتأييد، وإظهار دينه على الدين كله، وبما أنزله في شرعه من الأخبار الصادقة النافعة، والحكم والأحكام، والهداية والإرشاد؛ للصلاح المطلق في جميع الأمور، فما بقي خيرٌ إلا أمر به، ولا شرٌ إلا نهى عنه وحذر، ولا طيبٌ إلا أحله، ولا خبيثٌ إلا حرمه، وذلك في الأصول والفروع، وبما جبل رسوله عليه من الأخلاق الحميدة التي هي أعلى الأوصاف وأكملها، فجمع الله

فيه وله من الخير والأوصاف الجميلة ما كان متفرقًا في الكُمَّل من الخلق، وفي جميع الشرائع، وهي مشاهدةٌ محسوسة يعترف بها المؤمنون به ويعرفها غيرهم، لا يمتري فيها إلا جاهلٌ أو مكابر.

الشرح:

هذا الأمر الأول الذي هو شهادة الله له؛ أي: لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه الشهادة مثل ما تقدم في كلام الشيخ يدخل تحتها براهين كثيرة، كلها من تأييد الله لرسوله -صلوات الله وسلامه عليه-، ومن هذه الأنواع ما فصله رَحِمَهُ اللَّهُ هنا أيده بالوحي وأيده بما منَّ الله عليه به من القوة والنصر والتأييد وإظهار الدين، أيده بما أنزله في شرعِه من الأخبار الصادقة النافعة والحكم والأحكام، وأيده بأن شريعته كلها خير لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر، قيل لأحدهم: بما عرفت صدق هذا الرسول؟ قال: ما وجدت أمر بشيء، فقال العقل: ليته لم يأمر به، ولو نهى عن شيء وقال: العقل ليته لم ينهى عنه، فهذا كله من ذلك، أيضًا طيب أخلاقه وآدابه وما جبله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليه من الخلق الكامل والأدب العظيم، هذه كلها من شهادة الله لرسوله تأييدًا له.

وأيضًا يدخل في هذا ما دل عليه قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[سورة الحاقة، من الآية:٤٤-٤٦]؛ ومثلها أيضًا قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾[سورة الشورى، من الآية:٢٤]؛ فهذه أيضًا فيها إشارة إلى التأييد؛ لأنه لو كان كاذبًا في أنه مرسل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما حصل هذا التأييد، ولما حصل هذه الشهادة له، ولما حصل هذا التمكين له، بل الذي يحصل هو الذي ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[سورة الحاقة، من الآية:٤٥-٤٦]؛ لكن إبقاءه، والتمكين له، والنصر، وعلو دينه، ورفعة أمره، إلى غير ذلك هذه كلها من الشهادة لرسوله، والتأييد له -صلوات الله وسلامه عليه-.

الأمر الثاني: القرآن.

المتن:

وأما شهادة هذا القرآن فإن الله منذ أنزله إلى أن تقوم الساعة قد تحدى به الإنس والجن، وأنهم لم يأتوا ولن يستطيعوا أن يأتوا بمثله فيما يقدحون به في هذا الدين؛ لبلاغته العظيمة، وحسن أسلوبه، وإخباره بالغيوب، وما حكم به من الأحكام الأصولية والفروعية، وما هدى وأرشد إليه من الصلاح والفلاح والكمال الديني والدنيوي، وما حذر عنه من الشر والأضرار والعقوبات العاجلة والآجلة، وما كان فيه من الأحكام التي تصلح لكل زمانٍ ومكان، وما شرع من الحقوق العادلة بين الخلق أفرادهم وجماعاتهم، إلى غير ذلك من آيات القرآن

التي لا يمكن أن يعارضها علمٌ صحيحٌ ولا عملٌ نافع، وكل خيرٍ لا شر فإنه من أحكامه ومما دل عليه، فليأت المنكر بمثالٍ واحدٍ صحيحٍ خارجٍ عن هذا الأصل.

فمجرد وقوف الناظرين على هاتين الشهادتين العظيمتين.

الشرح:

هذا ما يتعلق بالأمر الثاني، وهو هذا القرآن المعجزة الخالدة الباقية إلى قيام الساعة، فإن هذا القرآن بما حوى من هدايات، وبما كان عليه من اتقان وإعجاز وعظمة وكمال، شاهدٌ على أنه منزل من حكيمٍ حميدٍ، وهو كتابٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [سورة فصلت، من الآية:٤٢]؛ فهذا القرآن معجزة خالدة باقية إلى قيام الساعة، وفي القرآن جاءت آيات فيها التحدي، وكان التحدي لفصحاء العرب وبلغاءهم، أن يأتوا بمثله أو بصورة، وهذا التحدي باقي إلى قيام الساعة، مثل ما عرض الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى وبيَّن هذا التحدي شامل لبلاغة القرآن، وكمال مبانيه، وجمال معانيه، وانتظام أحكامه، وتجانس دلالاته وهداياته، ولا تعارض بينه ولا تناقض، فهذا أمرٌ أيَّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به نبيه -صلوات وسلامه وبركاته عليه-، وهو معجزةٌ باقية خالدة إلى قيام الساعة.

المتن:

فمجرد وقوف الناظرين على هاتين الشهادتين العظيمتين، والتأمل بما اشتلمتا عليه من البراهين القاطعة على ما لله من الوحدانية، وصفات الكمال والجلال كله، وعلى صدق ما جاء به الرسول، يكفي وحده في إبطال ما ناقضته من أقوال الملحدين؛ لأنه إذا اتضح الحق وعُلم يقينًا أن ما خالفه باطل، فماذا بعد الحق إلا الضلال: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سورة سبأ، من الآية:٦]؛ وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة فصلت، من الآية:٥٣].

فالحمد لله على ما بيَّنه لعباده من الآيات التي لا تزال مشاهدة ولا تزال متصرفةً متنوعة، شاهدةً بصدقه وصدق رسله، وكذب الكافرين به المكذبين لرسله.

الوجه الثاني والأربعون: النظر الصحيح إلى ما يأمر به الدين والإيمان من تلقي أحوال الحياة والتطورات المتنوعة، وما يتلقاه أهل الإلحاد والإيمان بالمادة والطبيعة، فإنه لا بد للأفراد والجماعات من حصول نعمٍ

ومسارٍ ومحنٍ ومضار، فالإيمان والدين الصحيح يأمر عند النعم والمسار بشكر المنعم والثناء عليه بها، والاستعانة بها على مقاصد الحياة الدينية والدنيوية، وأداء حقوق النعم من كل وجه، وعند المكاره يأمر بالصبر والرضا والاحتساب ورجاء الأجر، ومع السعي في دفعها قبل نزولها، وتخفيفها أو دفعها بعد نزولها، فيكتسب المؤمن الخير وراحة القلب في كل الحالات وهذه هي الحياة الطيبة مع ما يرجو ويطمع فيه من الثواب العاجل والآجل.

أما الملحدون فلما كانت الدنيا هي غايتهم؛ لها يعملون ولها يطلبون، ولا غاية لهم سواها، ولا إيمان لهم بغيرها؛ فإنهم يتلقوْن التطورات المختلفة كما تتلقاها البهائم بقلوبٍ جشعة، ونهمٍ كنهم الأنعام أو أعظم؛ لا يشكرون على النعماء، بل يكفرون ويبطرون ويطغون، ولا يصبرون على المحن، بل يجزعون ويألمون كما تألم البهائم، فتجتمع عليهم الآلام الظاهرة والآلام القلبية الباطنة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾[سورة محمد، من الآية:١٢]؛ فآثار الإيمان الصحيح في العاجل والآجل خيرٌ وسعادةٌ وفلاح، وآثار الجحود شرٌ وضرٌ وعواقب وخيمة.

الشرح:

هذا الوجه الثاني والأربعون، وهو وجه عجيب جدًا، وعظيم في إبطال الإلحاد حقيقة جدير بالتأمل؛ لأنه كلام متين، والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينوع ويُبدع في بيان الوجوه العظيمة المتينة التي يُبطل بها الإلحاد، فيذكر هنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الحياة الدنيا كما هو معلوم ومتقرر عند الجميع فيها تطورات فيها تقلبات، ولهذا يجد المرء نفسه متقلب بتقلب هذه الحياة فيما يحصل؛ مرةً النعمة، ومرةً مصيبة، ومرةً مرض، ومرةً صحة، ومرةً غنى، ومرةً فقر، وأشياء كثيرة يتقلب فيها في الحياة.

النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لخص حال المسلم مع هذه التطورات والتقلبات تلخيصًا عجيبًا في حديث واحد لكنه عظيم في بيان وصف حال المؤمن مع هذه التطورات والتقلبات التي في الحياة، قال: «**عَجَبًا لأمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خيْراً لَهُ**»، وذلك لا يكون إلا للمؤمن، هذا المسلك هذا الطريق هذا النهج لا يكون إلا للمؤمن، المؤمن في فوزٍ دائم، وربحٍ مستمر في سراءه وضراءه، في شدته ورخاءه، في غناه وفقره، في صحته ومرضه، في جميع تقلباته؛ لأنه في شدائده فائزٌ بثواب الصابرين، وفي رخاءه ونعماءه فائزٌ بثواب الشاكرين، هذه حال المؤمن، والمؤمن يرد جميع التطورات والتقلبات التي تحصل له في الحياة إلى هدايات الدين، فإن كانت نعمة شكر المنعم، وحمده، وأضاف النعمة

إليه، وقال: "هذا فضل الله، وهذه منَّه الله، نحمد الله، نشكر الله"، وإن كانت مصيبة، قال: "قدر الله وما شاء فعل"، ورجا ما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصبر واحتسب، ورجا موعود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا حال المؤمن في هذه التطورات.

انتقل وانظر إلى حال الملحد كثير من الملاحدة في شدائد عظيمة مرت بهم أنهوا حياتهم بالانتحار، كثير منهم ما أستطاع أن يتحمل؛ فأنهى حياته بالانتحار، وهذا معروف في تاريخ هؤلاء وكثير جدًا، أو بتعاطي المخدرات التي تُذهب العقل وتُتلفه وتُفسده أو غير ذلك من الوسائل، فالذي يُقارن بين حال أهل الإيمان، وحال أهل الإلحاد في هذه التطورات المتنوعة وما يتلقاه المرء في هذه الحياة يجد الفرق الشاسع بين هؤلاء وهؤلاء.

أحد الكفار قديمًا أخذ رحلة في الجزيرة، وأرخها في كتابٍ له، فمر في صحراء فيها بادية، عندهم أغنام وخيام وأشياء بسيطة، جاءت ريح شديدة وقت رحلته تلك؛ فعصفت في الخيام وفرقت الماشية، وأصبحوا ما وجدوا خيامهم، يقول فسمعتهم يقولون: قدر الله وما شاء فعل، ونفوسهم مطمئنة وراضية، هذه لو تحصل لهؤلاء أمر آخر مختلف، ربما يُنهي حياته مباشرة في مثل هذا الموقف.

فالحاصل أن الله عَزَّوَجَلَّ أكرم أهل الإيمان بكرامات عظيمة جدًا؛ لأن الإيمان يهدي إلى كل خير، ولهذا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه العظيم: [**التوضيح والبيان لشجرة الإيمان**]، وهو يُعدد ثمرات الإيمان، ذكر منها ثمرة عظمية أنصح بالرجوع إليها، أن الإيمان مفزع للمؤمن في كل أحواله، مفزع له في الطاعة، مفزع له في المعصية، مفزع له في المصيبة، مفزع له في النعمة الحادثة المتجددة إلى غير ذلك، المؤمن يفزع إلى إيمانه وينظر إلى هدايات الدين؛ فتهديه إلى كل خير وفضيلة ورفعة وفوزٍ وفلاحٍ في الدنيا والآخرة، أما هؤلاء ما عندهم شيء، حتى من برع منهم في علوم الدنيا في مثل هذه الأمور ما عنده شيء، إذا جاءته مصيبة شديدة يفزع إلى مخدرات، أو يفزع إلى قتل نفسه، أو أشياء من هذا القبيل، خلاف المؤمن الذي أعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ طمأنينة الإيمان، ولذة الصلة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وحسن الإيمان بالقضاء والقدر، وحسن التوكل على الله، وكمال الالتجاء إلى الله والتعظيم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المتن:

قال:

الوجه الثالث والأربعون: يقول الملحدون: الترقي شاملٌ لكل شيء، وقصدهم بذلك إبطال الأديان، وأن أفكارهم المنحرفة عن الحق ما زالت تترقى حتى في نبذهم الدين واختيارهم للجحود.

الشرح:

هذا أسلوب من أساليب هؤلاء في رد الدين وأصوله، وما جاءت به الرسل -عليهم صلوات الله وسلامه-، يقولون: الدنيا في تطور وترقي وتقدم، فما نرجع للوراء -يقولون-، وأن نكون متخلفين، ويُسمون ما جاءت به الأنبياء تخلف ورجعية ورجوع إلى الوراء، نحن في القرن كذا نرجع إلى قرن كذا، قرون كثيرة نرجع إلى الوراء، هذه رجعية هذا تخلف، فهذه طريقة من طرق هؤلاء التي بها يدخلون على العقول السفيه، العقول الساذجة في تلقي ما هم عليه، فيقولون الدنيا في ترقي، وفي تطور، وفي تقدم وحضارات، ما لنا ومال التخلف والرجعية، هكذا يقولون.

المتن:

وهذا تكذبه الأديان كلها، والواقع يشهد بكذبه، وأهل العقول الصحيحة متفقون على أن الترقي المشاهد الآن إنما هو منحصرٌ في الصناعات والمخترعات وما يحدث عنها من الأمور المادية، وأما ترقي الأرواح والأخلاق فإنه بالعكس.

الشرح:

هذا كلام عظيم جدًا، يقول: تتحدثون عن الترقي، الترقي ما هو؟ الترقي إما في حضارات الدنيا ومتعها هذا موجود، يعني موجود أشياء عجيبة ما كان يظن أن توجد، ووجدت خاصة في زماننا هذا وجد أشياء عجيبة جدًا، عجيبة للغاية، فهذا تطور في هذا الجانب، في الصناعات، في الحضارات، في مثل هذه الأشياء، لكن تطور الأرواح والقلوب هل تلازم مع هذا التطور الذي يتحدثون عنه، وتزايد في القلوب، وتمكن منها الرقي للأرواح والقلوب إلى طمأنينتها إلى ما فيه سعادتها وفلاحها؟ فيقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الترقي المشاهد الآن هو في الصناعات والمخترعات وما إلى ذلك، أما ترقي الأرواح والأخلاق فإنه بالعكس، ترقي القلوب والأرواح فإنه بالعكس، فإن ..

المتن:

فإن المادة التي يشترك فيها البر والفاجر والمؤمن والكافر قد ترقت ترقيًا عظيمًا وخصوصًا في هذا القرن، وأما الأديان..

الشرح:

الشيخ ما شاهد الذي شاهدناه ولا رأى الذي رأيناه.

المتن:

وأما الأديان والأخلاق فإنها في هذا الوقت هبطت هبوطًا عظيمًا، ولهذا لما كان النوع الأول خاليًا من الدين والإيمان صار هذا الترقي الدنيوي الصناعي ضرره كبيرًا من وجهين.

الشرح:

هذان وجهان عظيمان جدًا يُبيِّن أن هذه الصناعات والحضارات لما خلت من الترقي بالقلوب والأرواح، صار له مضرة عظيمة، وهي من وجهين كما ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الأول؟

المتن:

أحدهما: أنه صار سببًا لاغترار كثير من الخلق، وظنوا بجهلهم أن الترقي الدنيوي دليلٌ على أن أهله أولى بكل خيرٍ من غيرهم.

السرح:

سبحان الله! هذا يعني كلام يُحدث فيه عن واقع من زمانه، وهو موجود حتى في زماننا، بعض الناس انبهروا بهذه الحضارات، والصناع فيها، والحذاق فيها، انبهروا فأخذوا يتلقوْن عنهم كل شيء، ويأخذون عنهم كل شيء، ويُسلمون بكل ما يأتي عن هؤلاء، ويظنون أن ثمة تلازم بين الرقي بالصناعة والرقي بالقلب والروح، فصاروا يأخذون عنهم كل شيء إلى درجة أن بعضهم ترك الدين، واعتبر أن الدين يُقيد ويعوق عن مثل هذه الحضارات، وهذا من الكذب والافتراء على هذا الدين، والشيخ رحمة الله عليه له رسالة في هذا الباب قيمة، وهو أن الدين لا يتنافى مع الصناعات، لا يتنافى معها ولا يمنع من الحضارات المفيدة النافعة، لكن أن تكون هي هم الإنسان ومبلغ علمه، ويترك دينه، ويترك الغاية التي خُلق لأجلها وأوجد لتحقيقها، فهذا مكمن الداء، وموضع البلاء، وموطن الشر.

المتن:

وجهلوا بل ضلوا ضلالًا مبينًا، فإن الإنسان قد يكون من أمهر الخلق في أمور الطبيعة، وهو من أجهل الخلق في الدين والأخلاق والأمور النافعة في العاجل والآجل.

الشرح:

صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قد يكون في هؤلاء ما هو ماهر من أمهر الخلق في أمور الأمور الدنيوية، لو قيل له: من ربك؟ ما يعرف، ولماذا خلقك؟ ما يعرف، أهم الحقائق، وأهم العلوم وأنفعها للعبد في الدنيا والآخرة ما عنده خبر منها، ولا يدري بها.

المتن:

الوجه الثاني: أن هذه المخترعات -حيث خلت من روح الدين ورحمته وحكمته- صارت نكبةً عظيمةً على البشر بما يترتب عليها من الحروب التي لا نظير لها، والقتل والتدمير وتوابع ذلك، وعجز ساستها وعلماؤها أن ينظموا للبشر حياةً مستقرةً عادلةً طيبة، بل لا يزالون ينتقلون من شقاءٍ إلى شقاءٍ آخر، وهذا أمرٌ حتم لا بد منه، وجريان الأحوال يدل عليه، فالخير كله في الدين الصحيح، والشر كله في الإنكار والجحود، -والله أعلم-.

الشرح:

الآن صنعوا يعني متفجرات وأشياء إذا فُعِّلت أهلكت خلقًا، وأصبح الناس في رعبٍ منها، من صنعها ومن صُنعت للقضاء عليه، أو للإجهاز عليه، وأصبحت حال الناس في شقاء، وينتقلون من شقاءٍ إلى شقاء، ومن خوفٍ إلى خوف، ومن أمورٍ شديدة عليهم إلى أمورٍ أشد، وإذا كانت مثل هذه الصناعات بيد أيضًا الشخص لا يخاف الله، وليس عنده خوف من الله، ولا عنده مراقبة للبعث ولا الجزاء ولا الحساب ولا إلى غير ذلك؛ فالمصيبة أيضًا عظيمة جدًا وخطيرة جدًا.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يحفظ أهل الإيمان، وأن يُديم عليهم أمنهم ورخاءهم، وأن يرد كيد الأعداء، وأن يصرف عن المسلمين في بلدانهم الشرور والفتن، وأن يرزقهم الأمن والأمان والسلامة والإسلام بمنِّه وكرمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يؤيد هذا ويوضحه توضيحًا بينًا واقعًا.

الوجه الرابع والأربعون: وهو أن الماديين -رؤساءهم وعلماءهم- لا زالوا مكرسين علومهم وجهودهم وأعمالهم في حل مشكلات الحياة، وقد عجزوا عنها كل العجز، فكلما حلوا مشكلةً نتج عنها مشكلات، وكلما وجهوها من جهةٍ تبين فيها النقص والخلل والاضطراب، أما هذا الدين الإسلامي الذي جاء به محمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه هو الطريق الوحيد الذي تنحل به جميع مشكلات الحياة، واحدةً بعد الأخرى، وتزول به الشرور..

الشرح:

أنت عندك مشكلات؟

المتن:

نعم، تنحل به جميع مشكلات الحياة.

الشرح:

كل المواطن التي مرت قلت: "مشكلات"، وعندي "مشاكل" ونسختي هي الأصح، وإن كانت العبارة المعنى واحد، لكن في كل المواطن مشاكل.

المتن:

أما هذا الدين الإسلامي الذي جاء به محمدٌ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فإنه هو الطريق الوحيد الذي تنحل به جميع مشكلات الحياة، واحدةً بعد الأخرى، وتزول به الشرور والأضرار، وتحصل به الخيرات.

الشرح:

هذا الآن وجه آخر عظيم في إبطال الإلحاد، الحياة فيها مشاكل، مشاكل متنوعة، وهي تتطلب حلول، وتحتاج إلى حلول، فالشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ يتحدث عن الدين الإسلامي، وأنه هو الوحيد الذي يحُل جميع المشاكل، وللتذكير الشيخ رحمة الله عليه له رسالة في هذا الباب قيمة جدًا أسماها: **[الدين الصحيح يحُل جميع المشاكل]**، والذي ذكره هنا مشكلة العلم، ومشكلة الغنى والفقر، ومشكلة السياسات وغير ذلك، الذي ذكره هنا باختصار ذكره في ذلك الكتاب المشار إليها بالتفصيل.

المتن:

ولنذكر نموذجًا من المشاكل التي اضطرب فيها الخلق اضطرابًا عظيمًا ولا سبيل لهم إلى الراحة والاستقرار حتى يفيئوا إلى الدين، فمن أعظمها مشكلة العلم.

الشرح:

هذه الأولى، يعني الشيخ سيذكر أنواع من المشكلات ويوضح أن حلها إنما هو بالدين الصحيح، ذكر مشكلة العلم، ومشكلة الغنى والفقر، ومشاكل السياسات الكبار والصغار، ومشاكل الحقوق والمعاملات، ذكرها باختصار، لكن في الكتاب الآخر المشار إليه ذكرها مفصلة.

المتن:

قال: فإنه إذا صح صحت العقائد والأفكار، وصلحت الأعمال المبنية عليه، وقد كانت شريعة الإسلام تحض على العلم وترغب فيه، وتأمر بل تفرض على العباد أن يتعلموا جميع العلوم النافعة في أمور دينهم وفي أمور دنياهم، ومع حضها وترغيبها في العلوم فقد تكفلت ببيانها وتفصيلاتها، فقد بيَّن الله في كتابه وعلى لسان رسوله جميع ما يحتاجه العباد من علوم العقائد، والأخلاق، والأحكام، والأصول، والفروع، والعلوم المتعلقة بالأفراد والجماعات.

أما العلوم الدينية فقد فصلتها تفصيلًا بعدما أصلتها تأصيلًا، والعلوم الدنيوية أسست لها الأصول والقواعد، وهدت إليها وأرشدت لها العباد، فما من علمٍ نافعٍ إلا بينته، وبهذا يسير العلم الصحيح على الطريق المستقيم، ويتساعد علم الدين وعلم الدنيا وما يتعلق بالروح وما يتعلق بالجسد: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٩]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٤]؛ فجمع في هاتين الآيتين بين علم المسائل الصحيحة وهي الحق النافع، وبين علم البراهين والدلائل وهو هداية السبيل الموصلة إلى كل علم، المبرهنة عن جميع المعارف.

وأما الماديون فهم يخصون بالعلم؛ علوم الدنيا التي هي وسائل لغيرها، ويقدحون وينكرون العلوم الدينية التي لا تنفع علومهم بدونها ولا يترجح خيرها على شرها حتى تستند وتعتمد عليها، وبهذا تخبطت علومهم وبقوا في أمرٍ مريجٍ متناقضين، متضاربةٌ أقوالهم غير مستقرةٍ أفكارهم، فلم يحلوا مشكلة العلم بوجهٍ من الوجوه، بل علومهم القاصرة أطغتهم، واستكبروا بها عن علوم الرسل وعن الحق الصريح المبين.

الشرح:

لما ينظر الناظر في هذه المشكلة؛ مشكلة العلم يجد أن هدايات الدين أوصلت أهله إلى كل خير في باب العلم؛ سواءً العلم الديني الذي به صلة العبد بربه، ومعرفة الطريق الموصل إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبه ينجو من سخط الله وعقابه -جل في علاه-، ويفوز بعظيم ثوابه، وأيضًا من جهة علوم الدنيا، العلوم الدنيوية، ولهذا سبحان الله! تجد التكامل في أهل الدين، من يشتغل مثلًا بالطب أو غير ذلك من علوم الدنيا لا يستغني عن أهل الدين أهل العلم، لا يستغني عن أهل العلم بالشريعة؛ ولهذا تجد الصلة؛ هل هذا يجوز؟ لأن مثل ما قال الشيخ: "الشريعة أصلت الأصول وقعدت القواعد، وبينت الطريق"، فمن يدخل في علوم الدنيا يدخل وفق قواعد شرعية نظمت، هذبت، وضحت المسالك، بينت المسار، بينما أولئك لما دخلوا في علوم الدنيا دخلوها بدون

ضوابط، بدون قواعد، بدون تأصيلات، بينما المسلم فالدين حل هذه المشكلة بأنه جاء في الشريعة ضوابط عظيمة، وقواعد متينة ينتظم بها الأمر وتتحقق بها المصالح العامة للناس في هذه العلوم.

المتن:

ومن المشاكل: مشكلة الغنى والفقر، وقد تقدم أن هذا الدين حلها حلًّا تتم به الأمور وتحصل الحياة الطيبة، وأنه كما أمر بسلوك الطرق المشروعة في أسباب الرزق المناسبة لكل زمانٍ ومكانٍ وشخص، فقد أمر بالاستعانة بالله في تحصيلها، وأن تُجتنب الطرق غير المشروعة، وأن نقوم بواجبات الغنى المتنوعة، وكذلك عند حلول الفقر أمر بالصبر وتلقي ذلك بالتسليم وعدم التسخط، مع السعي في طلب الرزق بأنواع المكاسب والأعمال، ونهى عن البطالة والكسل الذي يضر في الدين والدنيا، ومع أمره بالصبر وفعل الأسباب الدافعة للفقر والمخففة له، فقد نهى عن ظلم الخلق في دمائهم وأعراضهم وأموالهم والتوثب على حقوقهم بغير حق، كما هو دأب الفقراء الذين لا دين لهم.

الشرح:

هذه حلول الشريعة لمشكلة الغنى وأيضًا مشكلة الفقر، فيجد الناظر أن الشريعة جعلت ضوابط عظيمة جدًا للغني في ماله، يسير عليها وينتهجها وتكون بركةً له في ماله ونماءً وزكاءً، وأيضًا جعل ضوابط للفقير كيف يتعامل مع الفقر، وما المسالك التي ينبغي أن يسلكها.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديثه هنا اختصر العبارة؛ لكنه في كتابه الآخر ذكر كلام متين جدًا، وأذكر أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تكلم كلام عن مشكلة الفقر في ذاك الحين أن يفرد وأن يُنشر على مستوى واسع في المناطق أو الأماكن الفقيرة؛ لأن الشيخ أرشد إلى أمور دقيقة جدًا ومهمة يحتاج فعلًا الفقير أن يقف عليها، وبوقوفه عليها يهتدي إلى أمور عظيمة تنفع نفعًا عظيمًا في حل هذه المشكلة؛ مشكلة الفقر، ذكر كلام متين عظيم جدًا في كتابه الذي أشرت إليه، حتى أنني أوصيت في ذلك أن تُجعل هذه التقريرات التي ذكرها مرفقة مع المعونات التي تقدم للفقراء؛ لأن من أعظم المعونة التي تقدم للفقير أن يُهدى له هذا الكلام العظيم الذي قرره الشيخ وبينه في حل هذه المشكلة؛ مشكلة الفقر.

المتن:

ومن ذلك مشاكل السياسات الكبار والصغار أمر بحلها، وذكر الطرق الموصلة إلى ذلك بفعل ما توضحت مصلحته وترك ما تبينت مفسدته، والمشاورة في الأمور المشكلة والمشتبهة في كل قليلٍ وكثير، وهذه أصولٌ لا يمكن بسطها في هذه الرسالة المختصرة، ولكن نموذج منها يكفي اللبيب.

ومن ذلك مشاكل الحقوق والمعاملات، فقد أتى الدين فيها بغاية العدل، وأمر بالقيام بالحقوق على اختلاف أنواعها: الحقوق الراتبة، والحقوق العارضة، وهي في أكمل ما يكون من الحسن، وبها يندفع الضرر والشر والخصام: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[سورة المائدة، من الآية: ٥٠].

وبالجملة فما من مشكلةٍ كبيرةٍ ولا صغيرة إلا إذا بُنيت على الشريعة الإسلامية المحضة تمت أمورها واستقامت أحوالها، وصلُحت من جميع الوجوه، لا فرق بين مكافأة المحسنين في الدنيا والآخرة ومعاقبة المجرمين كذلك، -والله أعلم-.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

(المجلس الثامن)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد...

المتن

فيقول العلَّامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتابه [**الأدلَّة القواطع والبراهين في إبطال أصول المُلحدين**]: «الوجه الخامس والأربعون: أنَّ هؤلاء الملحدين روَّجوا إلحادهم بتحسين ما هم عليه بأوصافٍ إذا سمعها الجاهل هالَتْه واغترَّ بها وظنَّ صِدْقها، وكل مُنصفٍ عارفٍ يعرف كذبها وبطلانها، فزعموها تجديدًا ورُقيًّا وتقدُّمًا إلى الأمام، وما أشبه ذلك من العبارات التي يغترُّ بها الجاهلون.

وامَّا البصير العاقل فيعلم انَّ ركل تقدُّمٍ ورُقِيٍّ روحِيٍّ ومادِّي فالدِّين قد أتى به على أكمل الوجوه وأسلمها من الضرر والفساد، فإنَّ الدِّين كما أَمَرَ بإصلاح الدِّين فقد أَمَرَ بإصلاح الدنيا الإصلاح الحقيقي النافع عاجلًا وآجلًا، عكس ما كَذَبَ عليه أعداؤه بأنَّه مخدِّر مفتِّر».

الشرح:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمَّا بعد..

هذا الوجه يُبيِّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى فيه طريقة هؤلاء في ترويج باطلهم الذي لا يرُوج إلَّا على السفهاء ومَن هم في جهلٍ عظيم؛ ولهذا فإنَّ طريقة هؤلاء القوم في ترويج باطلهم أن يزيِّنوه بزُخرف القول وجميل الاسماء وحَسَنها حتى يرُوج على الجاهل.

وأيضًا لهم طريقة مثل هذه الطريقة مع الحق يسمُّونه بـ«**الاسماء المُنفِّرة**»؛ فلهم في هذا الباب مَسلكان:

تزيين باطلهم بالأسماء المنمَّقة الحَسَنة الجميلة.

والمَسلك الآخر: تقبيح الحق بأن يسمُّوه ويصفوه بالصفات المُنفِّرة التي تجعل مَن يسمع تلك الأسماء يَنْفُر، فيسمُّون باطلهم بـ«التقدُّم والرُّقِيّ» ونحو ذلك من العبارات.

ويُسمُّون الحق الذي جاءت به الرُّسُل ودعا إليه الأنبياء «**تخلُّف ورجعية إلى الوراء**»؛ يكون الفَرْق بين مَن يكون في سَيْرهم متقدِّمًا إلى الأمام وبين مَن هو في سَيْره راجع إلى الوراء؛ يكون الرجعية والتخلُّف هذا مذموم والتقدُّم والسَّيْر إلى الأمام ومواكبة هذا الرُّقِيّ هو الذي يُنال به المطالب والمقاصد بزعمهم.

فهذه طريقة عن القوم في تزيين باطلهم بأن يُزخرف بالأسماء المُنمَّقة الجميلة، والتنفير من الحق بأَنْ يُطلقوا عليه أسماء تُنفِّر مَن يسمع تلك الأسماء.

فيقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: أنَّهم روَّجوا إلحادهم (**بتحسين ما هم عليه بأوصافٍ إذا سمعها الجاهل هالَتْه واغترَّ بها**)؛ مثل ما ذَكَرَ أمثلة على ذلك: الرُّقِيّ والتجديد والتقدُّم إلى الأمام، وما أشبه ذلك من العبارات التي يغترُّ بها الجاهل.

يقول الشيخ: وإذا كانوا يتحدَّثُون عن الرُّقِيّ ويعتبرونه وَصْفًا للنَّهْج الذي هم عليه؛ فإنَّ البصير العاقل يعلم أنَّ كل تقدُّمٍ ورُقِيٍّ روحِيٍّ ومادِّيٍّ فالدِّين قد أتى به؛ لأنَّ الدِّين -كما يعلم أهله الذين هم أهله- أتى بكل ما فيه رُقِيّ الإنسان ورِفعته، وكمال أمره في دُنياه وأُخراه.

ولهذا -لاحظ- الدعاء الجامع أتى على هذه المعاني كلها المأثور عن نبيِّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «**اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي**»؛ فالدِّين القويم جاء بصلاح الدِّين وصلاح الدنيا وصلاح الآخرة.

فلا يكون الرُّقِيّ والتقدُّم والرِّفعة في الأمور الدِّينية أو الأمور الدنيوية أو المصالح عمومًا إلَّا بارتباط المرء بهذا الدِّين القويم الذي رَضِيَه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده ولا يرضى لهم دِينًا سواه.

فالدِّين قد أتى به على أكمل وجوه وأسلمها من الضرر والفساد؛ فإنَّ الدِّين كما أَمَرَ بإصلاح الدِّين فقد أَمَرَ بإصلاح الدنيا الصلاح الحقيقي النافع.

ولهذا في دعاء نبيِّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «**أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي**»؛ وهذا فيه أنَّ صلاح دنيا المرء بيد الله عَزَّوَجَلَّ ولا يُنال إلَّا بطاعته ولزوم الدِّين القويم الذي رَضِيَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده ولا يرضى لهم دِينًا سواه.

يقول الشيخ: هذه حقيقة الدِّين الإسلامي (**عكس ما كَذَبَ عليه أعداؤه بأنَّه مخدِّر مفتِّر**)؛ وغير ذلك من العبارات التي يقصدون بها تنفِير العبد من هذا الدِّين؛ فيصفونه بالمخدِّر أو المُفتِّر، حتى بعضهم قال عن الدِّين قال: «هذا هو الأغلال التي لا تُمكِّن الإنسان من مصالح الدنيوية والمنافع الدنيوية»؛ هكذا يقولون.

وأحد الضُّلَّال كَتَبَ كتابًا سمَّاه [هذه هي الأغلال]؛ ويقصد بالأغلال: الدِّين؛ وردَّ عليه الشيخ نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ برسالة مطبوعة عظيمة نافعة ومهمة سمَّاها [**تنزيه الدِّين وحَمَلته ورجاله مما افتراه القصيم في أغلاله**].

فالحاصل: أنَّ هذه طريقة عند القوم معروفة من قديم يُلقِّبون عقيدتهم الباطلة ومَسْلكهم الباطل بالألقاب الجميلة، ويُلقِّبون الحق بالألقاب المنفِّرة من أجل أن يُنفِّروا الناس عن الحق وعن دِين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المتن:

قال: «فالدِّين أعظم قوةٍ تدفع العباد إلى التقدُّم الصحيح كما قد فُصِّل في موضعٍ آخر؛ فمحاسن الدِّين الإسلامي أرسَى من الجبال الرواسي».

الشرح:

يقول: (**فالدِّين أعظم قوةٍ تدفع العباد إلى التقدُّم الصحيح كما قد فُصِّل في موضعٍ آخر**)؛ الشيخ له رسالة مطبوعة سمَّاها [**الدلائل القرآنية**] في أنَّ العلوم والأعمال النافعة العصرية داخلٌ في الدِّين الإسلامي، هي داخلة في الدِّين لأنَّ قواعد الدِّين تحُثُّ على ما فيه الخير، على ما فيه الفائدة، وذَكَرَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدلَّة مفصَّلة على ذلك.

وبالنسبة للأسماء (التقدُّم، الرُّقِيّ.... إلى غير ذلك)؛ مثل ما أشرْتُ -يعني- هذه طريقة معروفة عند القوم يصفُون المسلك الذي هم عليه بالأوصاف الجذابة، بالأوصاف الحسنة، يزيِّنُونه بالألقاب.

ولا يُعرَف إطلاقًا عَبْر التاريخ كله أنَّ صاحب ضلال يصِفُ ضلاله باسمٍ مُنفِّر؛ لا بد أن يختار لباطله أسماء جميلة، أسماء حسنة، وإذا أراد أن يصُدَّ عن الطريق الحق أيضًا يختار له الأسماء المنفِّرة، الأسماء القبيحة حتى يُنفِّر.

هذه طريقة معروفة في قديم الزمان وحديثه، لا يُعرَف أنَّ صاحب باطل يُطلق على باطله -مثلًا- لو كان صاحب بِدَع ويضع -مثلًا- جمعية يدعو فيها إلى تلك البِدَع؛ ما يقول: (جمعية البِدَع المُحدَثة)، أبدًا ما يقول ذلك؛ يقول: (جمعية السُّنَّة) مثلًا، أو يقول: (جمعية الاتِّباع) أو..... وهكذا؛ يضع أسماء في غير محلِّها وألقاب في غير موطنها حتى يجذب الناس إلى ما عنده من ضلال.

إذا كان -مثلًا- يريد أن يدعو إلى التحلُّل والانحراف والفجور وما إلى ذلك، ووَضَعَ -مثلًا- جمعية لذلك؛ ما يُسمِّيها (جمعية الفجور)، (جمعية الفساد)؛ يقول: (جمعية الفنون الجميلة)، وهكذا، طريقة -يعني- مسلوكة من قديم كل صاحب باطل يريد أن ينشُر باطله لا بد أن يضع له أسماء حتى ينفُق عند الجُهَّال وعند الضُّلَّال.

المتن:

«فمحاسن الدِّين الإسلامي أرسى من الجبال الرواسي، وأغلى من النجوم الدراري، وأجلى نورًا من الشمس المشرقة، لا يُقابلها ضدُّها ولا يُقاومها الباطل المبهرج ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [سورة الإسراء، الآية:٨١].

ولولا أنَّ الباطل قد زُخرِفَ ورُوِّجَ بالعبارات والدعايات المتنوعة ونَفَرتْه الدول المنحرفة لم يقبله عاقل ولا أصغى إليه لبيب، ولَعَرَفَ الناس أنَّه أعظم ظُلمةً من الليل وأضعف من كل ضعيف».

الشرح:

يعني: يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الدِّين الإسلامي كله محاسن (**محاسن الدِّين الإسلامي أرسى من الجبال الرواسي، وأغلى من النجوم الدراري، وأجلى نورًا من الشمس المشرقة**)؛ ومحاسنه كثيرة.

والشيخ -رحمة الله عليه- له رسالة قيِّمة جدًّا في هذا الباب مطبوعة بعنوان [**الدُّرَّة المختصرة في محاسن الدِّين الإسلامي**]، وطريقته في الرسالة بديعة جدًّا؛ لأنَّ عادةً مَن يكتبون في محاسن الدِّين الإسلامي يشرعون في ذِكْر التفاصيل؛ لكن الشيخ ذَكَرَ أمور جوامع.

فإذا ضبطها طالب العلم أعانته إعانة عظيمة جدًّا على الدعوة لهذا الدِّين؛ لأنَّ الأمور الجوامع التي ذَكَرَها يدخل تحتها تفاصيل كثير جدًّا، فجَمَعَ لُباب الموضوع وزُبَد الموضوع والخُلاصات الجامعة في الموضوع الذي هو (**محاسن الدِّين الإسلامي**)، وأبرزها في تلك الرسالة العظيمة التي هي بعنوان [**الدُّرَّة المختصرة في محاسن الدِّين الإسلامي**].

ثم أيضًا يذْكُر أنَّ الباطل لا يرُوج إلَّا بالدعايات، يعني: سبحان الله! الإسلام ينتشر بنفسه وبالدُّعاة إليه؛ لأنَّه حق ويوافق الفِطَر، ونور يهتدي الناس أحيانًا إلى الدِّين برؤية أهله في صِدْقهم، في عبادتهم..... إلى غير ذلك، أو بالقراءة عن الدِّين، أو نحو ذلك.

لكن المذاهب الباطلة والمسالك الباطلة تحتاج إلى دِعاية وترويج وتزيين وزخرفة و..... ما إلى ذلك حتى تمشي.

ولهذا الشيخ يقول: (**لولا أنَّ الباطل قد زُخرِفَ ورُوِّجَ بالعبارات والدعايات المتنوعة ونَفَرتْه الدول المنحرفة لم يقبله عاقل ولا أصغى إليه لبيب، ولَعَرَفَ الناس أنَّه أعظم ظُلمةً من الليل وأضعف من كل ضعيف**)؛ لكن الترويج والزخرفة والتزيين للباطل هو الذي يجعله يرُوج عند مَن رَاجَ عنده.

المتن:

«وإذا أردت أن تعرف ذلك فقَابِل بين أصول الدِّين ومسائله وما يُرغِّب فيه وما يُحذِّر عنه، وبين ما يُناقضها من أقوال أهل الإلحاد».

الشرح:

بعيد عن الزخرفة والتزيين ينظُر الإنسان ماذا هنا؟ وماذا هنا؟

ينظر فيما يدعو إليه الدِّين من كمال وسموّ ورِفعة وخيرٍ للمرء في الدنيا والآخرة، وبين ما يدعو إليه دُعاة الإلحاد من الفساد والضياع والانحراف.

يُقارن بين هذا وهذا يتبيَّن له الأمر.

المتن:

«تجد أقوالهم تضمحِلُّ وتتلاشَى ويظهر بطلانها بهذه المقابلة؛ فإنَّ الضدَّ يُعرَف بضدِّه، فلولا الليل ما عُرِفَ النهار، ولولا الباطل لَمَا ظَهَرتْ براهين الحق هذا الظهور في قوتها وحقيقتها ووضوحها وصِدْقها وحُسْنها.

وهذا من الحكمة في مقابلة الباطل للحق، كما أنَّ من الحكمة أن يتبيَّن الصادق من الكاذب والمؤمن من ذده والصحيح من الفاسد ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [سورة الأنفال، من الآية:٤٢].

وبهذه المقابلة وظهور الحق تجد الحق يُشبه لعضه بعضًا، ويشهد بعضه لبعض في غاية الإحكام والإتقان ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء، من الآية:٨٢].

وتجد الباطل يُبطِل بعضه بعضًا وأهله في غاية التناقُض، وتجد الواحد منهم متناقضًا متهافتةً أقواله.

ثم انظر إلى الحق ووضوحه ووضوح ما دلَّ عليه من الكتاب والسُّنَّة، وما يؤيِّد ذلك من الفِطَر المستقيمة والعقول الصريحة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [سورة الفرقان، الآية:٣٣]؛ فالحق مسائله هي الصادقة النافعة، وأحسن التفسير تفسيره وحدوده الواضحة.

وأمَّا ضده فإنَّ مسائله باطلةٌ وضلال، وحدوده في غاية القلق والالتواء والصعوبة والهذر الكثير الذي ليس له حاصل ولا معاني يُحصِّلها القارئ بسهولة، وإذا وَصَلَ إليه وجده

﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ [سورة النور، من الآيتان:٣٩-٤٠]؛ ظُلمة الضلال والجهل المركَّب والبسيط، وظُلمة الكِبر والغرور».

الشرح:

هذه الآية ضَرَبَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها هذا المثل العظيم الباطل؛ لأنَّه ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ [سورة النور، من الآية:٣٩]؛ ففعلًا مَن ينظُر الباطل يجد شأنه كذلك.

ومَن ينظر في الحق يجد أنَّه فعلًا لا يُروِي الظمأ ويُذهِب عطش الباحث عن الحق إلَّا الدِّين.

أذكُر قرأتُ كلمة لأحد المعاصرين أعجبتني كثيرًا كان على غير الإسلام، يقول عن نفسه: «**كنتُ في عطش شديد لمعرفة الحق**»؛ متعطِّش عطشًا شديدًا لمعرفة الحق.

«**فتَرَكْتُ الدِّين الذي أنا عليه وقرأتُ في النصرانية فلم أَرَ فيها ما يُروِي عطشي، وتَرَكْتُها وقرأتُ في كذا وقرأتُ في كذا**»؛ دخل في أديان كثيرة، يقرأ.... يقرأ، يبحث عمَّا يُروِي عطشه.

ثو يقول: «**وفَّقَنِي الله فقرأتُ في الإسلام ومعاني القرآن، وهدايات القرآن؛ فلم أجِد في كل ما قرأتُ ما يُروِي عطشي إلَّا هذا الدِّين**»؛ ودَخَلَ في الإسلام دخول عن قناعة؛ لأنَّه كل ما قرأ عن الأديان، وقرأ كثيرًا في أديان مختلفة ما وَجَدَ فيها ما يُروِي العطش.

ولهذا الإلحاد الذي، هذا الكتاب في بيان بُطلان ما عليه أهله وأنَّهم أشد الناس ضلالًا حاله فِيمَن يلتمس فيه نفعًا أو فائدة كما ذَكَرَ الله ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ [سورة النور، من الآيتان:٣٩-٤٠].

فالحاصل: أنَّ بالمقارنة بين ما يدعو إليه هؤلاء، وبين دعوة الحق الدِّين الحنيف دِين الله عَزَّوَجَلَّ يتبيَّن الإنسان الفَرْق بين الهدى والضلال، والنور الظُّلمة، والكُفر والإيمان، كل ذلك إنَّما يتبيَّن بمثل هذه.....

ولهذا القرآن يأتي فيه تفاصيل لحال الضالِّين؛ لأنَّ من منافع هذه التفاصيل: إظهار حُسن الضد الذي هو الدِّين، والضد يُظهر حُسنة الضدُّ وبضدِّها تتميَّز الأشياء.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة الأنعام، الآية:٥٥]؛ أي: يتَّضح فسادها، يتَّضح انحرافها، يتَّضح زَيْغُها وضلالها وبُعدها عن الصراط المستقيم، وأيضًا يتَّضح في الوقت نفسه جمال الحق، وحُسنه وكماله وبهاءه ونَفْعه العظيم وعوائده الكبيرة على أهله في الدنيا والآخرة.

الشيخ حافظ حَكَمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى له أبيات في منظومته [**الميمية**] تُشبه ما يتعلَّق بهذا الوجه في بعض المعاني نستمع إليها ثم نواصل:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

واحذَر مجلَّات سوءٍ في الملا نُشِرَت ** تَدعو جِهارًا إلى نَشْر البلا بِهم
تدعو لنَبْذ الهُدَى والدِّين أجمعه ** والعلم بل كلِّ عقلٍ كاملٍ سَلِمِ
وللركون إلى الدنيا وزُخرفها ** والرَّتْع كالحيوان السائم البَهِمِ
وللتهتُّك جَهْرًا والخلاعة مع ** نَبْذ المروءة والأخلاق والشِّيَمِ
والاعتماد على الأسباب مُطْلَقِها ** دون المُسبِّبِ والخلَّاق من عدمِ
والكُفر بالله والأملاك مع رُسُلٍ ** والوحي مع قَدَرٍ والبعثُ للرِّمَمِ
ولاعتناق الطبيعيَّات ليس لها ** مُدبِّرٌ فاعلٌ ما شاء لم يَضِمِ
قامت لديهم بلا قيُّومٍ أبدعها ** مسخَّراتٍ لغاياتٍ من الحِكمِ
سمَّوه مَدْحًا له العلم الجديد بل الـ ** كُفْرَ القديم ومنه القول بالقِدَمِ
تقسَّموه الملاحِيد الطُّغاة على ** سِهْمٍ وأكثر لا أهلًا بذِي القِسَمِ
وكلَّما مرَّ قَرْنٌ أو قرونٌ أتوا ** به على صورةٍ أخرى لِخُبْثهمِ
بعض الخبيث على بعضٍ سيركمه ** ربِّي ويجعله في النار للضَّرَمِ

طبعًا الشيخ لمَّا يقول: (**واحذر مجلَّات**)؛ هذا قبل الوسائل الحديثة التي الآن شرُّها أعظم وخطرها أشد.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «الوجه السادس والأربعون: أن يُقال: إنَّه ممتنع كل الامتناع، ومستحيلٌ أن تتهذَّب النفوس وتكتسب الفضائل بعلوم المادة المحضة وأعمالها، والتجارب والمشاهدة أكبر برهان على ذلك؛ فإنَّها مع تطوُّرها وتبحُّرها عَجَزتْ كل العَجْز عن تهذيب النفوس وإصلاحها الذي يتوقَّف عليه صلاح البشر.

وإنَّما الذي يتكفَّل بهذا الإصلاح ويتولَّى هذا التهذيب الصحيح ويوجِّه الأفكار إلى العلوم الصادقة، ويوجِّه الأعمال إلى الخير ويزجرها عن الشر هو ما جاء به الدِّين الإسلامي، فهو مُصلحٌ للعقائد والأخلاق، ومهذِّبٌ للأفكار، وحاثٌّ على الفضائل، وزاجرٌ عن الرذائل.

فرُوح ما دعا إليه الدِّين الإيمان بالغيب الذي يدخل فيه الإيمان بالله وبما له من الأسماء الحسنى والصفات والأفعال، ويدخل فيه الإيمان بالملائكة وبالجزاء العاجل والآجل على الأعمال حَسَنها وسيِّئها التي لا تُعرَف إلَّا من جهة الرُّسُل.

فعُلِمَ بهذا أنَّه يتعذَّر الإصلاح الحقيقي بغير الإيمان الصحيح والدِّين الإسلامي؛ فعلوم المادة وإن ارتقَتْ فوق ما يعلمه الناس أضعافًا مضاعفة فإنها لا تبلُغُ قريبًا من علوم الأنبياء، ولا تصل إلى ما وَصَلتْ إليه.

ولا تذعن لها النفوس، ولا يكون لها من التأثير على النفوس ما لعلوم الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم-؛ فإنَّ النفوس لا تُذعِن إلَّا عند إيمانها بالله وملائكته وكُتُبه ورُسُله واليوم الآخر، وبدون ذلك يمتنع الإذعان كما هو معلومٌ من الطِّباع البشرية».

الشرح:

هذا أيضًا من الوجوه العظيمة في إبطال الإلحاد، أَلَا وهو أنَّ تهذيب النفوس وتزكيتها هذا من المطالب العظيمة التي يُسعَى إليها ويرغب الناس والعقلاء في تحقيقها في المجتمعات؛ لأنَّ بتهذيب النفوس تستقِيم الأحوال وتصلُح الأمور، وتنتظم أمورهم، وتذهب عنهم الشرور والفوضى والفساد.

فهذا مطلب عظيم جدًّا: تهذيب النفوس حتى تزكو وتطمئن وتتعامل مع الأمور بالعدل والإحسان واللُّطف والرِّفق، وتبتعد عن الشراسة والرعونة والغِلظة والشِّدَّة وما إلى ذلك.

فهذه العلوم لا يمكن أن تُهذِّب النفوس، وليس فيها أصلًا ما يُهذِّب النفوس؛ وإنَّما الذي يُهذِّب النفوس ويزكِّيها أعظم زكاةٍ وأطيبها وأحسنها هو ما جاءت به الرُّسُل ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [سورة آل عمران، من

الآية:١٦٤]؛ الزكية بآيات الله، بوحيه، بتنزيله؛ لا يمكن أن تزكو النفوس إلَّا بالوحي المنزَّل من الله؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو البصير بما يُزكِّي نفوس العباد ويُصلحها، فأنزَلَ وَحْيًا به تزكو النفوس ولا تزكو إلَّا به، به تستقِيم ولا تستقِيم إلَّا به، به تصلُح ولا تصلُح إلَّا به.

فهذا الدِّين هو الذي يُهذِّب النفوس، هو الذي يزكِّيها، هو الذي يُبعدها عن رعونتها وشراستها وغِلظتها، وما إلى ذلك، هذه كلها لا يمكن أن تتحقَّق للنفوس إلَّا بهذا الدِّين العظيم.

وأشار الشيخ أنَّ تزكية الدِّين للنفوس من جهة أنَّه (**مُصلحٌ للعقائد والأخلاق، ومهذِّبٌ للأفكار، وحاثٌّ على الفضائل، وزاجرٌ عن الرذائل؛ فرُوح ما دعا إليه الدِّين الإيمان بالغيب الذي يدخل فيه الإيمان بالله**)؛ وبما له من أسماء وصفات، ويدخل فيه الإيمان باليوم الآخر.

ولهذا هذا الإيمان بالله وباليوم الآخر، وغير ذلك من أصول الإيمان هو الذي دائمًا يُهذِّب المرء؛ ولهذا تلاحظ في الآيات القرآنية وأيضًا في الأحاديث ذِكْر الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ..... فليفعل كذا، مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ..... فلا يفعل كذا**»؛ لأنَّ الإيمان بالله واليوم الآخر هو الذي يهذِّب، وهو الذي يجعل النفس تُذعن؛ لأنَّ الله هو المقصود بالعمل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واليوم لآخر هو دار الجزاء على العمل.

ولهذا دائمًا الدِّين الإسلامي يُذكِّر بهاذَيْن الأصلَيْن خاصة:

- **الإيمان بالله.**
- **والإيمان باليوم الآخر.**

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: لا تُذعن النفوس إلَّا بذلك، بدون ذلك يمتنع الإذعان؛ لأنَّ المؤمن في داخله إيمانٌ يضطرُّه إلى الإذعان، فإذا أراد أن يُقدِم حتى لو لم يكن عنده أحد، حتى لو كان في مكان مظلم أو خلوة أو نحو ذلك يعلن أنَّ ربَّه مطَّلعٌ عليه، وأنَّ الله سيُعاقبه يوم القيامة فيكُفُّ عن ذلك.

ولهذا مما يُذكَر: أنَّ بعض المجتمعات التي يسُود فيها الانضباط في التعامُل من سطوة لقانون الذي فُرِض، إذا كانوا -مثلًا- في الأسواق وحصَلَ أن انطفأ النور في الليل؛ جميع أخلاقهم تنتهي ما دام أنَّه لا يُوجَد إضاءة ولا أحد يخشونه من المخلوقات التي يخشونهم، لا يُراقبون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

بينما المؤمن انطفأ النور أو أضاء؛ هو يخاف الله هنا وهناك، ويُراقب الله هنا وهناك، ويعلم أنَّ الله سيُحاسبه ما يفعله في الظُّلمة كما سيُحاسبه على ما يفعله في الضياء ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [سورة الرعد، الآية:١٠]؛ المؤمن يعرف ذلك، ويُراقب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مراقبة دقيقة جدًّا في كل أعماله، في الوضوح والجلاء، وفي الظُّلمة والخفاء يُراقب الله.

لكن هذه التي تجعل الإذعان للسلوك القويم ديانة وتقرُّب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ هذه الأشياء غير موجودة في مثل هذا الانحراف والإلحاد والضياع الذي الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بصدد بيان فساد ما عليه أولئك.

المتن:

«الوجه السابع والأربعون: القرآن العظيم أكبر البراهين والأدلَّة الدالَّة على وحدانية الله وكماله، وصِدْق رُسُله، بأنواع إعجازه، ببلاغته وأسلوبه وتأثيره، وإخباره بالغيوب الماضية والحاضرة والمستقبلة، واتِّفاقه وعدم اختلافه، وتشريعه، وإصلاحه جميع ما يحتاجه البشر، وأنَّه على اتِّساع علوم الطبيعة والعلوم العصرية لم يأتِ علمٌ صحيحٌ ينقُض شيئًا من أصوله، وإخباره بعلومٍ لن تكن موجودةً وقت تنزيله، وكون الذي أتى به لم يكن يقرأ كتابًا ولا يخُطُّه بيمينه ولا تعلَّم من أحد؛ بل زكَّى به العباد، وكمَّل به الفضائل، وعلَّمهم ما لم يكونوا يعلمون.

وهذه المُجملات تحتاج إلى تفصيلٍ كثير، فمَن نَظَرَ إلى هذا جَزَمَ جَزْمًا لا يُمترَى فيه بأنَّه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وبهذه الوجوه وغيرها أحدث في الأرض انقلابًا عظيمًا لم يُعهَد له مثيل، وكانت قد مُلئَتْ الأرض من الشرور المتنوِّعة فأزالها، وتلوَّثَتْ القلوب بالعقائد الخبيثة والأخلاق الرذيلة فاقتلعها وأحلَّ محلَّها الهداية والمعارف والرُّشْد والإصلاح؛ وهو الدليل والبرهان، وهو الحُجَّة على توالي الزمان ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [سورة التوبة، الآية:٣٣].

فالقرآن زَلْزَلَ بتأثيره عقائد الجاحدين وأقضَّ مضاجعهم، وبدَّل عقائد المؤمنين وأخلاقهم وأعمالهم بعقائد هي أصلح العقائد وأنفعها، وأخلاقٌ هي أحسن الأخلاق وأحمدها، وأعمالٌ هي أكمل الأعمال.

الشرح:

هذا (**الوجه السابع والأربعون**): التأمُّل في عظمة القرآن، وكماله وكمال هداياته، وجمال ما يدعو إليه من عقائد هي أصحُّ العقائد وأقومها، وأعمالٍ وعبادات هي أحسن العبادات وأكملها، وأيضًا أخلاقٌ هي أجمل الأخلاق وأزكاها وأطيبها؛ بالتأمُّل في عظمة هذا القرآن.

وأيضًا الإخبارات في القرآن عن أمورٍ سابقة وأمورٍ لاحقة يُخبر عنها القرآن وجاء فيها تفاصيل واسعة؛ هذه كلُّها، والنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذي أُوحِيَ إليه هذا القرآن -مثل ما ذَكَرَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: (لم يكن يقرأ كتابًا ولا يخُطُّه بيمينه ولا تعلَّم من أحد)، ثم جاء بهذا الكتاب الذي أوحاه الله إليه ونَزَلَ به عليه جبريل الأمين فحَفِظَه ووعاه وجَمَعه وبلَّغه تامًّا وافيًا وهو لا يقرأ ولا يكتُب ولا يخُطُّ كتابًا بيمينه ولا جَلَسَ عند أحدٍ يُعلِّمه، ثم فاجأ الناس بهذا القرآن العظيم، وما فيه من الهدايات، وما فيه من الأخبار السابقة، وما فيه من الأمور اللاحقة.

الذي يتأمَّل في عظمة هذا القرآن يجد ما يشهد لصِدْق الرسول ووحدانية الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعظمته ودلاله.

ثم أيضًا ما ذَكَرَه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى بقوله: أنَّ هذه المعاني العظيمة التي حواها القرآن أَحْدَثَتْ في الأرض انقلابًا عظيمًا؛ لأنَّ القرآن نَزَلَ والأرض كلُّها خيَّم فيها الظلام وأطبَقَ الباطل، كما جاء في الحديث الصحيح قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ أَجْمَعِينَ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا**».

يعني: قلة قليلة جدًّا من أهل الكتاب؛ وإلَّا الأرض كلها خيَّم عليها الظلام؛ فجاء هذا الضياء، هذا النور الذي أشرق وأضاء فبدأ يُغيِّر في الأرض تغييرًا عظيمًا، وبدأ الإسلام يمتدُّ ونوره يتَّسِع (**أحدث في الأرض انقلابًا عظيمًا لم يُعهَد له مثيل، وكانت قد مُلئَتْ الأرض من الشرور المتنوِّعة فأزالها، وتلوَّثَتْ القلوب بالعقائد الخبيثة والأخلاق الرذيلة فاقتلعها وأحلَّ محلَّها الهداية والمعارف والرُّشْد والإصلاح**).

كل هذا بالتأثير العظيم الذي جَعَله في القرآن؛ فالقرآن زَلْزَلَ بتأثيره عقائد الجاحدين (**وأقضَّ مضاجعهم، وبدَّل عقائد المؤمنين**)؛ أي: الذين حَصَلَ لهم، تحقَّقَ لهم الإيمان، بدَّل عقائدهم وأخلاقهم إلى أطيَب العقائد وأجمل الأخلاق وأحسن العبادات وأكملها.

المتن:

«الوجه الثامن والأربعون: مَن عَرَفَ حال النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما هو عليه من الأخلاق العالية، وما أُعطِيَ من العلوم النافعة الشاملة لكلِّ ما يحتاجه الخَلْق، وما أُيِّدَ به من الآيات والبراهين المتنوِّعة من كل وجهٍ لا تُعَدُّ ولا تُحصَى.

كل جنسٍ من آياته، بل كل نوعٍ، بل كل فردٍ منها يدلُّ أكبر دلالة على أنَّ رسول الله حقًّا، وأنَّ ما جاء به حقّق وما خالفَه باطل.

فوقوف العاقل البصير على بعض آيات الرسول في نفسه وفي شَرْعه وفِيما أُيِّدَ به يعرف به بُطلان أقوال المُلحدين، وبُطلان مذهب الماديِّين المُنكرين لله ولرسوله ودِينه، وأنَّ هذا الإنكار منهم أكبر برهانٍ على ضلالهم وجَهلهم البليغ بالحق المبين.

وتفصيل هذا الوجه يستدعِي مجلَّدات؛ ولهذا كل نوعٍ من آيات الرسول صُنِّفَت فيه المؤلَّفات على حِدَتِهِ فازداد به المؤمنون إيمانًا، وقامت الحُجَّة على المُعاندين المُنكرين، وقد قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأَفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة فُصلت، من الآية:٥٣].

ولكنَّ هؤلاء الماديِّين يُشاهدون من آيات الله ما يضطرُّ كل عاقلٍ إلى الإيمان واليقين، وهم يتلمَّسُون لها التحريفات والتحليلات الباطلة ليُدخلوها في علمهم القاصر، ويُنكروا بذلك قُدرة الله خصوصًا في هذه الأوقات التي ارتَقَتْ فيها علوم المادة ارتقاءً هائلًا.

وهو من أعظم الأدلة على وحدانية الله وكمال قُدرته وحكمته ورحمته؛ ولكن هؤلاء كما قال الله عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [سورة يونس، من الآيتان:٩٦-٩٧].

فصارت علومهم ضررًا عليهم، وخطرًا عظيمًا على جميع البشر؛ ضررًا عليهم لأنَّهم تكبَّروا بها وفرحوا بها واحتقروا واستهزأوا بما جاءت به الرُّسُل، وصارت خطرًا على جميع البشر بما يترتَّب وسيترتَّب عليها من الفناء والخراب والتدمير، تدمير النفوس وتدمير الأخلاق، نسأل الله العافية والسلامة بمنِّه وكرمه».

الشرح:

اللهم آمين! هذا (**الوجه الثامن والأربعون**)؛ قال: (مَن عَرَفَ حال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ)؛ هذا تنبيه على وجه عظيم جدًّا في ردِّ الإلحاد وبيان بُطلانه: أنَّ كل دعوة تُعرَف وتُقوَّم برجالاتها وحَمَلتها.

فمعرفة الرسول الذي اصطفاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واجتباه فبَعَثَه بهذا الدِّين القويم، وبلَّغه البلاغ المبين، التأمُّل في سِيرته العطرة، وشمائله الكريمة، ومناقبه العظيمة، وخصائصه الجليلة -صلوات الله وسلامه عليه-؛ يُدرِك أنَّه حق ومُرسَل من الله، وأنَّ الدِّين الذي جاء به حق وصِدْق، وأنَّه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولهذا قال الله تنبيهًا على هذا البرهان وتأكيدًا عليه: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية:٦٩]؛ لأنَّ معرفة الرسول تهدِي وتدلُّ، وقد كان في زمانه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وبعد زمانه أحبَّ أُناسٌ الدِّين الذي جاء به، ودخلوا فيه دخولًا عن اقتناعٍ تامٍّ ورغبةٍ أكيدة لوقوفهم على سِيرته العطرة.

حتى إنَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في زمانه -وهذا حصل أكثر من مرة- يأتي إليه أشخاص، حتى بعضهم أتى قاصدًا التربُّصَ به ليقتله، فما أَنْ رأى أخلاقه وشمائله وآدابه ومعاملته الحسنة إلَّا وتحوَّل من ساعته وليس على وجه الأرض أحب إليه من هذا الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكان قبل أن يراه تلك الرؤية ليس على وجه الأرض أبغض إليه من الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وهكذا أيضًا عَبْر التاريخ مَن يوفِّقه الله لأَنْ يقرأ سِيرة الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وشمائله وخصائصه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يضطرُّه إن أراد به خيرًا إلى قَبُول الدِّين والدخول، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية:٢١]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة، الآية:١٢٨].

وشمائل النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وخصائصه ومعاملاته الكريمة وآدابه العظيمة هي بحدِّ ذاتها دليلٌ وبرهان على عظمة هذا الدِّين وصِدْق ما جاء به الرسول الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

ثم ما أيَّده الله به من البراهين والآيات، ومثل ما ذَكَرَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه كَتَب فيها العلماء مؤلَّفات كثيرة، وتعلمون الكُتُب التي أُلِّفَت في دلائل النبوة قديمًا وحديثًا كثيرة جدًّا، وفصَّل العلماء فيها تفصيل واسع في مجلَّدات؛ لأنَّها كثيرة جدًّا.

فهذه الآيات والدلائل والبراهين هذه كلُّها أيضًا تُعدُّ تفصيلًا في البرهان على صِدْق هذا الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ووحدانية مَن أرسله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

هذه الآيات كثيرة، والبراهين عديدة؛ لكن هل ينتفع القوم؟!

ومع وقوف بعضهم على مثل هذه الآيات يقول الشيخ: (**ولكنَّ هؤلاء الماديِّين يُشاهدون من آيات الله ما يضطرُّ كل عاقلٍ إلى الإيمان واليقين، وهم يتلمَّسُون لها التحريفات والتحليلات الباطلة ليُدخلوها في علمهم القاصر، ويُنكروا بذلك قُدرة الله**)؛ فانطَبَقَ عليهم قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [سورة يونس، من الآيتان:٩٦-٩٧].

المتن:

«الوجه التاسع والأربعون: أن يُقال لهؤلاء الملحدين القادحِين في الدِّين: قد عَلِمَ أُولُو الألباب والنُّهَى وأهل البصائر والعقول أنَّ دِين الإسلام الذي جاءت به الرُّسُل ثم جاء به محمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُكمَّلًا مُتمَّمًا مُعمَّمًا هو دِين الفِطرة السليمة، والحكمة العلمية والعملية، والعقل والفِكر والبرهان والحُجَّة والحرية الصحيحة والاستقلال الصحيح، كما وَصَفَه الله ورسوله في آياتٍ كثيرة أخبارٍ صحيحة.

وكما هو المعروف المُشاهَد المحسوس في هذا الدِّين، واشتماله على هذه الأوصاف العظيمة يعلم به عِلمًا يقينيًّا لا شك فيه أنَّه الحق، وما ناقَضَه فهو الباطل.

فهذه الأوصاف التي وُصِفَ بها الدِّين وحقَّقَتْها المطابقة والمُشاهدة تضطرُّ العقلاء إلى الجَزْم بأخباره، والتحقُّقِ بأخلاقه وآدابه، وسلوك جميع ما أرشد إليه من الهدايات المتنوِّعة، والله يهدِي مَن يشاء إلى صراطٍ مستقِيم».

الشرح:

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (**الوجه التاسع والأربعون: أن يُقال لهؤلاء الملحدين القادحِين في الدِّين: قد عَلِمَ أُولُو الألباب والنُّهَى وأهل البصائر والعقول أنَّ دِين الإسلام..... إلى آخره**)؛ إلى أن قال: يُعلَم بها عِلم يقين لا شك فيه أنَّه الحق (**وما ناقَضَه فهو الباطل**).

فهذا أيضًا طريق في الاستدلال لإبطال باطل أولئك: أنَّ الدِّين الإسلامي هو دِين الله الذي بَعَثَ به رُسُله، فجميع الرُّسُل بَعَثهم بالإسلام، ودِين الرُّسُل واحد، وعقيدتهم واحدة ودعوتهم واحدة ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٣٦].

ثم خَتَمهم بمحمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فجاء بهذا الإسلام (**مُكمَّلًا مُتمَّمًا مُعمَّمًا**)؛ شاملًا عامًّا كاملًا ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [سورة المائدة، من الآية:٣].

ثم هذا الدِّين الذي جاء به إذا نَظَرَ الناظر ليجد أنَّه: (**هو دِين الفِطرة السليمة**)، وأيضًا (والحكمة العلمية والعملية)، وهو (**العقل**) السليم، (**والفِكر والبرهان والحُجَّة والحرية الصحيحة**)؛ فهذا هو الإسلام، هو كمال في كل أموره وفي جميع أبوابه:

- **عقائده**: أصحُّ العقائد وأجملها.
- **عباداته**: أكمل العبادات وأتمُّها.

أخلاقه وآدابه: هي أزكى الأخلاق وأفضلها وأعظمها.

فالحاصل: أنَّ أيضًا هذه المعرفة تُكسِب الناظر العلم اليقيني الذي لاشك فيه أنَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مُرسَلٌ من ربِّه، وأنَّ الدِّين الذي جاء به هو دِين الله الذي رضِيَه لعباده ولا يرضَى لهم دِينًا سواه، وأنَّه الحق وماذا بعد الحق إلَّا الضلال.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه الحُسنى والصفات العُليا أن ينفعنا بما علَّمنا وأن يزيدنا عِلمًا وتوفيقًا، وأن يُصلِحَ لنا شأننا كله وألَّا يَكِلَنا إلى أنفسنا طرفة عين.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحُول بيننا وبين معاصِيك، ومن طاعتك ما تُبلِّغنا به جنَّتك، ومن اليقين ما تُهوِّنُ به علينا مصائب الدنيا.

اللهم متِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوَّتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منَّا، اللهم اجعل ثأرنا على مَن ظَلَمنا وانصُرنا على مَن عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في دِيننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همِّنا ولا مَبلَغ عِلمنا، ولا تُسلِّط علينا مَن لا يرحمنا.

سبحانك اللهم وبحمدك... أشهد أن لا إله إلَّا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه.

(المجلس التاسع)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد..

فيقول الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتابه: [**الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين**]:

الوجه الخمسون: أن الإصلاح العلمي الواسع لأمور الدين ولأمور الدنيا، بأنواعه من جميع الوجوه التي جاء بها محمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع تنفيذه عملًا من أكبر الأدلة على وحدانية الله، وأنه الحق وقوله حق، ورسله حق، ودينه هو الحق، فإن البشر –الأمم السابقين واللاحقين– لم يشهدوا لهذا الإصلاح نظيرًا ولا مقاربًا بوجهٍ من الوجوه، والاستقراء والتتبع أكبر شاهدٍ لهذا الأمر، وهذا البرهان الواسع الكبير مما تضمحل معه جميع أصول الملحدين، فكيف إذا انضم إلى ما قبله وما بعده، وما لم نذكره من البراهين القواطع والآيات السواطع؟ والحمد لله رب العالمين.

وجميع علوم البشر على اتساعها وتفوقها لا تفي بهدايتهم إن لم تستند إلى تعاليم الدين، وإذا شككت في هذا فانظر آثارها وما ترتب عليها من الشرور التي تفاقم شرها، وتعذر حسمها، وعظمت فجائعها، وقلت رحمتها وعدلها، وهي كلما اتسعت بوجهها ومخترعاتها ازداد ضررها العظيم، واضمحل ما يرجوه العقلاء من خيرها العميم؛ لأنها بُنيت على الكفر والإلحاد، والجحد لدين رب العباد، فصارت ملازمةً للشرور والفساد.

الشرح:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد..

هذا وجهٌ آخر من الوجوه التي ذكرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في إبطال الإلحاد، وذلك بالنظر إلى ما في هذا الدين الإسلامي العظيم من إصلاحٍ عام لجميع شئون الناس ومصالحهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، فدين الإسلام هو دين الصلاح والإصلاح، ولا يمكن أن يصلح للناس أمرٌ، أو تستقيم لهم مصلحة إلا إذا كانت قائمةً على هذا الدين متأسفةً عليه، وذلك أن الخلق خلق الله عَزَّوَجَلَّ، وصلاحهم مرده إلى الله؛ فلا يمكن أن يتحقق لهم صلاحٌ إلا بالطريق الذي رسمه أو وضعه أو جعله مدبر هذا الكون وخالق هذا الكون سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فصلاح البشرية في مصالحها كلها الدينية والدنيوية والأخروية مرتبطةٌ ارتباطًا كاملًا بهذا الدين العظيم؛ فإذًا النظر فيما يدعو إليه هذا الدين من الصلاح والإصلاح العام الشامل لجميع مصالح الناس في دينهم ودنياهم وأخراهم دليلٌ على وحدانية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعظمته، وحكمته، وعظيم رحمته، ولطفه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعبادة أن أنزل عليهم هذا الدين العظيم الذي لا تنتظم مصالحهم، ولا تصلح أمورهم إلا بتحقيقه والتزامه.

وإذا كان الدين الإسلامي هو دين الإصلاح؛ فإن الناظر في الإلحاد وما يُفضي إليه يجد أنه طريق الفساد بما تعنيه هذه الكلمة، ولهذا الصلاح كله في الإسلام والفساد كله بجميع صوره في الإلحاد؛ لأن الإلحاد هو باب الشر، وباب الفساد؛ فإذًا هذا وجه من الوجوه التي يُبطل بها الإلحاد النظر فيما يدعو إليه الدين الإسلامي من الصلاح العام الشامل لجميع مصالح الناس، اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، الصلاح بجميع صورة وأنواعه إنما هو في هذا الدين، والتزامه، والرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والخضوع والذل له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأما الإلحاد فهو طريق كل فساد، وهذا يظهر بالمقارنة مثل ما نبه الشيخ، المقارنة بين ما يدعو إليه الإسلام من الصلاح العام الشامل لجميع المصالح، وبين ما يترتب على الإلحاد من الفساد العظيم والشر الكبير.

المتن:

الوجه الحادي والخمسون: قال الله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٢٢]؛ فذكر وحدانيته التي هي أظهر الأشياء وأوضحها، وأن الناس انقسموا نحو هذه الحقيقة قسمين:

- قسمٌ سد على نفسه باب الإيمان بالآخرة؛ فانسدت حوله أبواب الهداية؛ فصارت قلوبهم منكرةً لأظهر الأمور وأعظمها الذي وجوده وصفاته أوصافٌ واجبة لازمة يستحيل ضدها، وحين أنكرت قلوبهم استكبروا عن الانقياد لربهم ظاهرًا وباطنًا، فهم ملحدون متمردون، وصفهم الإنكار والاستكبار، ومن كان على هذا الوصف فإنه قد برهن على مكابرته ومباهتته ولو جاءته كل آيةٍ وبرهانٌ لم يؤمن ولم ينقد.
- وأما القسم الثاني: فهم المؤمنون بالآخرة الذين يعملون أن البشر لم يخلقوا سدىً مهملين، بل خُلقوا بالحق وللحق والجزاء بأعمالهم، فهؤلاء قلوبهم معترفةٌ بالله مؤمنةٌ بوحدانيته؛ وحدانية الذات، ووحدانية الصفات، وهم خاضعون لله منقادون له ظاهرًا وباطنًا، وبهذا الاعتراف والانقياد بلغوا من الفضل والكمال البشري ما شهد لهم به الواقع والتاريخ والمحسوس من الكمال العلمي والعملي والرشاد والإرشاد،

فالبصير العاقل بمجرد ما ينظر إلى الفرق بين الفريقين في أحوالهم وأوصافهم وآثار أعمالهم، يعترف ويستيقن بيقينهم وصدقهم وصدق ما بنوا عليه إيمانهم وأعمالهم، ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[سورة آل عمران، من الآية:٥٣].

ففي هذا الجانب الرسل العظام، وأصحابهم الكرام، وأئمة الهدى، والأحبار، وطبقات العلماء، وأكابر العارفين، وجميع طبقات المؤمنين الذين هم نور الوجود وحياة الدنيا والدين، بهم قام الدين وبه قاموا، وبهم صلحت الأحوال وهم أهل الهدى والسعادة والخير والفلاح والخير المتنوع من كل وجه.

وفي الجانب الأخير: كل ملحدٍ زنديق، وكل جبارٍ عنيد، الذين قال الله في وصفهم: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾[سورة القصص، من الآية:٤١-٤٢]؛ فمن لم يؤمن بالله وبآياته، ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[سورة الجاثية، من الآية:٦-٩]؛ جزاءً لهم على استهانتهم بآيات الله واستهزائهم بها، وبهذا الإنكار والاستهزاء سُلبوا منافع عقولهم، ومرجت أخلاقهم، وسفهت آراؤهم، وصارت البهائم أحسن حالةٍ منهم؛ حتى ولو كان لهم أذهان وذكاءٌ وعقول كما قال الله عن أمثال هؤلاء: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[سورة الأحقاف، من الآية:٢٦].

الشرح:

وهذا أيضًا وجه آخر من الوجوه التي تقرر في إبطال الإلحاد التأمل في أحوال الناس في ضوء هذه الآية الكريمة: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٢٢]؛ والكلام هنا أصل عظيم من أصول الإيمان؛ هو باب هدايةٍ للمؤمن به، وفي الوقت نفسه باب ضياعٍ للجاحد له، وهو الإيمان باليوم الآخر، وهذه العقيدة عقيدة الإيمان باليوم الآخر عقيدة عظيمة جدًا، الإيمان بها واستحضارها يهدي صاحبها إلى كل فضيلة، ويحجزه بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن كل رذيلة؛ لأن الإيمان باليوم الآخر حقيقةً يوجب الاستعداد لذلك اليوم؛ فإن المؤمن باليوم الآخر يؤمن بأن الله عَزَّوَجَلَّ أعد دارًا غير هذه

الدار التي يعيشها الناس في الدنيا وهي دارٌ من الجزاء، فيها جنة ونار، فيها حساب وعقاب، وأعمال العباد كلها في هذه الحياة الدنيا محصاةٌ عليهم في كتاب الله: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾[سورة الكهف، من الآية:٤٩]؛ وجميع أعمالهم وأقوالهم موزونة في الدار الآخرة، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[سورة الزلزلة، من الآية:٧-٨].

فالمؤمن بإيمانه باليوم الآخر يهتدي إلى كل خير وكل شر، ولهذا كثيرًا ما يمتنع المؤمن من أعمالٍ مشينة وأمورٍ محرمة خوفًا من الحساب ولقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وخوفًا من مجازاة الله؛ لأنه يعلم أن الله ما خلق الخلق سدى، ولا أوجدهم هباء، ولا خلقهم باطلًا تعالى الله وتنزه عن ذلك، بل خلقهم لغاية، ولا يتركهم سدى، المطيع، والعاصي، والمؤمن، والكافر، والبر، والفاجر، والمستقيم، والمنحرف، ينتهي أمرهم بالموت فقط، وتنتهي الأمور هكذا، لا يتركهم كذلك، بل بعد الموت بعث وحساب وجزاء ودواوين وموازين وحسابٌ على أعمال وجنة أو نار، فالمؤمن يؤمن بذلك ولهذا إيمانه يزكيه، إيمانه باليوم الأخر يزكيه يهذبه، يستقيم أمره بهذا الإيمان.

أما الآخرون أهل الإلحاد وغيرهم ممن لا يؤمن باليوم الآخر، جحوده لليوم الآخر يُغلق عليه جميع أبواب الفضل وجميع أبواب الخير، مثل ما قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: **(قسمٌ سدَّ على نفسه باب الإيمان بالآخرة؛ فانسدت حوله أبواب الهداية)**؛ جميع الأبواب؛ أبواب الهداية تُغلق، عندما يجحد المرء الإيمان باليوم الآخر، وإذا كان مؤمنًا باليوم الآخر عظيم الاستحضار لهذا اليوم انفتحت له أبواب الهداية، ولهذا يقول المؤمنون يوم القيامة وهم ينعمون بالنجاة ويفوزون بالنعيم، يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾[سورة الطور، من الآية:٢٦]؛ أي: من هذا اليوم، ومن الحساب والجزاء، فكنا نستعد، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ﴾[سورة الحاقة، من الآية:١٩-٢٠]؛ أي: اعتقدت في الدنيا، ﴿أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾[سورة الحاقة، من الآية:٢٠]؛ كنت أعتقد في الدنيا أن هناك حساب، وكنت استعد لهذا الحساب، فرق بين من يؤمن بالحساب فيستعد له، ينفتح له بهذا الإيمان باب كل خير ورفعة في الدنيا والآخرة، وبين من لا يؤمن بالحساب؛ فينسد عليه كل أبواب الخير.

ولهذا مما يُخاطب به الملحد في إبطال إلحاده ما يتعلق باليوم الآخر، هل هذا الإنسان من ينظر للناس يجد فيهم المجرم، والمفسد، والصالح، والطالح، والخيِّر، والسيء، أحوال كثيرة، هل هذه الحياة تنتهي بالموت، وأمر الصالح والفاسد، والمستقيم، والمنحرف، والمجرم، والمصلح، كلهم أمرهم سواء يموتون وينتهي

الأمر، هذا أمرٌ لا يليق بحكمة الخالق وعظمته وكماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا من جحد الإيمان باليوم الآخر سدَّ على نفسه جميع أبواب الخير وأبواب الهداية، وإذا آمن باليوم الآخر انفتح له بهذا الإيمان بحسب قوة هذا الإيمان، وتمكنه من قلبه انفتح له أبواب الهداية.

قال سبحانه: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾[سورة النحل، من الآية:٢٢]؛ وهذا أثر من آثار عدم إيمانهم باليوم الآخر، يسد عليه أبواب الهداية ومن ذلك أعظم الهدايات وهي ماذا؟ الإيمان بوحدانية الله وعظمته وصفاته وكماله وجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[سورة النحل، من الآية:٢٢]؛ كل ما عُرض عليهم حق يتكبرون، وهذا كله من آثار جحدهم الإيمان باليوم الآخر؛ لأنه يسد عليهم كل أبواب الخير، وعلى العكس من ذلك الذي يؤمن بالإيمان باليوم الآخر يفتح له هذا الإيمان أبواب الخير وأبواب الصلاح بحسب هذا الإيمان قوةً وضعفًا.

المتن:

الوجه الثاني والخمسون: ثبت في الصحيحين أنه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لاَ يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَولَوا: هذَا خَلَقَ الله الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللّهِ؟ فَمَنْ وَجَدَ ذلِكَ فليته، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وليقول: آمَنْتُ بِاللّهِ**»، وهذا مصداقه ما وقع من ملاحدة الماديين الذين لا يزالون يخوضون في مادة المخلوقات ولهم نظرياتٌ متنوعة كلها خاطئة؛ لأن مبناها على الخرص والظن الذي لا يُغني من الحق شيئًا، بل على خلاف المعلوم شرعًا وعقلًا وفطرة، فيتكلمون في علل الموجودات علةً بعد أخرى، ولم ينفذوا منها إلى موجدها وخالقها، بل أطلق عليه كثيرٌ من هؤلاء المتجرئين أنه علة العلل، فقطع النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الكلام الصادق الحكيم بكذبهم، ونبه على جهلهم وجراءتهم.

وأرشد المؤمنين إلى قطع هذه الشكوك والتشكيكات بالانتهاء والوقوف على أن جميع الموجودات كلها تنتهي إلى موجدٍ واحدٍ أحدٍ فردٍ صمد، الأول الذي ليس قبله شيء، الموجد لكل شيء، وأمر بالتعوذ من الشيطان الذي يدفع إلى القلوب المريضة هذه الشكوك والأسئلة الفاسدة، وبالإيمان بوحدانية الله تعالى وأنه ليس له مثيلٌ ولا نديدٌ ولا مشاركٌ في شيء من كماله، وبما أرشد إليه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يندفع ما قاله الملحدون، ويبطل ما ذهب إليه الماديون المتخرصون الذين ينكرون ما لا يعلمون، بل يجحدون ما هم به مستيقنون، وما زال الشيطان يُزين لهم الشكوك والتشكيكات حتى غمرهم الضلال؛ فهم في غيهم يعمهون.

الشرح:

في هذا الوجه أورد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هذا الحديث العظيم الذي يُخبر فيه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأمرٍ سيقع في بعض الأمة، وفي بعض الناس، والأمر وقع كما أخبر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولهذا في بعض طرق هذا الحديث في الصحيح عند رواية أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: "صدق رسول الله" كان ممسكًا برجل بيده، قال: "صدق رسول الله" وذكر الحديث قال هذا واحد من هؤلاء الذين عندهم هذا التساؤل؛ من خلق الله؟ قال: "صدق رسول الله" يعني: أنه سيوجد في الأمة من يثير الشيطان في نفسه هذا السؤال.

العجيب في الأمر أن الشيطان يولِّد هذه المسألة في نفوس بعض الناس من باب البحث العلمي، وأنها مسألة علمية تحتاج إلى تحرير وبحث ونظر؛ فيطرح هذا السؤال من هذا الباب؛ باب البحث العلمي، ولهذا في بعض أيضًا روايات الحديث في الصحيح أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يسألونكم عن العلم**»، بمعنى أنه يُتحدث في هذه المسألة كأنها مسألة علمية تحتاج إلى أن تحرر وأن يُبيَّن، وأن هذا سؤال علمي من خلق الله؟ أن هذا سؤال علمي يحتاج إلى أن يحرر الجواب عليه، والحق أن هذا ليس من العلم في شيء، من خلق الله؟ هذا ليس من العلم في شيء، وإنما هذه وسوسة من الشيطان، وسوسة من الشيطان لا علاقة لها في العلم أصلًا، وليست من العلم في شيء، وإنما وسوسة يلقيها الشيطان في نفس الإنسان من ضعف إيمانه بالله، يلقيها في نفسه من ضعف إيمانه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيُلقي في نفسه هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله؟ يُلقي هذه الوسوسة.

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث العظيم؛ لأنه في تقرير عظيم فيما يتعلق بهذه المسألة وهو من جهة أيضًا فيه إبطال للإلحاد، وأن الإلحاد ما هو إلا وساوس الشيطان الذي يُتعوذ بالله منها، الإلحاد هو من وساوس الشيطان، وما يكتبه الملاحدة في كتبهم هي وسوسةٌ من الشيطان أملاها عليهم، ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٢١]؛ أملوها عليهم فكتبوها في كتب، وسطَّروها في أوراق، فأثاروا بها الشكوك، وأوجدوا الشبهات، وشككوا الضعف في إيمانهم ودينهم؛ فالحاصل أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أرشد في هذا الحديث إلى ما ينبغي أن يُفعل عند وجود هذه الوسوسة.

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ دمج هنا بين حديثين كلاهما في الصحيح:

الأول: قال فيه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لاَ يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَولَوا: هذَا خَلَقَ الله الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللّهِ؟ فَمَنْ وَجَدَ ذلِكَ فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللّهِ**»، هذا حديث.

والآخر: وهو في الصحيح قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**يأتي الشيطان أحدكم؛ فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا؟ يقول: له من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته**».

إذًا من مجموع الحديثين، وكلاهما في الصحيح، أرشد النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى ثلاثة أمور حيال هذه الوسوسة التي من الشيطان، وأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يأتي الشيطان أحدكم**» هذه وسوسة ليست من العلم في شيء، وسوسة يلقيها الشيطان في النفس، من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ إلى أن ينتهي أن يقول له: من خلق الخلق ومن خلق الله؟ هذه وسوسة من الشيطان، فماذا يفعل تجاهها إن وجدت في نفسه؟ ثلاثة أمور لا بد من العناية بها، وهو كلام الناصح الأمين -صلوات الله وسلامه وبركاته عليه-:

الأمر الأول: أن يتعوذ من الشيطان؛ لأنها منه نبعت، وهو الذي ألقاها في صدر الإنسان، وأثارها في نفسه، فيتعوذ، من وجدت في نفسه من المنبع التي وصلت إليه منه هذه الوسوسة، وهذا الكلام القبيح الشنيع، فإذا جاءت في نفسه هذا السؤال يقول: أعوذ بالله من الشيطان، يستعيذ بالله من الشيطان حتى تنقطع هذه الوساوس؛ لأنه لا يزال، فإذا تعوذ بالله من الشيطان أندحر الشيطان وابتعد وانطرد، مثل ما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾[سورة الناس، من الآية:٤]؛ المعنى: إذا غُفل عن ذكر الله وسوس، وإذا ذكر المرء الله واستعاذ، خنس؛ أي: ابتعد عن العبد.

ولهذا مجرد ما يهجم هذا السؤال على النفس مباشرة، يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم مباشرة، وكلكم يعلم أن الاستعاذة التجاء إلى الله واعتصام به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن استعاذ بالله أعاذه، ومن صدق باللجوء إلى الله وقاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني: «**ولينته**»؛ يعني: لا يستمر في هذا الموضوع، ويغلق تمامًا، علاجه إغلاقه تمامًا وقطعه، «**ولينته**»؛ أي: ينتهي عن الخوض في هذه الوساوس، يستعيذ بالله من مصدرها، يستعيذ بالله من المصدر، ينتهي عن هذا الموضوع، يغلقه تمامًا، يبعده عن نفسه، لا يستمر مع هذا الموضوع ومع هذا السؤال القبيح.

الأمر الثالث: يجدد الإيمان بالله، وفي رواية أيضًا: «**فليقل آمنت بالله ورسوله**»، يجدد الإيمان بالله وبالرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، هذا التجديد للإيمان في هذا الوقت يعني وقت إيقاظ الشيطان هذا الوسواس في قلب الإنسان مهم جدًا تجديد الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، «**آمنت بالله**»، يقول، «**آمنت بالله**»، ماذا؟ أي: ربًا خالقًا مدبرًا عظيمًا، آمنت بأسمائه وصفاته ووحدانيته، وأنه معبود بحق ولا معبود بحقٍ سواه، وأنه خالق وما سواه مخلوق، المخلوق يُسأل من خلقه، أما الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو الأول الذي ليس قبله شيء جَلَّ وَعَلَا، الأحد الصمد الذي: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[سورة الإخلاص، من الآية:٣-٤]؛ فينتهي ويُجدد الإيمان، يقول: آمنت بالله، ليس المراد بقوله: آمنت بالله كلمة فقط يقولها بلسانه، وإنما يُجدد إيمانه، آمنت بالله مجددًا لقوله: آمنت بالله

إيمانًا بالله وعظمته وجلاله، تنزيهه وكل ما يليق به، سبحان الله ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية:٩١]؛ فينزه الله عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله، ومن ذلك أن يُقال هذه الكلمة القبيحة من خلق الله؟ هذه كلمة قبيحة جدًا، ومن وسوسة الشيطان -والعياذ بالله-.

فيجدد الإيمان بالله، ويجدد الإيمان بالرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والدين الذي بعث به، والهدى الذي دعا إليه، والصلاح الذي أرشد إليه -صلوات الله وسلامه وبركاته عليه-.

فهذه ثلاثة أمور:

- الاستعاذة، إغلاق للمنفذ الذي جاءت منه هذه الوسوسة.

- وإغلاق الموضوع «فلينته»، الدخول في مثل هذا الكلام دخولٌ في وسوسةٍ لا خير فيها، وليس هذا من الخوض في العلم، وإنما خوضٌ في الوساوس التي لا خير فيها، فينتهي عن ذلك.

- والأمر الثالث: يُجدد إيمانه بالله وبرسوله -صلوات الله وسلامه وبركاته عليه-.

الشيخ هنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما ذكر حديث لفت لفته عظيمة جدًا، أن مصداق هذا الحديث كلام الملاحدة، وهذا فيه إشارة أن الملاحدة إخوان الشياطين؛ لأن الشيطان هو الذي لا يزال بالمرء يقول له كذا ويقول له كذا، حتى يسأل هذا السؤال؛ فالملاحدة إخوان الشياطين، فمصداق ما جاء في الحديث ما وقع فيه الملاحدة (**الذين لا يزالون يخوضون في مادة المخلوقات ولهم نظرياتٌ متنوعة كلها خاطئة**)؛ لماذا كلها خاطئة؟ لأنها كما قدمت مبنية على وساوس الشيطان، وليست مبنية على العلم، وليست من العلم في شيء.

(**لأن مبناها على الخرص والظن الذي لا يُغني من الحق شيئًا، بل على خلاف المعلوم شرعًا وعقلًا وفطرة، فيتكلمون في علل الموجودات علةً بعد أخرى، ولم ينفذوا منها إلى موجدها وخالقها**)؛ علل الموجودات، كل موجود له موجد وكل موجود له موجد إلى ما لا نهاية، وهذا باتفاق العقلاء باطل، وبطلانه من الجهة التي أشار إليها الشيخ.

(**لم ينفذوا منها إلى موجدها وخالقها، بل أطلق عليه كثيرٌ من هؤلاء المتجرئين أنه علة العلل، فقطع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بهذا الكلام الصادق الحكيم بكذبهم، ونبه على جهلهم وجراءتهم، وأرشد المؤمنين إلى قطع هذه الشكوك والتشكيكات بالانتهاء**)؛ هذا واحد، (**والوقوف على أن جميع الموجودات كلها تنتهي إلى موجدٍ واحدٍ**)؛ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [سورة الرعد، من الآية:١٦]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة الصافات، من الآية:٩٦]، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ

رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[سورة الفاتحة، من الآية:٢]؛ **(كلها تنتهي إلى موجدٍ واحدٍ أحدٍ فردٍ صمد، الأول الذي ليس قبله شيء، الموجد لكل شيء)**؛ هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني: (وأمر بالتعوذ من الشيطان الذي يدفع إلى القلوب المريضة هذه الشكوك والأسئلة الفاسدة)؛ هذا الأمر الثاني.

الأمر الثالث: قال: **(وبالإيمان بوحدانية الله تعالى)**؛ يجدد الإيمان، «**وَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ**»، هذا تشديد للإيمان بوحدانية الله، **(وأنه ليس له مثيلٌ ولا نديدٌ ولا مشاركٌ في شيءٍ من كماله، وبما أرشد إليه** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يندفع ما قاله الملحدون، ويبطل)**.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

الوجه الثالث والخمسون: أن هؤلاء الملحدين ما زال بهم إلحادهم وغرورهم وضلالهم حتى زعموا أن الإنسان سيعلم كل شيء ويقدر على كل شيء، ووصفوه بأوصاف الرب، وهذا أمرٌ لم يصل إليه أحدٌ من بني آدم إلا هؤلاء الزنادقة الذين لم يخجلوا من مكابرة المحسوسات ومباهته المشاهدات، فإن كل أحدٍ يعلم حق العلم أن الإنسان ناقصٌ من كل وجه، وأن ما به من علم وقدرة فبتعليم الله واقداره، وأن الله قد جعل لعلم الإنسان وقدرته حدًّا لا يتجاوزه ولا يمكن أن يتجاوزه؛ لأنه في طور البشر، فكما أن الله هو الذي خلقه ولم يكن شيئًا مذكورًا؛ فهو الذي أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وآلات العلم، وأسباب القدرة البشرية.

وأما القدرة الربانية والعلم الإلهي فمن زعم أن أحدًا من الخلق يُشارك الله في شيء منها فهو مبرسمٌ مجنون، وإنما اغتر ضعفاء العقول بما شاهدوه من معلومات البشر ومقدوراتهم ومخترعاتهم حتى أدهشتهم وجزموا أنهم أدركوها بحولهم وقوتهم، وأنه ليس لقدرة الله فيها أثر، ولا لتعليمه لهم فيها أثر، فالله خلقكم وما تعملون، والله وحده الذي علم الإنسان ما لم يعلم، فما حصل من قدرة البشر فبأقداره، وما حصل لهم من علم ديني ودنيوي فبتعليمه.

ومع ذلك فعلومهم وقدرهم مهما بلغت وترقت، فإنها تضمحل إذا نُسبت إلى علم الله وقدرته، ولهذا قال الرسل والملائكة الذين هم أعلم الخلق.

الشرح:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾[سورة المائدة، من الآية:١٠٩]؛ يشير إلى هذه الآية.

المتن:

ولهذا قال الرسل والملائكة الذين هم أعلم الخلق: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾[سورة البقرة، من الآية:٣٢]؛ وقال موسى للخضر حين رأى عصفورًا نقر بمنقاره من البحر: "ما نقص علمي وعلمك وعلم سائر الخلق من علم الله إلا كما نقص البحر من نقرة هذا العصفور"، وفي الصحيح مرفوعًا أن الله يقول: «**يا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْت كُلَّ إنسانٍ منكم مَسْأَلَته، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ**»، فتبًا لمن زعم مشاركة المخلوق الضعيف القاصر من جميع الوجوه للرب العظيم المتفرد بالكمال من جميع الوجوه، وما أعظم جهلهم وضلالهم وعنادهم وجراءتهم، والله تعالى للطاغين بالمرصاد.

الشرح:

هذا الوجه يشير فيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى لأثر من الأثار التي تترتب على الإلحاد، والالحاد هو باب كل شر وفساد، فمن الآثار التي تترتب على الإلحاد ما أشار إليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه لا يزال بهم إلحادهم وغرورهم وضلالهم حتى زعموا أن الإنسان سيعلم كل شيء، وأنه ما زال يفتق العلوم وتتفتح له أبوابها ومداخلها وطرقها إلى أن سيقف على كل شيء، وسيعلم بكل شيء، ويصبح علمه؛ أي: الإنسان محيطًا بكل شيء، وهذا ضرب من ضروب الغرور والعجب الذي جرهم إليه إلحادهم، وأوصلهم إليه إلحادهم وزندقتهم.

وإذا نظر الناظر في هذه المسألة؛ مسألة علم الإنسان، ما هذا العلم الذي عند الإنسان حتى يغتر هذا الغرور ويصل إلى هذه الجرأة التي يدعي فيها أنه سيصل إلى أن يحيط بكل شيء علمًا، وأنه سيعلم كل شيء؟! فما هو هذا العلم الذي عند الإنسان؟ إذا نظر الإنسان، إذا تأمل الناظر فكل هذا العلم الذي عند الإنسان إنما هو علمٌ قليل، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[سورة الإسراء، من الآية:٨٥]؛ ثم كل هذا العلم إنما حصل للإنسان بتعليم الله، علمك ما لم تكن تعلم، ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾[سورة البقرة، من الآية:٣٢]، ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[سورة النحل، من الآية:٧٨]؛ أي: من منَّ عليكم بهذه الوسائل التي بها تحصلُّون العلم، وتكتسبون العلم؟ فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي علم هذا الإنسان، وهو

الذي أعطاه هذه الوسائل، وأخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا، وهذا العلم الذي عند الإنسان يتبجح هؤلاء بأنهم سيصلون إلى الإحاطة بكل شيء في العلم.

هذا العلم الذي عند الإنسان مسبوق بجهل، ثم ينتهي أيضًا إلى الجهل ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [سورة النحل، من الآية:٧٠]؛ قد يكون من حذاق البشر وأذكيائهم، فإذا كبر ذهب كل هذا، وانتهى وضعف إلى أن يصبح لا علم عنده، ولهذا في أواخر أعمار كثير من الناس تذهب كل العلوم التي عندهم جميعًا، إن كان طبيبًا، إن كان مهندسًا، إن كان كذا إلى آخره كلها تنتهي، يُسأل في العلم الذي تخصص فيه وبرع لا يعرف شيئًا، بل أعجب من ذلك يكون ابنه بجنبه يقول من هذا؟ يقول: لا أدري، ما يعرفه! كل شيء يذهب، فهذا علم الإنسان، وهو ما أوتي من العلم إلا قليل، فكيف يتجرأ هذا الإنسان ويدعي لنفسه مثل هذه الدعاوى الفجة الكاذبة؟!

يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فمن زعم أن أحدًا من الخلق يُشارك الله في شيءٍ منها**)؛ لما اختص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعلمه، (**فهو مبرسمٌ**)؛ يعني: مثل ما ذكر في المعاجم "أصيب بعلة" يُقال لها: البِرسام بكسر الباء، وهي علة تصيب الدماغ فتُتلفه، يتلف الدماغ تمامًا، فيُقال من يصاب بهذه العلة "مبرسم" بمعنى: مجنون لا يعقل.

(**فمن زعم أن أحدًا من الخلق يُشارك الله في شيءٍ منها فهو مبرسمٌ ومجنون، وإنما اغتر ضعفاء العقول بما شاهدوه من معلومات البشر ومقدوراتهم ومخترعاتهم حتى أدهشتهم وجزموا أنهم أدركوها بحولهم وقوتهم، وأنه ليس لقدرة الله فيها أثر، ولا لتعليمه لهم فيها أثر، فالله خلقكم وما تعملون، والله وحده الذي علم الإنسان ما لم يعلم، فما حصل من قدرة البشر فباقداره، وما حصل لهم من علم ديني ودنيوي فبتعليمه**)؛ ثم ذكر قول الرسل وقول الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٣٢]؛ ما يكون إلا بتعليم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمؤمن موفق يضيف النعمة إلى المنعم، والملحد والزنديق والضال يغتر بالعلم الذي عنده ويتعالى به ويتكبر، ويقول: هذا من عندي ونحو ذلك من الكلام.

المتن:

الوجه الرابع والخمسون: أن يُقال لهؤلاء الملحدين ما قاله الله لإخوانهم المكذبين، الذين هم دونهم بدرجاتٍ مبطلًا كل احتمالٍ يوجه للقدح في الرسول وفيما جاء به لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [سورة الطور، من الآية:٢٩-٣٠]؛ إلى آخر الآيات، هل هذا الرسول محمدٌ

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي جاء بالقرآن العظيم وبالشرع المبين شاعر، أو كاهن أو متقول أو ساحر، أو ما أشبه ذلك مما تضاربت به أقوالهم؟ أو هو أصدق الخلق وأبرهم وأنصحهم وأعلمهم، وأخشاهم لله، وأجمعهم لكل فضيلة، وأبعدهم من كل رذيلة؟ كما أجمع على ذلك كل من عرفه من مؤمن وكافر، وهذا هو الواقع.

الشرح:

نعم هذا الوجه الرابع والخمسون أورد فيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى الآيات التي جاءت في سورة الطور، آيات عظيمة جدًا، شأنها كما قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قالها الله لإخوان هؤلاء المكذبين، وإن كانوا دون الملاحدة، يعني تكذيبهم دون تكذيب الملاحدة، ورتبتهم فيه دون رتبة الملاحدة، فإذا كان يصلح لهذا رد لأولئك ورتبتهم دون فهو من باب أولى يصلح ردًا على الملاحدة في إلحادهم، وهي وجوه كثيرة متتالية جاءت في هذه السورة كلها مصَّدرة بقول: "أم" يقرر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها حجج عظيمة وبراهين قوية، برهانًا تلو برهان يقطع دابر هؤلاء المكذبين.

فبدأ ذلك السياق بقوله: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [سورة الطور، من الآية:٢٩-٣٠]؛ هذا أول ما جاء في هذه الوجوه في هذا السياق في بيان مكانة الرسول، وتكذيب الدعاوى الفاجرة التي يدعيها أعداؤه من أنه كاهن، أو ساحر، أو مجنون، أو شاعر، أو غير ذلك من الدعاوى التي تضاربت أقوالهم بها، منهم يقول: هو شاعر، ومنهم من يقول: هو كاهن، ومنهم من يقول: هو ساحر إلى غير ذلك، تضاربت أقوالهم في ذلك، والرسول الذي قالوا فيه هذا القول وادعوا فيه هذه الدعاوى (**هو أصدق الخلق وأبرهم وأنصحهم وأعلمهم، وأخشاهم لله، وأجمعهم لكل فضيلة، وأبعدهم من كل رذيلة**)؛ هذا هو حقيقة الأمر.

فإذًا الوجه الأول وسبق أن عرفنا أن طريقة أعداء الدين أيًا كانت عداوتهم للدين، بث الدعايات الكاذبة ضد أهله، ووصفهم بالأوصاف التي تنفر الناس، ولهذا لما أراد كفار قريش أن يصدوا الناس عن دين النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كانوا يبثون الدعايات، وكل ما دخل شخص غريب إلى مكة تحدثوا بهذه الدعايات حتى ينفر، فإذا مر غريب أخذ يحدث بعضهم بعضًا "محمد مجنون" وهكذا، "محمد كاهن"، فالداخل ينفر لا يفكر أصلًا أن يذهب إليه.

وقصة ضماد الأزدي وهي في صحيح مسلم عجيبة في هذا الباب، وهو كان سيدًا في قومه دخل مكة وهو يمشي في الطرق يسمع: "محمد مجنون" كل ما مشى "محمد مجنون"، وهذا ينفر من الذي يفكر أصلًا يذهب إلى شخصٍ يُقال عنه هذا الوصف؟ لكنه قرر يذهب إليه من جهة أخرى، وكان سبحان الله هي باب هدايته وهداية

قومه، عندما أراد الله له الهداية، قرر أن يذهب إليه من أجل أن يرقيه، عطف عليه، يسمع: "مجنون، مجنون"، فقال في نفسه كما أخبر قال: إني رجل راقي، وإن الله شفى على يدي ما شفى، لأذهبن إلى محمدًا وأقرأ عليه، لعل يذهب ما به من جنون، فذهب إليه لهذا الغرض، وفعلاً ذهب إلى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقابله، وقال له: معرفًا بنفسه قال: أنا رجلًا راقي، وإن الله نفع على يدي من نفع، وشفى على يدي من شفى، فهل لك في ذلك؟ أن أرقيك، يقول للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحب أقرأ عليك؟ فقال له النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**انتهيت؟**» قال: نعم، قال: «**إن الحمد لله نحمده ونستعينه..**»، جاء بخطبة الحاجة، والرجل يستمع قال: أعد علي كلامك هذا، فأعاده النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه، قال: سمعت كلام المجانين ما هذا بكلامهم، سمعت بكلام الشعراء ما هذا بكلامهم، سمعت كلام السحرة ما هذا بكلامهم، أعطني يدك أبايعك على الإسلام، اقتنع أن هذا كلام ليس هو الذي يقال عنه، أو الدعايات التي تبث حوله، وبايع على الإسلام، فقال له النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عنك وعن قومك**»؛ لأنه سيد قومه، قال: عني وعن قومي.

فالحاصل أن الوجه الأول في الردود في هذه الآيات إبطال هذه الدعايات الكاذبة التي يدعيها أعداء الرسول، وأعداء الدين العظيم الذي بُعث به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

المتن:

أم الذي أوجب لهم الرد والتكذيب أحلامهم وعقولهم؟ فبئست الأحلام والعقول..

الشرح:

مثل ما في الآية: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾[سورة الطور، من الآية:٣٢].

المتن:

فبئست الأحلام والعقول التي تجحد أكبر الأشياء وأوضحها، وتكذب بالحق وتنهج المناهج الباطلة وترضى لأنفسها بالشرك والاستكبار.

فعقولٌ وأحلامٌ هذه آثارها المسلوبة النفع مكفولٌ لها الشر والضرر، أم الذي حملهم على هذا التكذيب لا حد له ولا يتورع صاحبه عن محرمٍ ولا يمتنع عن جريمة، والطغيان مردٍ لأصحابه مهلك لهم لا محالة.

الشرح:

هذا أخذه الشيخ من قوله: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[سورة الطور، من الآية:٣٢]؛ يعني: ما الذي حملهم على هذا، هل هو كذا أو طغيانهم؟ الطغيان هو مجاوزة الحد، إذا كان الإنسان طاغي فلا يتورع عن كذب، ولا يتورع عن فجور، ولا

يتورع عن تهم كاذبة، هذا الطغيان مجاوزة الحد، أم حملهم على التكذيب الطغيان، طغيانهم وهو مجاوزتهم للحد ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[سورة الطور، من الآية:٣٢].

المتن:

أم يقولون: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تقوَّل هذا القرآن الذي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[سورة فصلت، من الآية:٤٢].

الشرح:

وهذا أخذه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[سورة الطور، من الآية:٣٣].

المتن:

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾[سورة الطور، من الآية:٣٤].

الشرح:

إن كانوا يقولون تقوُّل فليأتوا بحديث مثله، هذا لا يمكن أن يقوله البشر، هذا وحي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا جاء التحدي في آيات كثيرة أن يأتوا بمثله أو بسورة.

المتن:

وهذا التحدي قائمٌ من حين نزله الرب العظيم إلى أن تقوم الساعة لم يستطع ولن يستطيع كل منكرٍ له مكذبٌ له أن يأتي بمثله من جميع الوجوه اللفظية والوجوه المعنوية.

أم الذي حملهم على التكذيب والاستكبار أنهم مخلوقون من غير شيءٍ، بل دفعتهم الطبيعة وأوجدتهم المصادفة، فهذا قول السخف والجنون والمكابرة المعلوم بطلانه بالضرورة من كل عاقل، أم خلقوا السماوات والأرض وما فيها من العوالم التي لا يعلمها إلا الله، فإنهم مع الناس يعترفون أنهم أضعف شيءٍ، وأعجز شيءٍ.

الشرح:

وهذا أخذه من قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[سورة الطور، من الآية:٣٥]؛ وكلنا نعرف قصة جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع هذه الآيات كان يستمع إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صلاة المغرب، وهو يقرأ في سورة الطور، لما وصل إلى هذا الموطن، قال: "كاد قلبي يطير"، تفقه فيها، وعرف معناها، وقوتها في دلالتها، وعظم البرهان

الذي تدل عليه وتهدي إليه، قال: :"كاد قلبي يطير"؛ يعني: من قوة الدلالة والبرهان الذي اشتملت عليه هذه الآية، وكانت سبب إسلامه.

المتن:

أم عندهم خزائن رحمة ربك، يعطون من شاءوا، ويمنعون من شاءوا، ويحكمون بما شاءوا، فهم مسيطرون على الملك والمملكة.

الشرح:

﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾[سورة الطور، من الآية:٣٧].

المتن:

كل هذا يعترفون ببطلانه، فهم يعترفون أنهم فقراء مماليك لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ولا دفعًا للمكاره ولا جلبًا للمصالح.

أم الذي حملهم على هذا البهت والتكذيب؛ الكيد للرسول ولدينه، ونصر باطلهم حتى بالطرق التي يعرف كل عاقلٍ بطلانها، وهذا هو الواقع.

الشرح:

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾[سورة الطور، من الآية:٤٢].

المتن:

وأن الذي ينتصر للباطل وقد صمم على ذلك، لو جاءته كل آيةٍ لم يؤمن ولم يهتد؛ لأنه وطَّن نفسه على نصر الباطل ومقاومة الحق.

أم الذي حملهم على ذلك أن لهم إلهًا غير الله له من أوصاف الربوبية والإلهية ما يستحق به أن يُعبد مع الله ويُرد الحق لأجله، فسبحان الذي اعترفت المخلوقات بعظمته وسلطانه عما يشركون.

الشرح:

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[سورة الطور، من الآية:٤٣].

المتن:

فهو الإله الحق المبين الذي له جميع أوصاف الكمال، وبيده التدبير للعالم العلوي والسفلي الذي لا يستحق العبادة إلا هو، والذي لا يأتي بالحسنات والخيرات إلا هو، ولا يدفع السوء والسيئات إلا هو، الذي ليس له ندٌّ

ولا كفؤٌ بوجهٍ من الوجوه، فذكر تعالى كل احتمالاتٍ يوجهها أعداء الرسول إلى رسالته، ورد ما جاء به، وأن ذلك باطلٌ قد أبطلته العقول السليمة والفطر المستقيمة، وهذه الاحتمالات التي ذكرها الله عن أولئك قد قالها هؤلاء الملحدون الماديون من غير حياءٍ ولا خجل، تشابهت قلوبهم في الكفر فتشابهت أقوالهم، فلا دين، ولا خلق، ولا عقل، ولا حياء من الخلق في هذه الجراءات والعظائم والمنكرات التي قالوها، فلم يبق إلا أن يعذبهم الله، قال الله تعالى في آخر هذه الاحتمالات: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾[سورة الزخرف، من الآية:٨٣].

الشرح:

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن ينفعنا أجمعين بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا وتوفيقًا، وأن يصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يُصلح لنا شأننا كله إنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سميع الدعاء وهو أهل الرجاء.

أحب أن نقف قليلًا مع رسالة للشيخ ابن باز رحمة الله عليه، تتعلق بالنصف من شعبان؛ لأن من الناس من له بعض الاعتقادات في هذه الليلة ليس لها أصل، وليس لها مستند من كلام الله وكلام رسوله -صلوات الله وسلامه وبركاته عليه-، فالشيخ له رسالة نستمع إلى ما تيسر منها، ونكمل بقيتها، أو ما تيسر منها بعد سماعنا للآذان.

رسالة الشيخ ابن باز:

بسم الله الرحمن الرحيم، حُكم الاحتفال بليلة النصف من شعبان للإمام ابن بازٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، والصلاة والسلام على نبيه ورسوله محمدٍ نبي التوبة والرحمة، أما بعد..

فقد قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة، من الآية:٣]؛ وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[سورة الشورى، من الآية:٢١]؛ وفي الصحيحين عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»، وفي صحيح مسلم عن جابرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول في خطبة الجمعة: «**أَمَّا بعدُ؛ فإنَّ خيرَ الحَديثِ كتابُ اللهِ وخيرَ الهدْيِ هَدْيُ مُحمَّدٍ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وشرَّ الأُمورِ مُحدَثاتُها، وكلَّ بِدعَةٍ ضَلالةٌ**».

والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، وهي تدل دلالةً صريحة على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد أكمل لهذه الأمة دينها، وأتم عليها نعمته، ولم يتوف نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلا بعد ما بلغ البلاغ المبين، وبيَّن للأمة كل ما شرعه الله لها من أقوالٍ وأعمال.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأوضح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن كل ما يُحدثه الناس بعده وينسبونه إلى دين الإسلام من أقوال أو أعمال، فكله بدعة مردودٌ على من أحدثه، ولو حسن قصده، وقد عرف أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمر، وهكذا علماء الإسلام بعدهم، فأنكروا البدع وحذروا منها، كما ذكر ذلك كل من صنف في تعظيم السُّنَّة، وإنكار البدعة كابن وضاح، والطرطوشي، وأبي شامة وغيرهم.

ومن البدع التي أحدثها بعض الناس: بدعة الاحتفال بليلة النصف من شعبان، وتخصيص يومها بالصيام، وليس على ذلك دليلٌ يجوز الاعتماد عليه، وقد ورد في فضلها أحاديث ضعيفة لا يجوز الاعتماد عليها.

أما ما ورد في فضل الصلاة فيها، فكله موضوع، كما نبه على ذلك كثيرٌ من أهل العلم، وسيأتي ذكر بعض كلامهم -إن شاء الله-، وورد فيها أيضا آثار عن بعض السلف من أهل الشام وغيرهم، والذي أجمع عليه جمهور العلماء أن الاحتفال بها بدعة، وأن الأحاديث الواردة في فضلها كلها ضعيفة، وبعضها موضوع، وممن نبه على ذلك الحافظ ابن رجب، في كتابه: **[لطائف المعارف]** وغيره، والأحاديث الضعيفة إنما يُعمل بها في العبادات التي قد ثبت أصلها بأدلةٍ صحيحة، أما الاحتفال بليلة النصف من شعبان، فليس له أصلٌ صحيح حتى يستأنس له بالأحاديث الضعيفة.

وقد ذكر هذه القاعدة الجليلة الإمام أبو العباس شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأنا أنقل لك أيها القارئ، ما قاله بعض أهل العلم في هذه المسألة، حتى تكون على بينةٍ في ذلك.

وقد أجمع العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ على أن الواجب: رد ما تنازع فيه الناس من المسائل إلى كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وإلى سُنَّة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما حكما به أو أحدهما فهو الشرع الواجب الاتباع، وما خالفهما وجب اطراحه، وما لم يرد فيهما من العبادات فهو بدعةٌ لا يجوز فعله؛ فضلًا عن الدعوة إليه وتحبيذه، كما قال سبحانه في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [سورة النساء، من الآية:٥٩]، وقال: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة الشورى، من الآية:١٠]، وقال: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ

لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٣١]، وقال عَزَّوَجَلَّ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[سورة النساء، من الآية:٦٥]؛ والآيات في هذا المعنى كثيرة.

تعليق الشيخ:

ثم ذكر الشيخ نقول نافعة يمكن أن يقف عليها الراغب في الفائدة في هذه الرسالة له رَحِمَهُ ٱللَّهُ التي ألفها في حكم الاحتفال بالنصف من شعبان، وأن هذا الاحتفال ليس له أصل في هدي النبي الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسنته المأثورة عنه -صلوات الله وسلامه وبركاته عليه-، وخير الهدى هدى محمد وصَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعةٍ ضلالة.

نسأل الله أن يوفقنا أجمعين لكل خير، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا وتوفيقًا، وأن يُصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

(المجلس العاشر)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد...

المتن

فيقول العلَّامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتابه [**الأدلَّة القواطع والبراهين في إبطال أصول المُلحدين**]: «الوجه الخامس والخمسون: أن يُقال لهم مَن الذي خَلَقَ الأرض والسموات والشمس والقمر والكواكب وجميع ما بثَّ فيهما من دابَّة، والذي أنزل من السماء رزقًا فأنبَتَ به من كل زوجٍ كريم متاعًا للعباد ولأنعامهم؟

ومَن الذي أحكمها غاية الإحكام، وأودَعَ فيها من بدائع حِكمته ولطيف صنعته وأنواع جُوده وكرمه ورحمته، وجعلها أدلَّةً وبراهين على وحدانيته وقُدرته وعظمته؟

ومَن الذي خَلَقَ الإنسان في أحسن تقويم، وكمَّل ظاهره وباطنه بالقوى المتعدِّدة التي يحتاج إليها، وعلَّمه كيف يهتدي إلى مصالح دِينه ودُنياه، فعلَّمه:

- البيان العلمي.
- والبيان اللفظي.
- والبيان الرسمي.

حتى تمَّ له من الخير والصلاح والهُدى ما لم يتمَّ لغيره، وسخَّر له ما في السموات وما في الأرض يستدلُّ بآياتها ويستخرج منافعها ويستدرُّ خيراتها؟

فإن قالوا: هذا عمل الطبيعة، وهذا فِعل المصادفة فقد برهنوا على حماقتهم وجهلهم الذي لم يبلغه ضلال أحد؛ فأيُّ عملٍ للطبيعة التي تُوجِبُ هذه الآثار العظيمة؟! وأيُّ أثرٍ جعلها تعمل هذه الأعمال؟! وأيُّ عقلٍ وفِكرٍ هداها إلى هذه الأمور؟

أمَّا أهل العلم والبصائر والألباب، بل وجميع مَن له نوعٌ من العقل فسيقولون: هذا تقدير العزيز العليم، وهذا صُنْع الله الذي أتقَنَ كل شيءٍ وأحسن خَلْقَه، بديع السموات والأرض وهو العزيز الحكيم».

الشرح:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله صلَّى الله وسلِّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمَّا بعد..

فهذا وجهٌ آخر من الوجوه التي يُرَدُّ بها على أهل الإلحاد، والقائلين بأنَّ هذا الخَلْق إنَّما هو أثر من آثار الطبيعة والمصادفة، وأنَّه ليس لهذا الخَلْقَ خالق، ولا لهذه الموجودات مُوجِد؛ وإنَّما هي أثر من آثار الطبيعة والمصادفة وُجِدَت هكذا بلا مُوجِد.

فمِنَ الوجوه التي يُرَدُّ بها هذا الباطل، وأن يُظهَر بها من خلاله شناعة قَوْل هؤلاء وعِظَم فساده أن يبسط المرء القول في بيان هذه المخلوقات العظيمة؛ لأنَّ الطريقة التي ذَكَرَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا طريقة علمية نافعة جدًّا لَمَّا يُستحضر في مقام الرد على هؤلاء صنوف المخلوقات:

مَن خَلَق كذا؟

مَن خَلَقَ كذا؟

مَن خَلَقَ كذا؟

مَن أوجَدَ كذا؟

مَن الذي جَعَلَ كذا بهذه الصفة؟

مَن الذي أوجَدَ هذه المخلوقات على هذه الصفة؟

مَن الذي مَنَحَها هذه الهدايات؟

يُعدِّد تعدادًا مُفصَّلًا مثل ما ذَكَرَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى؛ فإنَّ هذا التعداد المُفصَّل مع هذا السؤال المكرر أو المتكرِّر: مَن الذي كذا؟

مَن خَلَق كذا؟

مَن خَلَقَ كذا؟

مَن خَلَقَ كذا؟

يُعدِّد تفاصِيل ما خَلَقَه الله عَزَّوَجَلَّ أو تفاصيل كثيرة مِمَّا خَلَقَه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهذا مِمَّا يُظهَر به شناعة قول هؤلاء:

إن قالوا: «هذه مصادفة»؛ فكل عاقل لا يقبل ذلك، ولا يُلائم العقول إطلاقًا، وتأباه إباءً مُطلقًا، كل هذا الإتقان، وهذا الإبداع، وهذه التفاصيل للخَلْق، وهذا الانتظام في المخلوقات، وهذه الهدايات في المخلوقات ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [سورة طه، من الآية: ٥٠].

تكون أثر المصادفة والطبيعة إطلاقًا العقل لا يمكن أن يقبل ذلك إلَّا إذا كان العقل مختلًّا، أو مثل ما عبَّر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ سابقًا: «مُبرسمًا»؛ مُبتلى بمرض، متعطِّل، لا يعمل، إذا كان فيه هذه الصفة فيمكن أن يكون.

أمَّا لمَّا تُعدَّد هذه المخلوقات والآيات العظيمة المتنوِّعة، البراهين الساطعة الواضحة وهي كلُّها هذه المخلوقات التي تُعدَّد كلُّها آيات على تقدير العزيز العليم، وكمال مَن خَلَقَها وأبدعها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي كل شيءٍ له آية تدُلُّ على أنَّه الواحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإذًا هذه طريقة من الطُّرُق النافعة: أن يُفصَّل في المخلوقات، وهذا الإبداع، وهذا الجمال، وهذا الإتقان، وهذا الإحكام في الخَلْق.

ثم أيضًا يُذكَر في المقام هذا: ما يتعلَّق بالإنسان نفسه وخَلْق الله له، وإعطائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومدِّهِ لهذا الإنسان بوسائل العلم (السَّمْع، والبصر، والفؤاد)؛ هذه كلُّها من الله.

وعلَّم الإنسان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما لم يعلم، علَّمه البيان -مثل ما ذَكَر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- علَّمه البيان، وتعليم الإنسان البيان يتناول ثلاث مراتب ذَكَرَها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

- **البيان العلمي**.
- **والبيان اللفظي**.
- **والبيان الرسمي**.

هذه كلُّها الثلاثة الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي خَلَقَ هذا الإنسان وعلَّمه البيان.

- **فالبيان العلمي**: تعلُّقه بالعقل.
- **والبيان اللفظي**: تعلُّقه بالسَّمْع.
- **والبيان الرسمي** (الذي هو الكتابي): تعلُّقه بالبصر.

فهذه الأمور جُمِعَت الثلاث في قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٣٦]؛ **فالله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي أعطاه آلات التعلُّم، وهو سبحانه الذي علَّمه البيان بأنواعه:

- **البيان العلمي**: الذي هو فيما يتعلَّق بالقلب.
- **واللفظي**.
- **والرسمي**.

هذا كلُّه بتعليم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهذا الإنسان.

فالحاصل: يُفصَّل تفصيلًا بهذه الطريقة، ثم يُقال: مَن الخالق لهذه الأشياء؟ **(فإن قالوا: هذا عمل الطبيعة)**؛ كل هذا التفصيل، وكل هذه الدقَّة..... **(فإن قالوا: هذا عمل الطبيعة، وهذا فِعل المصادفة)**؛ هكذا وُجِدَتْ مصادفة، مع أنَّ العقل لا يُمكن يَقبل أشياء قليلة جدًّا أن يُقال عنها هكذا: فِعل الطبيعة أو فِعل المصادفة؛ فكيف بالعالم كله وما فيه من إتقان وإبداع وعظمة ودلال ودلالة على جلال الخالق وكمال الرب العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

(فإن قالوا: هذا عمل الطبيعة، وهذا فِعل المصادفة فقد برهنوا على حماقتهم وجهلهم)؛ الذي لم يبلُغه أحدٌ في الضلال.

المتن:

«الوجه السادس والخمسون: قد شاهَدَ الخَلْق من جزاء الله للطائعين وهم الرُّسُل وأتباعهم، وعقابه للعاصِين المكذِّبين له ولرُسُله، آياتٌ بيِّنات وبراهين قاطعات، شاهَدُوها رَأْي عَيْن، ومَن لم يُشاهدها فقد تناقلتها القرون قرنًا بعد قرن، وتواتَرَتْ تواتُرًا لم يتواتَر له نظيرٌ من كل وجه.

فمَن الذي أرسَلَ الطوفان العظيم الذي غَشِيَ الأرض والجبال، وأهلَكَ الله به المكذِّبين لنوحٍ أجمعين، ونجَّاه ومَن معه في الفُلْك المشحون؟

ومَم الذي أرسل على عادٍ الرِّيح العقيم ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [سورة الذاريات، الآية:٤٢]، ونجَّى الله من هذا العذاب هودًا ومَن معه من المؤمنين؟

ومَن الذي أرسل الصَّيْحة والرجفة على ثمود فأصبحوا في ديارهم جاثمين، ونجَّى الله صالحًا ومَن تَبِعَه من المؤمنين؟

ومَن الذي جَعَلَ النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، وقَلَبَ على قوم لوطٍ ديارهم، وأهلَكَ قوم شُعَيْبٍ بعذاب الظُّلَّة؟

ومَن الذي فَلَقَ البحر حتى صار اثنَيْ عشر طريقًا وعَبَرَه موسى وقومه ناجِين، وأهلَكَ الله فرعون ومَن معه أجمعين؟

ومَن أيَّد موسى بالعصا واليد والجراد والقُمَّل والضفادع والدم، وفجَّر له الحجر اثنتَيْ عشرة عَيْنًا ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٦٠]، وأعطاه من الآيات ما فيه بلاءٌ مبِين؟

ومَن الذي أعطَى عيسى آياتٍ بيِّناتٍ مُشاهدات جَعَلَه يُبرئُ الأكمَهَ والأبرص ويُحيِي الموتى بإذن الله؟

ومَن الذي أيَّد محمدًا بالآيات البيِّنات والنصر العظيم، وشقَّ له القمر، وسلَّمَ عليه الشجر والحجر، وكم أجاب الله دعوته في إنزال الغَيْث وإمساكه، وفي شفاء الأمراض المتنوِّعة، وأنبَعَ الماء من بين أصابعه فرَوَى الخَلْق الكثير، وبارَكَ في الطعام الذي باشَرَه حتى أشبَعَ الخَلْق الكثير، وعَصَمَه من الناس وقد تكالبوا عليه من كل جانب، وحفِظَه وحَفِظَ ما جاء به؟

فبعض هذه الآيات تُوجِبُ لكل مُنصفٍ أن يعترف بوحدانية الله وكماله وصحة ما جاءت به الرُّسُل، وبُطلان ما ذهب إليه أعداء الرُّسُل في كل زمانٍ ومكان؛ وذلك أنَّ الباطل يُعرَف تارةً بتصويره وتقريره وببيان أدلَّته الواهية وشُبَهه الساقطة، وتارةً يُعرَف ببيان الحق ووضوح براهينه السمعية والعقلية، المشاهدات والمحسوسات والمتواترات.

فإذا عُلِمَ الحقَّ عُلِمَ أنَّ ما سواه باطل؛ فماذا بعد الحق إلَّا الضلال، فأنَّى يُصرَف المُلحدون، وإلى أيِّ شيءٍ يذهبون؟

والحمد لله على عافيته من هذا البلاء العظيم المُفضِي إلى العذاب الأليم».

الشرح:

أيضًا هذا وجه من الوجوه التي يُبطَل بها هذه العقيدة الفاسدة (عقيدة الإلحاد واعتقاد الملاحدة)؛ أن يُذكَر في هذا المقام سُنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الماضية بأَنْ ينصُر رُسُله واتباعهم ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [سورة غافر، الآية:٥١]؛ وكذلك ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم، من الآية:٤٧]، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٨٨].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، والتاريخ شاهِدٌ عظيم بذلك، مثل ما قال الشيخ: نَقَلَ الناس الأخبار نَقْلًا متواترًا، واستفاضت الأخبار بذلك بما جَعَلَها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من عواقب حميدة ومآلاتٍ طيِّبة للرُّسُل وأتباع الرُّسُل وما ألحَقَه بأعدائهم من العقوبات؛ فهذا من البراهِين على الوحدانية، وحدانية الله؛ لأنَّ هذا كلُّه تأييد من الله لرُسُله وأتباع رُسُله، أيَّدَهم بنَصْره، وأمدَّهم بعَوْنه، وحَفِظَهم بتوفيقه، وكان معهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهذا من البراهين.

وأيضًا ألحَقَه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأعداء الرُّسُل من العقوبات ونكال الأليم وعذابٍ فظيعٍ وعقوبةٍ شديدة؛ هذا أيضًا من البراهين على وحدانية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وممَّا يُوضِّح به هذا البرهان أَمْرٌ سَبَقَ الإشارة إليه وهو: أنَّ هؤلاء الرُّسُل عليهم صلوات الله وسلامه كلٌّ منهم يُخبِر أنَّه مُرسَل من الله، وأنَّه يحمِل رسالة من الله، وأنَّه مبعوث من رب العالمين، وأنَّه مجرَّد مُبلِّغ عن الله وَحْيَه وتنزيله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يزال مؤيَّدًا منصورًا غانمًا ظافرًا محفوظًا بحِفظ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [سورة يونس، الآيات:٤٤-٤٦].

الآية الأخرى قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة الشورى، الآية:٢٤].

فالحاصل: أنَّ هذا من البراهين سُنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الماضية في الخَلْق لتأييد أنبيائه ورُسُلِه وأصفيائه، وخُذلان أعدائه وإلحاق العقوبات العظيمة بهم، هذا كلُّه من شواهد الوحدانية وبراهينها.

المتن:

«الوجه السابع والخمسون: أنَّ الملاحدة يتشبَّثون لتأييد باطلهم بشُبَهٍ باطلةٍ تَرُوجُ على مَن لا بصيرة له، ويروِّجها المأجورون من الزنادقة المنتسبين للإسلام، يقولون: انظروا إلى حال المسلمين وما هم عليه من الضعف، وأنَّهم متأخِّرون في أمور الحياة، والذي أخَّرَهم دِينهم.

فيروِّجُون هذا من وجوهٍ متنوِّعة، وهذا مما يُعلَم أنَّ المستدِلَّ به مُبطِلٌ، وذلك أنَّ الواجب أن تنظُر إلى الدِّين الإسلامي في نفسه وما هو عليه من الإحكام والحُسْن العظيم، وما فيه من الهدايات إلى كل خيرٍ والذَّوْد عن كل شرٍّ وضرر.

وتنظُر أيضًا إلى حالة القائمين به المنفِّذِين لتعاليمه وأحكامه في أنفُسهم وفي العباد، كما كان عليه المسلمون في الصدر الأول؛ فإنَّك ترى فيه ما يُبهج الناظرين، وتقوم به الحُجَّة على المعاندين.

وأمَّا النظر إلى المسلمين التاركين لهدايته وإرشاده وتعاليمه العالية، المنحرفين عنه من وجوهٍ كثيرة؛ فهذا ظُلمٌ ووَضْعٌ للشيء في غير موضعه، فكما لا يقدَح ولا يضُرُّ العلوم النافعة إذا انتَسَبَ إليها وادَّعاها مَن لم يتَّصف بها ولا يُحتجُّ بحالهم على ذمِّ العلم، فهذا أبلغ وأولَى؛ ولهذا كان الوسيلة الوحيدة إلى عَوْد المسلمين إلى عِزِّهم ومجدهم وكمالهم عَوْدَهم إلى دِينهم الصحيح وتمسُّكهم بإرشاداته الدِّينية والدنيوية ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة الممتحنة، الآية:٥].

فحال المسلمين اليوم في تفرُّقهم وتشتُّتهم وتَرْكهم جمهور مقوِّمات دِينهم حتى انحلُّوا وضعفوا صار فتنةً للكفَّار والمنافقين، وحجابًا حائلًا، وشُبهةً لمَن يريد التلبيس؛ فلا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم».

الشرح:

هذا أيضًا وجه عظيم جدًّا في هذا الباب يذكُر فيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى شُبهة يُروِّجها أولئك، من خلالها يطعنون في الإسلام نفسه، ويقلِّلون من شأنه ومكانته وعظيم شأنه؛ فيتحدَّثون عن بعض المنتسبين للإسلام أو بعض ضِعاف الدِّين وضِعاف الإسلام، وما هم عليه من أخلاقٍ -مثلًا- سيِّئة، أو تعامُلاتٍ سيِّئة، أو تصرُّفاتٍ ليست بلائقة، أو ما عليه بعضهم من عدوان أو ظُلم أو بَغْي، أو نحو ذلك؛ فيقولون: هذا هو الدِّين.

حتى إنَّه في زماننا هذا يتعمَّد أعداء دِين الله إلى الإتيان إلى بعض الأعمال المُنكرة المُبتدعة المُحدَثة التي يظهر للعاقل فسادُها وأنَّها ليس من دِين الله، ثم يُصوِّرونها تصويرًا دقيقًا، ثم تُبثُّ في قنواتهم على أنَّ هذا هو الإسلام تنفيرًا منه ليس دِعايةً لهم؛ وإنَّما تنفيرًا منه، وإظهارًا أنَّ هذا هو الدِّين.

فالناس ينفرون، ولا يقبلون دِينًا يدعو إلى هذه الأشياء، وهذا من الظُّلْم، الطريقة هذه من الظُّلْم والجِناية على الإسلام وعلى أهله الذين هم أهله حقيقةً.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أشار إلى أمر مهم في هذا الباب في مقام الرد وهو: أن يُقال في عموم الأديان، هو ليس فقط عموم الأديان؛ حتى المِهَن، لمَّا تأتي مثل -ما مثَّل الشيخ- إلى الطب -مثلًا-: لو جاء الإنسان إلى بعض الأطبَّاء الذي هم يُمارسون هذه المهنة بغير إتقان، ويُمارسونها بغير ضبط للعمل فيضرَّر الناس من أعمالهم، ويستعملونها ابتزازًا وأكل للأموال ويضرُّون بالناس، ويكون مستواهم -مثلًا- غير مؤهَّل لهذا العمل، واسمهم «أطبَّاء».

لو جاء إنسان وطَعَنَ في الطب كله وقال: «انظروا الأطباء» هل هو مُنصف؟ طَعَن في الأطباء أجمعين، قال: «انظروا هؤلاء الأطبَّاء، انظروا طريقتهم»؛ وهو يتحدَّث عن فئة معيَّنة ليست بالمستوى الصحيح.

حتى أيضًا إذا نظرْتَ في الأديان، أنا أذْكُر مرةً كنت في حديث فأحد النصارى -يعني- ما يُسمَّى مداخلة، فكُنت أتحدَّث عن الأخلاق الإسلامية بتفصيل في ضوء الكتاب والسُّنَّة، فاتَّصل وقال: أنا أعيش في منطقة كذا كذا (سمَّاها)، قال: ما أرى هذه الأشياء، أنا من أفراد قليلين في المنطقة من غير المسلمين والمنطقة كلها مسلمين، ما رأيتُ هذه الأخلاق وهي غير موجودة.

فقلتُ: أنت ما هي ديانتك؟

قال: نصراني.

فقلتُ له: هل أهل الديانة النصرانية كلهم هم ضابطون لها تمامًا، قائمون بأعمالها كلهَّا وإلَّا فيهم المُجِدّ وفيهم المُفرِّط وفيهم الـ.....؟

قال: هو كذلك.

وهكذا جميع الأديان؛ المقصود من الكلام هذا: أنَّه لا يصحُّ أن يُطعَن في الدِّيم بما يُشاهَد عليه بعض أهله من تقصير.

ولهذا تُؤْثَر كلمة أحد الأشخاص -لا أذْكُر مَن هو؟- شَرَحَ الله صدره للإسلام، فكان يقول: «الحمد لله أنِّي عرفتُ الإسلام قبل أن أعرف المسلمين»؛ وطبعًا يتحدَّث عن من رآه؛ وإلَّا المسلمون لا يزال في كثيرٍ منهم خير، والنقص موجود، التقصير موجود.

فتقصير بعض المسلمين أو كثير منهم في أعمال الإسلام وعدم تطبيقهم لها لا يُعَدُّ حُكمًا على الإسلام نفسه، فمَن اعتبره حُكمًا على الإسلام نفسه فهذا ظُلْم وليس من الإنصاف في شيء، بل هذا من التجنِّي والتعدِّي.

أيضًا جانب آخر: ما عليه بعض المسلمين من مخالفات للإسلام، وارتكابات لأمور مُحرَّمة في الإسلام؛ صاروا بذلك فتنة للذين كفروا، وفي الدعاء دعاء قووم موسى لمَّا علَّمهم التوكُّل على الله ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة يونس، من الآيتين: ٨٤-٨٥].

فالحاصل: أنَّ الشخص المسلم إذا كان لا يُطبِّق تعاليم الإسلام ويراه غير المسلم، ويظُنُّ أنَّ هذا هو الإسلام؛ أصبح ماذا؟ فتنة للظالم، وفتنة للكافر؛ لأنَّه صدَّه عن الإسلام حيث ظنَّ أنَّ الذي يقوم به هذا الشخص هو الإسلام.

ورؤوس أعداء الدِّين وأكابرهم يتعمَّدون البحث عن هذه الأشياء السيِّئة عند بعض المسلمين، حتى أيضًا ما أشرْتُ إليه (البِدَع) التي يُمارسها بعض الضُّلَّال باسم الإسلام وهي شنيعة جدًّا فيأتون ويصوِّرونها وينشرونها في قنواتهم أنَّ هذا هو الإسلام؛ فالنفوس تنفُر، فأصبحوا بتلك الأعمال فتنة للظالمين وفتنة للكافرين.

الحاصل: أنَّ هذه شُبهة -مثل ما ذَكَرَ الشيخ- من خلالها يُروِّج أكابر هؤلاء من خلالها يروِّجون صدًّا عن الإسلام بما عند بعض المسلمين من تقصير أو مخالفة أو ارتكابٍ لأمور هي أصلًا مُحرَّمة في الإسلام.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «الوجه الثامن والخمسون: قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية:١١٦]؛ وهذا أَمْرٌ مُشاهَدٌ محسوس: أكثر أهل الأرض ضُلَّالٌ منحرفون دُعاةٌ إلى الضلال بأنواع الدعايات التي نهايتها أن تصل إلى هذا الذي ذَكَرَه الله ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾؛ فجميع ما يحتجُّون به على باطلهم ظنونٌ خاطئة، وتخرُّصاتٌ ونظريَّاتٌ فاسدة.

واعتبِر ذلك بنظريَّات عِلل الوجود التي لا يزالون يُحدِّثون عنها بأحاديث متناقضة، ولا يزالون يُحدِثُون نظريات وتجربات في عِلَّة العِلَل فيُبطلونها؛ لأنَّه مُحالٌ أن يستقرَّ لهم قولٌ صحيحٌ في ذلك حتى يُؤمنوا بخالق الوجود وموجد العِلل والمعلولات والقادر على كل شيء، الذي جميع الذوات والعناصر والأسباب والمُسبَّبات كلها مُنقادةٌ لمشيئته وحِكمته، ليس لها من الأمر شيء؛ وإنَّما هو حكيم في وَضْعها مواضعها وتنزيلها منازلها.

وكذلك اعتبر هذا بخَرْصهم الباطل، وقولهم بشمول الترقِّي لكل موجود عمومًا وللإنسان خصوصًا في أخلاقه ودِينه وآدابه وأعماله وصناعته، حتى أخَذَها المغترُّون عنهم قضيةً مُسلَّمة، وهي لا تحتاج إلى نظرٍ كثير؛ بل يُعلَم بالبداهة والضرورة أنَّ الترقِّي إنَّما هو في الأوقات القريبة في علوم الصناعات والمخترعات، وبهذا اغترُّوا وغرُّوا غيرهم.

أمَّا الترقِّي في الأفكار الصحيحة والعلوم الصادقة النافعة والأخلاق الفاضلة فإنَّها هَبَطَتْ هبوطًا لا يمكن التعبير عنه، وإذا أردتَ أن تعرف ذلك يقينًا فخُذْ نموذجًا من الأمثلة وقِسْ أفكارهم وعلومهم وأخلاقهم بالأفكار الراقية والعلوم الصادقة والأخلاق الفاضلة.

مثال ذلك: أنَّ أفكار الماديِّين حَصَروها في المادة ولم يلتفتوا بالكلية إلى غيرها، فأدركوا منها ما وَصَلَت إليه أفكارهم، فهذه أفكارهم في أمورٍ ضيِّقةٍ أوجَبَت لهم جَحْد ما سواها وضيَّقت علومهم وأكسبتهم الشقاء العاجل والآجل.

وأمَّا الأفكار الدِّينية: فإنَّ أهل الدِّين الصحيح استعملوا أفكارهم فيما هُيِّئَتْ له وخُلِقَتْ له، عَلِموا أنَّ الله خَلَقَهم لمعرفته وعبادته وحده لا شريك له، وأنَّهم إذا قاموا بذلك أتمَّ الله عليهم نعمته وأسعدهم سعادةً أبدية وفلاحًا دائمًا.

ومع ذلك فقد سخَّر لهم ما في السموات والأرض، وأدرَّ عليهم الأرزاق ليتوصَّلوا بها إلى المقصود مِمَّا خُلِقوا له فيصلح دِينهم ودُنياهم، وليحيوا في هذه الدار حياةً طيِّبة، فبالله عليك هل تُنسَب تلك الأفكار الدِّينية إلى هذه الأفكار الجليلة العلية؟

وقد ترتَّبت علوم الفريقين على هذه الأفكار المتباينة، فالماديُّون قَصَرُوها على علوم المادة فتمَّ لهم منها ما تمَّ، والمؤمنون عَرَفوا الله بأسمائه وصفاته وأحكامه ودِينه ظاهره وباطنه، فعلومهم الجليلة لا يمكن أن يُقاس بها أو يُقاربها شيءٌ من العلوم الأُخَر.

ومع ذلك فقد شاركوا علماء المادة في عِلمهم الذي يحتاجون إليه في إصلاح دِينهم ودُنياهم، فإنَّ دِينهم قد جاء بالإصلاحات المتنوِّعة كما تقدَّم.

وأمَّا الأخلاق: فأهل الإلحاد والمادة انحلَّت منهم الأخلاق انحلالًا ذائبًا حتى صاروا كالبهائم بل أضلُّ منها وأخس، مَرَجَتْ أخلاقهم وذهبت عهودهم واستباحَتْ كل مُحرَّم، وانطلقوا في شهوات الغَيْ لا يثنِيهم عنها

دِينٌ ولا خُلُق ولا حياءٌ من الله ولا من خَلْقه كما هو معروفٌ من أحوالهم، فذَهَبَ دِينهم ولم تستقم دُنياهم فيعيشوا فيها عِيشةً طيِّبةً هادئة، خسروا الدنيا والآخرة.

وأمَّا المؤمنون: فإنَّ أخلاقهم كلُّ خُلُقٍ مُستحسنٍ عقلًا وشرعًا وعُرفًا، وهي الأخلاق التي تجعل صاحبها في المراتب العالية والأوصاف الجميلة الحميدة كما هو معروفٌ منهم مُشاهَد».

الشرح:

هذا وجه آخر أيضًا انطَلَقَ فيه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى من الآية الكريمة وهي قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية:١١٦]؛ ففي ضوء هذه الآية أَخَذَ يُبيِّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ما عند أهل الدِّين الإسلامي القويم بما أكرمهم الله ومنَّ عليهم به من التزام الوحي والاهتداء بهُدى الله الذي أنزله على أنبيائه ورُسُله الكرام، فاستقامَتْ لهم جميع المصالح بأنواعها الدِّينية والدنيوية والأُخروية.

وما عند أولئك الذي يزعمونه عِلمًا إنَّما هو خَرْصٌ وظن؛ هكذا وَصَفَه العليم بخَلْقه الحكيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾.

وإن زَعَموه علمًا أو رُقيًّا أو تقدُّمًا أو... أو... إلى غير ذلك فهو كلُّه كما وَصَفَه رب العالمين بذلك ظنٌّ وخَرْصٌ، والظن لا يُغنِي من الحق شيئًا.

وفي ضوء الآية الكريمة أَخَذَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُفصِّل تفصيلات بديعة جميلة جدًّا من خلالها يُوضِّح أنَّ القوم ما عندهم إلَّا هذا الذي ذَكَرَه الله عنهم وهو كل ما عندهم هو ظنون وخَرْص، نعم عندهم أشار إلى هذا عندهم تقدُّم في جانب العلوم الدنيوية؛ لكن رُقِي بالقلوب والأخلاق والنفوس وتزكيتها وربطها بما خُلِقَتْ له وأُوجدَت له هذا هبوط مثل ما ذَكَرَه الشيخ، وليس عنده فيه أي رُقِي أو أي تقدُّم؛ بل الذي عنده في ذلك كل هبوط.

والحاصل: أنَّ كل ما عند هؤلاء فيما يتعلَّق بالغاية والمَقصَد كلُّه خَرْصٌ وظن لا يعدو ما ذَكَرَه الله وَصْفًا لهم ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾.

المتن:

«الوجه التاسع والخمسون: أنَّ الشريعة الإسلامية قد حَكَمتْ على الخَلْق أحكامًا جميلة لا يمكن إصلاح الأمور إلَّا بها؛ لأنها تُوجِّه الظواهر والبواطن إلى الخير، وتزُودهم عن الشرور.

أمَّا باطنها: فلأنَّ المتَّصِفِين بها الملتزمين للدِّين على وجهه قد توجَّهَتْ قلوبهم إلى القيام بالدِّين، واعتبروه أفرض الفرائض وأوجب الواجبات، راجِين بذلك فضل الله وثوابه، مُحتسبِين خيره، ومَن خَرَجَ عن هذا منهم فقد جَعَلَتْ له الشريعة من الحواجز والروادع والحدود ما يُعِينه على التزامه في عقائده وأخلاقه وآدابه وحقوقه الجميلة المُعتَرَف بحُسنها عند العقلاء، وذلك السبيل الوحيد إلى إصلاح المجتمع واستقامة الأحوال وسلوك الصراط المستقيم.

وأمَّا القوانين المُلحِدة: فإنَّ غايتها إذا قَوِيَتْ أن تُسيطر على بعض الظواهر.

وأمَّا الأخلاق، والبواطن، والإيمان، والأمن على الأرواح وعلى الأموال والحقوق: فهيهات أن تقوم بها قوانين إلحادية تهدف وتقصد أن يكون البشر كالبهائم إباحيين فوضويين في أفكارهم وإرادتهم ومراداتهم، وتُفضِي إلى الشرور وتنتهي إلى الحروب، وهذا أمرٌ لا يرتاب فيه عاقل.

ومِمَّا يؤيِّد هذا أنَّ الأحكام الدِّينية التي أرشَدَ إليها الشارع باقيةٌ ببقاء البشر، صالحةٌ لكل زمانٍ ومكان، بل لا تصلح الأمور إلَّا بها.

وأمَّا قوانين البشر وأنظمة السياسيِّين التي لم تُبْنَ على الدِّين: فإنَّها مؤقَّتة بحسب ما يرون من مصالحهم ومضارِّهم في الوقت الذي هم فيه، ثم تتغيَّر وتتبدَّل وربَّما غيَّرها واضِعوها؛ لأنَّها من صنيع البشر، وصُنْعهم كلُّه ناقص، والشريعة الإسلامية من صُنْع العزيز الحكيم العليم الذي أحاط بكل شيءٍ علمًا، وعَلِمَ مصالح العباد في كل الأوقات والأحوال فشَرَعَها صالحةً لهم موافقةً لمصالحهم دافعةً لمضارِّهم، وهذا من أعظم البراهين على إبطال جميع الأصول والأنظمة والأساسات المناقضة للدِّين، والله أعلم.

الشرح:

الأمر كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [سورة طه، من الآية:١٢٣]؛ حَكَمَتْ الشريعة أحكامًا جميلة عظيمة لا تنتظم مصالح الناس ولا تستقِيم إلَّا بها، والإصلاح الذي جاءت به الشريعة هو إصلاحٌ للظاهر والباطن:

أمَّا الباطن: فبالعقائد الصحيحة، والإيمان الراسخ، والأخلاق الفاضلة التي زُكِّيَتْ بها القلوب وهُذِّبَتْ بها النفوس؛ فكانت هي الزاجر وهي الرادع وهي المُعِين على كل فضيلةٍ وخير، وأصبح الوازع في المسلم دِينه يُحرِّكه إلى التزام الآداب العظيمة ما قام في قلبه من دِين وخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأيضًا يردَعه عن الشنائع والعظائم أيضًا دِينه وإيمانه.

ومَن يقع في الجرائم من أهل الإسلام هذا من نَقْص دِينه وضَعْف إيمانه؛ ولهذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نَهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»؛ هذا من نَقْص إيمانه.

فالإسلام غذَّى القلوب بالإيمان، بالعقيدة، بالأخلاق الفاضلة التي تُزكِّي الشخص وتُهذِّبه في تعامُلاته، إلى غير ذلك.

إذا قُورِن هذا الذي جاء به الإسلام بالقوانين التي تردَع فهذه القوانين كلها متعلِّقة بماذا؟ كلها متعلِّقة بالظاهر، لا تتناول القلوب تزكية لها وتهذيبًا لها، فَرْقٌ بين ما صلاحه وصلاحٌ من باطنه، واستقامته والتزامه استقامة من باطنه من قلبه، وبين مَن يلتزم بأمور وأشياء لقوة القانون وسطوته.

فالإسلام شأنه عزيز جدًّا، والإصلاح الذي أتى به الإسلام شأنه عظيم ولا يمكن أن يستقِيم الأمر وتتهذَّب الأمور وتنتظم أحوال الناس إلَّا بالتزام هذا الدِّين العظيم وهداياته المباركة التي لا صلاح للبشرية ولا استقامة لأَمْرها إلَّا به.

المتن:

قال: «واعلم أنَّه لا يوجد قانونٌ صحيحٌ أَخَذَتْ به الأُمم إلَّا وهو في الدِّين على أكمل ما يكون وأصحِّ ما يكون وأسلَم ما يكون من النَّقْص؛ فليأتِ المرتاب بمثالٍ واحدٍ خارجٍ عن هذا الأصل إن كان صادقًا».

الشرح:

هذا لَفْت أيضًا جميل في الباب، يقول: القوانين إذا كانت صحيحة ونافعة يقول: لا يمكن أن يوجد قانون صحيح نافع أَخَذَتْ به الأُمم (**إلَّا وهو في الدِّين على أكمل ما يكون وأصحِّ ما يكون**)؛ لأنَّ الدِّين أتى بكل خير وكل صلاح، وما بَعَثَ الله من نبي إلَّا كان حقًّا عليه يدُلُّ أُمَّته إلى خير ما يعلمه لهم، وأن يُحذِّرهم من شرِّ ما يعلمه لهم.

المتن:

«الوجه الستون: قال الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٠١]؛ فذكَرَ جَلَّجَلَالُهُ أمرَيْنِ عظيمَيْن يمتنع ويستحيل وجود الكُفر مع معرفتهما إلَّا من مُعانِدٍ ومُكابر ؛ فلا عبرة به ولا حيلة في هدايته:

أحدهما: آيات الله التي تُتلَى على العباد، وفيها الآيات البيِّنات والحُجج القاطعات المتنوعة من كل وجه، فمَن عَرَف القرآن وتأمَّله، ورأى اتِّفاقه وعدم اختلافه وأحكامه وبلاغته وصِدْق ما أخبر به من الغيب والشهادة وحُسن ما شَرَعَه وحَكمَ به عَرَفَ أنَّه من عند الله، وأنَّ البشر، بل الإنس والجن والخلائق لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٨٨].

وكذلك مَنم عَرَفَ الرسول محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما هو عليه من الكمال المتنوِّع الكامل في روحه وخُلُقه، الكامل في عقله ومعرفته، والكامل في إنسانيته بجميع مظاهرها، الذي اجتمع به الكمال الإنساني من كل وجه.

مَم عَرَفَه على هذا الوجه عَرَفَ وتيقَّن أنَّه رسول الله حقًّا ونبيه صِدْقًا، وامتنع مع ذلك أن يُنكِر رسالته، بل تحقَّق صِدْقها وبُطلان ما ناقَضَها. والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية:٢٨]، ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [سورة فصلت، من الآية:٩] الآيات؛ فتعجَّب تعالى ممَّن يكفر به وهو يُشاهد -وكل أحدٍ له عقلٌ يُشاهد- أنَّه الخالق للموجودات عمومًا وللآدمي خصوصًا المُوجد له بعد العدم، المتصرِّف فيه بالأحكام القدرية والأحكام الشرعية وأحكام الجزاء؛ فكيف يستسيغ أحدٌ بعد هذا البرهان أن يعدل إلى الإلحاد والكُفر والإنكار؟ ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية:١٠]؛ وهو الذي يُطعِمُ ولا يُطعَم وهو الغني بذاته، والكون كله فقيرٌ إليه بذاته من كل وجه».

الشرح:

هذا (**الوجه الستون**)؛ ذَكَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الآية وأشار إلى أنَّ لها نظائر؛ فهذه الآية ونظائرها في القرآن كلها مُوقظة ومُنبِّهة إلى الاحتجاج على مَن يجحَد في الله ويكفُر بالله ولا يُؤمِن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذِكْر البراهين العظيمة المُبطلة لِمَا يكون عليه الكافر من جحودٍ وكُفرٍ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ففي القرآن آيات مُصدَّرة بهذا، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية:٢٨]، ثم تُذكَر البراهين ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٠١]، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية:٢٨]، ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ [سورة فصلت، من الآية:٩]؛ فهذه آيات لها نظائر في القرآن يُرَدُّ

بها على الكافر أيًّا كان كُفره بذِكر هذه البراهين التي في هذه الآيات على عظمة الله وكمال تدبيره، وأنَّه الخالق لهذه المخلوقات؛ فكيف يكون من العاقل كُفرٌ بالله، وهذا شأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهذه عظمته وهذه الآيات الدالة على وحدانيته جلَّ في عُلاه؟!

المتن

«الوجه الحادي والستون: أنَّ هؤلاء الملاحدة الماديِّين فَسَدَتْ عقولهم، مداركها وأعمالها وسلوكها؛ وذلك أنَّ صحة العقل أن يُدرك الحق، وأن يعمل به ويسلك الطريق النافع، وهؤلاء أنكروا وجَحَدوا الحق، فإنَّ الله هو الحق، وقوله حق ودِينه حق ووَعْده ووعِيده حق، قامت على ذلك البراهين القاطعة الكثيرة التي هي أقوى البراهين وأصدقها.

وشَهِدَ بذلك لنفسه، وشَهِدَ به خيار الخَلْق من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، وشَهِدَ به جميع العقلاء، وعليه فُطِرَت الخليقة، فمَن أنكَرَ هذا فهو:

- إمَّا مُعاندٌ مكابِر قد فَسَدَ سلوكه وعمله وقَصْده التي هي ثمرة العقل.

- وإمَّا مُشتَبِهٌ عليه الأمر؛ فهذا أعظم الناس على الإطلاق جَهْلًا وضلالًا؛ لأنَّه ضلَّ بأوضح الأشياء، واشتبه عليه الليل والنهار والضياء والظُّلمة.

وكل مَن فَسَدَ إدراكه أو سلوكه أو كلاهما فإنَّ أقواله لاغية باتِّفاق العقلاء؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكل مَن يَقبل قول هؤلاء الملحدين رجلَيْن:

- إمَّا جاهلٌ بحقيقة أَمْرهم.

- وإمَّا ظالمٌ يريد علوًّا في الأرض وفسادًا أو جامعٌ بين الوَصْفَيْن.

وهذه حال أتباع فرعون الذين قال الله فيهم: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [سورة الزخرف، من الآية:٥٤]، وحال القرامطة مع رؤسائهم، وحال الكفار والمنافقين في أئمَّتهم الذين ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [سورة القصص، من الآية:٤١]».

الشرح:

حاصل الكلام هنا: أنَّ قول هؤلاء لا يمكن أن يقبله عقل، لا يمكن أن يقبله عاقل؛ قولٌ تَناهَى في الفساد والشر وظَهَرَ فساده ظهورًا جليًّا بيِّنًا لا يمكن أن يقبله أحد إطلاقًا.

لكن مَن يقبَل هذا القول الذي هو في غاية الفساد ومُنتهى السوء هو أحد رجلَيْن كما ذَكَرَ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

- **(إمَّا رجل جاهل بحقيقة أمرهم)**؛ ما عَرَف حقيقة أمرهم؛ فغُرِّرَ به بجهله وسَمِعَ دِعايات فقط وأسماء مزخرفة مزيَّنة؛ لكن حقيقة الأمر ما عَرفه، والقوم عندهم مَكْر في زخرفة القول وتزيينه، وإطلاق عبارات ربما الجاهل تغُرُّه؛ فإمَّا جاهل مُغرَّر به لجهله المطبق.
- **(وإمَّا ظالم)**؛ يعرف أنَّهم على باطل وله مطامع علوّ في الأرض وفساد في الأرض فيقبَل لا عن اقتناع بما هم عليه؛ وإنَّما للمطامع التي يطمع بها أو يكون جامعًا بين الوَصْفَيْن.

المتن:

«الوجه الثاني والستون: أنَّ قول هؤلاء المُلحدين الماديِّين إذا تُصُوِّر على حقيقته جَزَمَ العاقل ببطلانه وقال: كيف اشتبه هذا على أحد ويتعجَّب من اعتقادهم إيَّاه.

قال شيخ الإسلام: ولا ينبغي للإنسان أن يَعجَب، فما من شيءٍ يُتخيَّل من أنواع الباطل إلَّا وقد ذهب إليه فريقٌ من الناس.

ولهذا وَصَفَ الله أهل الباطل بأنَّهم أموات، وأنَّهم: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٨]؛ فهم لا يفقهون ولا يعقلون، وأنَّهم: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۝٨ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ﴾ [سورة الذاريات، الآيتان:٨-٩]، وأنَّهم في رَيْبهم يتردَّدون ويعمهون. انتهى كلامه.

فصورة قول هؤلاء الملاحدة أنَّ جميع الموجودات وُجِدتْ بغير مُوجِد، وُجِدَتْ مصادفة من طبيعةٍ عمياء لا علم لها ولا قَصْد ولا شيء من الشعور العلمي ولا الشعور الإرادي، فلو صُوِّرَت المُحالات والممتنعات بأوضح من هذا التصوير وأشدِّه مكابرة للعقول لم يهتدِ المُصوِّر إلى تعبيرٍ عن شيءٍ ممتنع أبلغ من هذا المنطق الجنوني، وهذا من جزاء مَن جاءه الحق فردَّه، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١١٠]».

الشرح:

هذا يؤكِّد عليه الشيخ أكثر من مرة في ردوده على هؤلاء: أنَّ تصوُّر المذهب (مذهب هؤلاء) على حقيقته كافٍ في بيان بُطلانه، وظهور فساده، وأنَّه لا يمكن أن يقبله عاقل.

وتصوُّر المذهب يجعل مَن يتصوَّره حقيقةً يتعجَّب كيف يوجد أُناس يقبلون هذا الدِّين؟

ثم ينقُل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: (**ولا ينبغي للإنسان أن يَعجَب**)؛ لأنَّ ما في هناك ضلال إلَّا ويُوجد مَن يأخذه لكل قولٍ وارث، ولكل ضرع حالب، ما يوجد قول من الأقوال إلَّا ويوجد مَن يُتَّبَع فيه، حتى شاء -مثل ما ذَكَرَ- يتعجَّب الإنسان أن يُوجَد مَن يعتقد مثل هذه العقيدة.

ولو أَخَذَ الشخص يُعدِّد من العقائد التي عليها كثير من الناس يتعجَّب العاقل كيف يوجد مَن يعتقد مثل ذلك؛ فيقول شيخ الإسلام: (**ولا ينبغي للإنسان أن يَعجَب، فما من شيءٍ يُتخيَّل من أنواع الباطل إلَّا وقد ذهب إليه فريقٌ من الناس**).

ويُزِيل العجب في هذا ما ذُكِرَ بعد، قال: (**ولهذا وَصَفَ الله أهل الباطل بأنَّهم** أموات، وأنَّهم: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٨]؛ فهم لا يفقهون)؛ الذي هذه الصفة ما يُتعجَّب أن يكون عنده مثل هذه الاعتقادات أو التصوُّرات أو.... أو.... نحو ذلك.

ثم عاد الشيخ يُصوِّر مذهب الملاحدة الذي لا يُتصوَّر أحد أن يعتقده، فصوَّر المذهب باختصار: أنَّهم يعتقدون (**أنَّ جميع الموجودات وُجِدتْ بغير مُوجِد، وُجِدَتْ مصادفة من طبيعةٍ عمياء لا علم لها ولا قَصْد**)؛ لا عندها إرادة ولا شيء من (**ولا شيء من الشعور العلمي ولا الشعور الإرادي**)؛ وهذا الوجود كله أثر لهذه الطبيعة.

يقول الشيخ: لو أراد إنسان أن يضرب مثل للشيء الممتنع المُحال لم يَجد أبلغ هذا التصوُّر الذي عند هؤلاء؛ لأنَّ هذا محال ممتنع، ولا أبلغ في وَصْف الممتنع من أن يُضرَب مثال له من الذي يعتقده هؤلاء في وجود هذه الكائنات، وأنَّ أثر المصادفة هو أثر للطبيعة.

المتن:

«الوجه الثالث والستون: أنه قد تقرَّر في الفِطَر والعقول أنَّ الله له الكمال المُطلَق والحمد المتنوِّع، وأنَّه أكبر وأعظم وأعلى وأعلم من جميع الموجودات ولا تُنسَب إليه بوجهٍ من الوجوه، وهذا متقرِّرٌ مستقرٌّ في قلوب جميع أهل الأديان وغيرهم من جميع العقلاء المعترِفين بوجود الله، وأنَّ ليس كمثله شيء في جميع أوصافه وأفعاله، ولم يُنكِر هذا إلَّا فرقةٌ وشرذمةٌ من زنادقة الفلاسفة الدهريين المارقين من الديانات والمعقولات.

فجميع أجناس البشر معترفون لله تعالى بهذه العظمة، وإن اختَلَفَتْ طرائقهم وتبايَنَتْ دياناتهم وتنازعوا في الأصول أو في الفروع؛ فهذا الأصل لا يُنكره مُنكِر، ولا يجحده إلَّا المعاندون الذين خرجوا من الشَّرْع والعقل والفِطرة، وإن كان لهم عقولٌ وأفئدة أدركوا بها ما أدركوا من علوم المادة؛ حيث وجَّهوا جميع قواهم ومجهوداتهم إليها؛ ولكنهم لم تُغنِ عنهم هذه العقول شيئًا في أنفع الأشياء».

الشرح:

(**في أنفع الأشياء**)؛ أي: الشيء الذي خَلَقَهم الله لأجلهم وأوجدهم لتحقيقه، وهو: إفراده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعبادة والذُّل والخضوع.

المتن:

«بل كانت حُجةً عليهم.

فما عَلِموه من علوم الكون حُجَّةٌ عليهم فيما أنكروه مما هو مقصودٌ أصلي، وعلوم الكون كلها وسيلةٌ إليه».

الشرح:

يعني: هذه العلوم كلها براهين على عظمة الخالق وكماله؛ فأصبحت علومهم حُجَّة عليهم.

المتن:

«فانقطعوا في الوسائل عن المقاصد، وبالدليل عن المدلول، وبالكون عن المُكوِّن، وبالصَّنْعة عن صانعها، وبقوا في غيِّهم وضلالهم وطُغيانهم يعمهون.

والله تعالى له المثل الأعلى، وهو مُعطِي الموجودات جميع ما فيها من القوى والإدراكات والصفات، وهو أحق بالكمال من كل موجود، فالذي علَّم الإنسان ما لم يعلم من العلوم الواسعة المتنوِّعة، وأقدره على كثيرٍ من مواد الطبيعة وعناصرها، وجَعَلَ له السَّمْع والأبصار والأفئدة؛ هذه الأمور وغيرها لم تحصل للبشر إلَّا بإيجاده وإمداده وتعليمه وتسخيره، أفبهذه النِّعَم الجليلة والفوائد السابغة يكفر به الكافرون ويجحده الجاحدون! ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الجاثية، من الآية:٦]».

الشرح:

نكتفِي بهذا.

سبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلَّا أنت نستغفرك ونتوب إليك.

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

جزاكم الله خيرًا!

شرح الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين

للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه اللّه

من الدرس (١١) إلى والدرس (١٢)

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٢/٠٤/١٢ هـ

(المجلس الحادي عشر)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد..

فيقول الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتابه: [**الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين**]:

الوجه الرابع والستون: أن كل برهانٍ ودليلٍ أبطل الله به الشرك وقرر به التوحيد، فهو برهانٌ على بطلان الإلحاد والجحود؛ لأن المشركين يعترفون بالله ويعلمون أنه الخالق الرازق المدبر، ولكنهم يُشركون في عبادتهم فيعبدون الله ويعبدون غيره، فأبطل الله شركهم بأمورٍ كثيرة:

منها: أن اعترافهم بتوحيد الربوبية يوجب لهم أن يقوموا بتوحيد الإلهية والعبادة.

ومنها: أن الله تعالى، كما هو المنفرد بالنعم، وجلب الخيرات، ودفع السوء والسيئات، فهو الذي يجب أن يُعبد وحده لا شريك له، ويُحمد ويُشكر ويُثني عليه.

ومنها: أن شواهد الفقر والحاجة على جميع المخلوقات ظاهرة من كل وجه، فهم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد، فيجب أن يُنزلوا فقرهم وفاقتهم وضرورتهم بمن لا يأتي بالإيجاد والإمداد إلا هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته.

ومنها: أن من سواه لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، لا يدفعون المكاره ولا يجلبون المحاب، ومن كان على هذا الوصف فعبادته باطلة، فإذا بطل الشرك بالله، وتقرر وجوب الإخلاص لله، ثبتت وحدانية الله وتفرده بكل كمال، واضمحل قول الجاحدين كما اضمحل قول المشركين.

الشرح:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد..

فهذا نوع آخر من وجوه الرد التي يُقررها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى على مقالة أهل الإلحاد، وذكر هنا في هذا الوجه أن كل دليل ورد في القرآن في إبطال الشرك يصلح أن يُستدل به في إبطال الإلحاد، والقرآن الكريم تنوعت الدلائل فيه

على إبطال الشرك، وأُقيم على إبطاله البراهين الكثيرة المتنوعة برهانًا تلو آخر في تنوعٍ في البراهين إبطالًا للشرك، وإثباتًا للوحدانية؛ وحدانية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتفرده بالعبادة.

وأشار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى بعض الأنواع وإلا فهي أنواع كثيرة جدًا في القرآن الكريم، أنواع الأدلة في القرآن الكريم على تقرير التوحيد وإبطال الشرك، هذه أنواع كثيرة جدًا، ويجد طالب العلم بسطها في كتب التوحيد التي أُفردت لبيان أدلته، وبطلان ضده وهو الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض هذه البراهين على وجه التنبيه فقط، أن كل دليلٍ أقيم في القرآن على إبطال الشرك يصلح أن يُستدل به على إبطال الإلحاد والجحود.

من ذلكم وهذا نوع: أن الله عَزَّوَجَلَّ في مواطن من القرآن خاطب المشركين باعترافهم بالربوبية، باعترافهم بربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن ذلك يوجب عليهم أن يقوموا بالتوحيد، فإن لازم هذا الاعتراف بربوبية الله أن يفردوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتوحيد الذي هو إفراده بالعبادة، وهذا في آيات كثيرة جدًا في القرآن، ومن أوائل ذلك ما جاء في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢١-٢٢]، والمعنى كما قال أئمة التفسير من الصحابة وغيرهم؛ أي: لا تجعلوا لله شركاء في العبادة وأنتم تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله، فإيمانكم بأنه الخالق يستلزم أن تُفردوه بالعبادة، ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢١]؛ العبادة للخالق، العبادة لا تكون للمخلوق، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[سورة الأعراف، من الآية:١٩٤]؛ أي: لا يستحقون من العبادة شيء، وإنما الذي يستحقها هو الخالق، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[سورة الحج، من الآية:٦٢].

وذكر منها وهذا أيضًا جاء فيه آيات كثيرة في القرآن، تفرد الله بالنعم ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [سورة النحل، من الآية:٥٣]، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [سورة النحل، من الآية:١٨]؛ تفرد الله بالنعم هذا من براهين التوحيد ودلائله، وفي القرآن سورة تُعرف بسورة النعم، وهي سورة النحل، عدَّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها نعمه الكثيرة، ونوع في تعداد النعم، ثم ختم ذلك كله بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٨١]؛ فهذه النعم كلها براهين على وجوب توحيد الله سبحانه، وأن يُخلص له الدين، وأن يُفرد بالعبادة وحده دون سواه،

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾[سورة النحل، من الآية:٧٢-٧٤].

فالحاصل أن الآيات في هذا كثيرة جدًا يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نعمه على عباده، وتنوع النعم برهانًا على وجوب أن يُفرد بالعبادة، وبرهانًا على بطلان الشرك وفساده.

أيضًا ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى الفقر الذاتي في المخلوقات كلها إلى خالقها، و أنها لا تستغني عنه ولا غنى لها عنه، ففقر المخلوقات إلى خالقها فقرٌ ذاتي من كل وجه، وخالق المخلوقات رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غنيٌ عن المخلوقات كلها من كل وجه وغناه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذاتي، فهو غنيٌ من كل وجه، والخلق فقراء إليه من كل وجه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾[سورة فاطر، من الآية:١٥-١٧]؛ فهذا الفقر الذاتي الملازم للمخلوقات هذا من براهين الوحدانية؛ لأن الله الذي خلقها، والله الذي أمدها، والله الذي يحفظها، والله الذي يرزقها، والله الذي يحيها، والله الذي يُميتها، وكل شيءٍ بيده وبقضائه وقدره، فهي فقيرةٌ إليه من كل وجه، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غنيٌ عن المخلوقات كلها غنىً ذاتي من كل وجه.

أيضًا من البراهين وهذا كثير في القرآن، بيان نقص المعبودات المتخذة، وأنها حقيرة لا تملك شيئًا، لا تملك لنفسها فضلًا أن تملك لغيرها، ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾[سورة الفرقان، من الآية:٣]؛ ما تملك شيء، ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾[سورة سبأ، من الآية:٢٢-٢٣]، ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾[سورة الإسراء، من الآية:٥٦]، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾[سورة فاطر، من الآية:١٣-١٤].

فبيان حال الأوثان المتخذة ونقصها، وأنها لا تملك شيئًا، ذاك الذي يدعو حجر، أو شجرةً، أو يتعلق ببهيمة عبادة عجلٍ، أو بعلٍ، أو غير ذلك هذا كله تعلق بمن لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا فضلًا عن أن يملك لغيره شيء من ذلك، ولهذا أنظر جمال البيان والنصح من نبي الله إلياس في قوله لقومه: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۝١٢٥ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾[سورة الصافات، من الآية:١٢٥]؛ أين عقولكم؟ تدعون بعلًا! هذا تنبيه على نقص المدعو المتخذ من دون الله، تنبيه على نقص المدعو أو الإله المتخذ من دون أنه لا يملك شيئًا، لا لنفسه فضلًا أن يملك شيئًا من ذلك لغيره.

قال: (**أن من سواه لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، لا يدفعون المكاره ولا يجلبون المحاب**)؛ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾[سورة الزمر، من الآية:٣٨]؛ فهذه الأشياء المتخذة لا تملك نفعًا، ولا دفعًا، ولا عطاءً، ولا منعًا، ولا غير ذلك لا لنفسها ولا لغيرها، فهذا كله مما يُبطل به الشرك.

ذكر الشيخ مجرد أمثلة قليلة وإلا فالأنواع في ذلك كثيرة جدًا، قال: (**فإذا بطل الشرك بالله، وتقرر وجوب الإخلاص لله، ثبتت وحدانية الله وتفرده بكل كمال، واضمحل قول الجاحدين كما اضمحل قول المشركين**).

المتن:

الوجه الخامس والستون: أن البراهين الدالة على رسالة محمدٍ ﷺ، ورسالة سائر الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- من أكبر البراهين على إبطال قول الملحدين، وآيات الرسل عمومًا ومحمدٍ خصوصًا لا تعد ولا تحصى، متنوعةٌ من كل وجه، توجب العلم الضروري بصدقهم وصحة ما جاءوا به، وهؤلاء الملحدون أكبر أعداء الرسل في كل زمانٍ ومكان، فلا يجتمع الإيمان بالرسل مع اعتناق مذهب الماديين المنافي للرسالة وللعقول والفطر، والله أعلم.

الشرح:

هذا الوجه الخامس والستون وسبق أن ذكر قريبًا من هذا المعنى سابقًا بشيء من التفصيل، البراهين الدالة على صدق الرسل -عليهم صلوات الله وسلامه- الشيخ سبق أن ذكر أنواع منها عديدة في موطنٍ سبق، هذه البراهين كلها تُعد من أكبر البراهين على إبطال قول الملحدين؛ لأن آيات صدق الرسل هي في نفسها برهانٌ على

وحدانية من أرسلهم، وعلى كماله، وأن الأمر أمره، والخلق خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[سورة يوسف، من الآية:٤٠].

المتن:

الوجه السادس والستون: البراهين الدالة على البعث كلها تُبطل أصول الملحدين، وقد استدل تعالى على البعث بقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[سورة غافر، من الآية:٥٧]؛ وبأنه كما بدأ الخلق من العدم فإنه سيعيدهم للجزاء، وبإحياء الله الأرض بعد موتها، واستدل بكمال قدرته، واستدل بحكمته، وأنه لا يليق به أن يترك الخلق سُدى، لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون، وبغير ذلك من البراهين.

الشرح:

نعم هذا الوجه السادس والستون يذكر فيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى براهين البعث، أن كل برهانٍ أقيم على إثبات البعث هو نفسه برهان على وحدانية الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكمال قدرته، وكمال تدبيره، وأن الأمر أمره والخلق خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والبراهين التي استدل بها على إثبات البعث كثيرة جدًا ومتنوعة أشار الشيخ إلى بعضها، مثل: الاستدلال بخلق السماوات والأرض، هذه الآية الظاهرة التي يراها الناس ويشاهدونها ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[سورة غافر، من الآية:٥٧]؛ هذا برهان من براهين البعث يراه الناس ويشاهدونه.

أيضًا بدأ خلق الإنسان ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[سورة الإنسان، من الآية:١]؛ إعادة خلقه أهون من خلقه ابتداءً، وكل ذلك هينٌ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأيضًا ما ذكر في مواطن القرآن إحياء الأرض بعد موتها بالماء، ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[سورة الحج، من الآية:٥-٧]؛ فإحياء الأرض بعد موتها بالماء هذا من براهين البعث وإحياء الأموات من قبورهم، فتنوعت البراهين، أيضًا قدرة الله وحكمته لا يليق بحكمته أن يترك الخلق هكذا يموتون وتنتهي حياتهم بالموت فقط، وفيهم الصالح، والطالح، والمطيع، والمجرم، والمسيء، يموتون وتنتهي الأمور، هذا لا يليق بحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[سورة القيامة، من الآية:٣٦].

فالحاصل أن هذه الأنواع أنواع البراهين على البعث وهي كثيرة في القرآن ومتنوعة ومتعددة كلها براهين على الوحدانية، ووحدانية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي خواتيم سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾[سورة يس، من الآية:٧٧]؛ إلى آخر السورة فيها براهين عديدة، وللشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام جميل عليها في تفسيره؛ فاستخرج منها

براهين وأذكر أنه عدها ستة براهين في هذا الموطن فقط، على البعث وكل برهان على البعث هو في الوقت نفسه برهان على الوحدانية.

المتن:

قال: وهذه أمثلةٌ ونماذج لهذه الأصول الثلاثة: التوحيد، الرسالة، والبعث، وكل واحدٍ من هذه الأصول لو بُسطت براهينه لبلغت شيئًا كبيرًا.

الشرح:

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقصد بالأصول الثلاثة ما ذُكر في الوجوه الثلاثة الأخيرة على التوالي، الوجه الرابع والستون، والوجه الخامس والستون، والوجه السادس والستون.

الوجه الرابع والستون: أشار فيه إلى براهين التوحيد باختصار.

والوجه الخامس والستون: أشار فيه إلى براهين الرسالة باختصار.

والوجه السادس والستون: البراهين الدالة على البعث باختصار.

ثم يُنبه هنا يقول: (**وهذه أمثلةٌ ونماذج**)؛ يعني: في هذه الوجوه الثلاثة الأخيرة (**لهذه الأصول الثلاثة**)؛ الأصول الثلاثة: (**التوحيد، الرسالة، والبعث**)؛ وهذه الأصول الثلاثة متفق عليها لدى جميع النبيين، وفي جميع الكتب المنزلة، الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ له رسالة في هذه الثلاثة، وأنها متفق عليها بين الرسل وجميلة جدًا أسماها وهي مطبوعة: [**إرشاد الثقات على اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات**]، أن هذه الأصول الثلاثة متفق عليها لدى جميع الرسل -عليهم صلوات الله وسلامه وبركاته عليهم أجمعين-، وهي كثيرة البراهين على هذه الأصول الثلاثة (**لو بُسطت براهينه**)؛ براهين كل أصل منها (**لبلغت شيئًا كثيرًا**).

المتن:

فكل واحدٍ منها قد وصل إلى علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، وهي تهدم أساس التعطيل والإلحاد، وتوجب على العباد الاعتراف بما خلقوا له من الإيمان بالله وكتبه ورسله، وعبادته وحده لا شريك له، ومن المعلوم أن الماديين الملحدين يباهتون وينكرون ذلك كله.

الشرح:

مثل ما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسط البراهين على هذه الأصول الثلاثة يطول جدًا، ومحله كتب كبار اعتنت بذلك بسطًا لهذه البراهين، وكل هذه البراهين هي في الحقيقة براهين على بطلان الإلحاد وفساده.

المتن:

الوجه السابع والستون: قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[سورة آل عمران، من الآية:١٦٤]؛ هذه الآية دلت على كمال علم الرسول محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكمال تعليمه للخلق، وكمال تنفيذه للهدى والصلاح الذي جاء به، فهل في إمكان أحد من البشر – الأوليين والآخرين- وجود هذه العلوم العالية النافعة الواسعة في شخصٍ واحد؟ وحصول التعليم منه لأناسٍ كانوا قبل ذلك في غاية الجهل والضلال المبين، حتى انتقلوا من هذا الجهل والضلال إلى العلم الواسع والهدى المتنوع، ثم مع هذا العلم والتعليم الممتنع وجوده –أو وجود ما يقاربه- في شخصٍ واحد؛ نفذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخلق هذه التعاليم والإصلاحات الدينية والدنيوية؛ فاستقامت به الأمور وصلحت الأحوال، إن في ذلك لعبرة للمعتبرين، وآياتٍ لأولي الألباب.

حيث بُعث هذا النبي الأمي الذي لا يقرأ كتابًا، ولا يخُط بيمينه، ولا جالس أحدًا من العلماء السابقين فتعلم منهم، فجاء بعلوم الأولين والآخرين وبما فيه صلاح الدنيا والدين؛ فزالت به الجهالات والضلالات، وتقشعت عن القلوب به الظلمات، وحصل كمال الرشد والهدى، وزال عن أمته أسباب الهلاك والردى، شهد بهذا الأولياء والأعداء، واتفق الخلق على أنه لم يوجد أحدٌ يقاربه من العظماء، وكيف يقاربه أحد أو يدانيه وكل خصلةٍ من خصال الكمال له منها أعلاها وأرفعها؟ وبه كملت العقول والبصائر، ولا يقدح في هذا إلا كل مباهتٍ مكابر، ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[سورة الشورى، من الآية:١٦].

الشرح:

هذا الوجه انطلق فيه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذه الآية العظيمة التي فيها ذكر منة الله -جل في علاه- على العباد ببعثة الرسول الكريم محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والوقت الذي بُعث فيه شأن الناس كما جاء في خاتمة الآية: ﴿كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[سورة آل عمران، من الآية:١٦٤]؛ ضلال طبق الأرض، وقد جاء في الحديث: «**إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ عَرَبَهُمْ وعَجَمَهُمْ فَمَقَتَهُمْ أجمعين إِلَّا بَقَايَا**» يعني: قلة قليلة من أهل الكتاب، فخيَّم الضلال أرجاء الأرض وأطرافها، فبُعث في وقتٍ الناس فيه في أرجاء الأرض بهذه الحال في ضلالٍ مبين، وجهلٍ مطبق،

وجاهليةٍ جهلاء، وضلالةٍ عمياء؛ ففتح الله به أعينًا عميًا، وقلوبًا غلفًا، وأذانًا صمًا، وهدى به إلى صراطه المستقيم.

فكان ذكرًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهاديًا وناصحًا أمينًا، خلَّص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به من كتب الله هدايتهم من ذلك الضلال، فبدأ الناس يدخلون في دين الله إلى أن كان دخولهم فيه أفواجًا وهذا في خواتيم دعوته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فالذي ينظر إلى هذه المنة يجد فيها برهان على الوحدانية، الذي ينظر إلى هذه المنة وينظر إلى آثارها وما ترتب عليها من الخير والنجاة من أنواع الجهل وصنوف الضلال الذي طبق الأرض وخيم أرجاءها، يجد أن هذا من البراهين العظيمة على وحدانية الرب العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن منته على العباد عظيمة بمبعث هذا الرسول الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذي بلَّغ الناس البلاغ المبين، ودلهم إلى كل خير ما ترك خيرًا إلا دلهم عليه، ولا شرًا إلا حذرهم منه.

المتن:

الوجه الثامن والستون: لما علم المستعمرون الملحدون أن الإسلام الحقيقي والدين الإسلامي أقوى حصنٍ وأعظم سلاحٍ لمقاومتهم، وقد عرفوا ذلك من قديم الزمان، وحملوا حملاتٍ متنوعة، فرجعوا على أعقابهم مهزومين لم ينالوا خيرًا، وعرفوا حق المعرفة أنه من المحال السيطرة على الإسلام وعقائده وأخلاقه، فعملوا مؤامراتٍ واسعةً متنوعة، وساعدوها بالقوة، ودرَّسوا الإلحاد في المدارس التي اغتفلوا أهلها، وذهبوا يهجنون جميع تعليمات الإسلام، وما يدعو إليه من الأخلاق، وما يحكم به من الأحكام.

وقالوا: "إنها رجعية ترجع بالناس إلى الوراء عن التقدم المطلوب"، وأوجدوا لهم من أرباب المطامع المأجورين، ومن البلهاء المغرورين من يستعينون به على مطالبهم والتزهيد في الدين من كل وجه، ولكن -ولله الحمد- قد علم أهل البصائر مقاصدهم، وعرفوا الخونة ممن ينتسب إلى ملة الإسلام وهو أعظم عدوٍ للإسلام في صورة صديق.

وبرهن العلماء العارفون أن كل ما قيل في توهين الدين وتخديره فهو باطل، وأن القائلين بذلك زنادقةٌ منافقون يقولون ما يعلمون خلافه، وأن السبيل الوحيد إلى الصلاح والتقدم الصحيح النافع من جميع الجهالات هو الأخذ بتعاليم الإسلام؛ بعقائده، وأخلاقه، وأعماله، وأحكامه، وأن البشر لا يمكن أن يحيوا حياةً طيبة ويعيشوا في الدنيا عيشةً هادئة إلا بالدين، وأن الإلحاد أعظم نكبةٍ طرقت البشر، وأن آثاره الشر الكبير، والإباحية،

والفوضوية، وتقويض دعائم العمران، والسير إلى الهلاك والشقاء، فمتى رأيت من ينعق بذم الرجعية وذم كل قديم، ويأمر بنبذ ذلك فاعلم أنه أحد رجلين:

- إما ملحدٌ قصده بذلك التوسل إلى جحد أديان الرسل، ونبذ ما جاءوا به.
- وإما مغرورٌ مخدوعٌ مقلدٌ لهم قد غرته هذه المدنية الزائفة، وأعجبه رونقها وظن بجهله أنها شيء.

وهؤلاء كاذبون في ذلك، فإن أقوال زنادقتهم الأولين عندهم بالمحل الأعلى ولا يكادون يخالفونهم.

الشرح:

يعني هم يقولون رجعية، وهم أقوال أئمتهم المتقدمين معظمة عندهم ويعولون عليها، ويحيلون إليها.

المتن:

ويعظمونهم أكبر مما يعظمون الأنبياء، بل ليس للأنبياء في قلوبهم شيءٌ من التعظيم الصحيح، وإذا أردت أن تعرف كذبهم بالبداهة، فهل العلوم النافعة والأعمال الصالحة، والعقائد الصادقة، والأخلاق الفاضلة، إلا وقد جاء بها الدين على أكمل الوجوه وأحسنها وأنفعها؟ وتتبع ذلك في أصول الدين وفروعه وظاهره وباطنه، هل تجده إلا مشتملًا على كل خير، هاديًا إلى كل رشدٍ وصلاح، حاثًّا على كل فلاح.

الشرح:

نعم والشيخ ضرب على ذلك أمثلة عديدة فيما تقدم.

المتن:

الوجه التاسع والستون: من محاسن الإسلام وقيامه بكل إصلاح أنه ليس عقائد وأخلاقًا فقط، وإنما هو –مع ذلك– موجهٌ وحاكمٌ وصاحب دولة وجهاد، فالدين الإسلامي بعقائده، وأخلاقه، وآدابه، وتوجيهاته، وحكمه، وسلطته، وحمايته الحقوق الخاصة والعامة كما هو مشروحٌ مفصل، من أكبر الأدلة على أنه تنزيلٌ من حكيم حميد عليمٍ بكل شيء، إذ شرع لهم هذا الدين الذي لم يُبق خيرًا إلا دل عليه وحث عليه، ولا شرًّا إلا حذَّر منه، ولا حقًّا إلا إقامه، ولا عدلًا إلا جعل له مسالك وطرقًا يقوم عليها، فهو دينٌ ودولة، وجامعٌ بين مصالح الدين والدنيا، وبين التسامح والتيسير، وبين العزة والقوة، والمقاومة لكل معاندٍ محادٍّ معادٍّ للدين وأهله، عكس ما نبذه الملحدون أنه دينٌ بلا دولة، وآخره لا دنيا معها، فإنهم قالوا ذلك ليتوسلوا إلى تثبيط أهله عن مقاومة المعتدين، وبذلك يمهدون الطريق للأعداء المستعمرين الظالمين، فهؤلاء الذين قالوا ذلك كذبوا وظلموا وكادوا للإسلام وأهله، وكانوا أجراء وسماسرةً للأعداء –والله أعلم–.

الوجه السبعون: أن من أكبر أسباب الإلحاد الإعراض عن علوم الدين، وإلا فمن عرف ما جاء به الكتاب والسُّنَّة، وعلم ما جاء به دين الإسلام ولو معرفةً متوسطة، استحال أن يقع معه الإلحاد جهلًا وضلالًا، فإن الدين بطبيعته وما اشتمل عليه من البراهين يضطر صاحبه إلى الإقرار والاعتراف بوحدانية الله، وصدق رسله، وبطلان ما ناقض ذلك، فلا تجد ملحدًا إلا معرضًا من أعظم الجاهلين، أو معاندًا عارفًا من أكبر المباهتين المكابرين.

الشرح:

يذكر هنا، وهذا سبق أيضًا أن تكلم عنه وبيَّنه، ينوع الشيخ في العبارة نُصحًا وحرصًا على مزيد التوضيح والبيان، وإلا سبق أن ذكر شيئًا من هذا فيما سبق؛ فالإلحاد لا يمكن أن يدخل على من عنده علم بالشريعة وجمالها وعرفها، لا يمكن أن يدخل عليه، ولكن إذا كان جاهلًا بالشريعة، وجاهلًا بمحاسنها وعظمتها، فإنه يدخل عليه الدواخل من هذا وغيره، ولهذا كان من أعظم المهمات وأكبر الواجبات أن يُنشأ النشأ على الدين والتربي على الإسلام؛ ولا سيما الصلاة والمحافظة عليها، وبر الوالدين، والإحسان، ومعرفة المعتقد الصحيح المتلقى من الكتاب والسُّنَّة؛ لأن هذا التعليم الديني للنشأ والأبناء يكون بإذن الله حصنًا لهم، وواقيًا من أن يُخترقوا من دعاة الشر، ودعاة الضلال والفساد.

المتن:

ومن المصائب الكبيرة أن كثيرًا من العصريين ليس عندهم بصيرةٌ ولا معرفةٌ بالدين لا قليلة ولا كثيرة، وإنما عنده إقبالٌ على الصحف المشتملة على الخير والشر.

الشرح:

الشيخ هنا يُنبه على مسألة ويحتاج الشباب أن يُنبه عليها خاصة مع اتساع الوسائل الآن، ومجالات التواصل وغيرها، كثير من الشباب يُخاطر بدينه مخاطرة عظيمة يدخل في كل موقع، ويسمع لكل أحد وينظر كل أمر يُشاهد، ولا يقف عند ضابط ولا عند حد، ثم هو في الوقت نفسه قليل العلم الشرعي، ما عنده حصانة من علم شرعي، وهذه مخاطرة بالدين، وقديمًا يقولون: إن كنت مخاطرًا بشيء فلا تخاطر بدينك، المخاطرة بدين المرء هي أعظم مخاطرة، بل الذي يخاطر بماله هو من الذي يخاطر بدينه، دين المرء رأس ماله، ولهذا بعض الشباب يدخل في القنوات وفيها مثلًا فساد عظيم وشبهات مرديه تُفسد عليه دينه، تخلل عقيدته، وهو عنده أصلًا العلم الشرعي، ما عنده العلم الشرعي، حتى إن بعض الشباب يدخل بزعمهم أنه يريد أن يرد، وهو ما

عنده بضاعة أصلًا؛ فتدخل عليه الشبهات، وتدخل عليه الأهواء، ويضر مضرة عظيمة في عقله وفكره ودينه، الشباب على خطر عظيم إذا استمر حال الشاب في الدخول والمخاطرة بدينه على هذه الطريقة، فيحتاج الشاب إلى أمرين:

- إلى أن يحصن نفسه بالعلم الشرعي المستمد من الكتاب والسُّنَّة.
- وأن يتجنب كل الأماكن الموبوءة لا يشاهدها، ولا يستمع إليها، ولا يدخل فيها.

المتن:

قال: وإنما عنده إقبالٌ على الصحف المشتملة على الخير والشر، وكثيرٌ منها تدعو إلى الإلحاد بأساليب وطرقٍ متنوعة، فتصادف هؤلاء الذين يظنون أنفسهم عارفين وهم من أجهل الجاهلين، وتملأ أذهانهم من الآراء السخيفة والنظريات المخيفة، وليس عندهم من العلم والدين ما يصدهم ويمنعهم من الاندفاع مع هذا التيار المادي، وما أكثر الهالكين بهذه الطريقة، وليس لهؤلاء دواء إلا الإقبال على معرفة الدين وعلومه وآدابه وأخلاقه، فنسأل الله السلامة والعافية.

الشرح:

يؤكد رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذه المسألة، وهذه مسؤولية الآباء والأمهات والمربين أن يحرصوا على تنشئة الأبناء على الديانة والتمسك والطاعة والعبادة، والله عَزَّوَجَلَّ ذكر في هذا نموذجًا رفيعًا عالي القيمة والمكانة في تربية الأبناء، وهي وصايا لقمان الحكيم لابنه، والوصايا التي اجتمعت للقمان الحكيم وصايا عظيمة جدًا جاءت على مجامع الأمور، وأهم ما ينبغي أن يُنشأ عليه الأبناء، ولهذا ينبغي أن تُتخذ هذه الوصايا إنموذجًا يحتذى، يكفي شاهدًا على ذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ ذكره في آيات تُتلى في القرآن، ذكر وصايا لقمان الحكيم في آيات تُتلى في القرآن في سورةٍ عُرفت باسمه سورة لقمان.

وذكر الله عَزَّوَجَلَّ وصاياه العظيمة لابنه، فهذه الوصايا وغيرها من الوصايا العظيمة فيما يتعلق بالتربية؛ التربية الدينية «**يَا غُلَامُ احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، تعرَّفْ إلى اللهِ فِي الرَّخاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّة، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ**»، إلى آخره، هذه أشياء لا بد أن تُغرس في الأولاد والناشئة، وهذه مسؤولية الآباء، وكما أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أوصى الأبناء بآبائهم برًا وإحسانًا، فإن الله أيضًا في القرآن أوصى الآباء بأبنائهم تربيةً وتأديبًا، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة النساء: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾[سورة النساء، من الآية:١١]؛ فكما أن الابن يوصى بالأب برًا وإحسانًا؛ فالوالد أيضًا يوصى بالابن تربيةً وتأديبًا، وإذا ربى الوالد ابنه على التدين،

والطاعة، والعبادة، والأذكار، والأخلاق الفاضلة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، وغير ذلك من المعاني العظيمة تعطيه حصانه بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وسلامة وعافية من هذه الشرور.

المتن:

قال: ولا يُعرف الدين بتتبع أحوال من ينتسب إليه وهو منحرفٌ عنه، فإن هذا من أعظم الظلم وأنكر المنكر، وقد صار هذا المسلك طريقًا لأعداء الإسلام الظاهريين والباطنيين، فقد حمَّلوا الإسلام أوزار من ينتسب إليه من ملوك جائرين، وأمراء مستبدين، وأدعياء منحرفين عن عقائده وأخلاقه ومتفلتين عن أحكامه حتى صاروا أعظم حجابٍ للمغترين، وأعظم حجةٍ للمعاندين العارفين.

وإنما الواجب معرفة الإسلام من منابعه وينبوعه الأصلي، وهو كتاب الله وسُنَّة رسول الله القولية والفعلية، وعمل الخلفاء الراشدين والصالحين من أمة محمد، فإن هذا هو الدين، وهو الأنموذج الصحيح لمن يريد الإنصاف، أما من يريد الاعتساف وقصده معروف، فإنه يزوْر على ضعفاء العقول والبصائر بهذه التمويهات، وينسب إلى الدين ما هو منه برئ، وإذا كانت فنون العلم؛ كالطب، والحساب، والهندسة وما أشبهها، لا يقدح فيها من انتسب إليها وهو جاهلٌ بها، فكيف بهذا الدين.

الشرح:

يعني لو أن شخصًا جاء يُبطل الطب كله بذكر نماذج لبعض المتطببين الذين يزعمون أنهم أطباء وليسوا بأطباء وتبرء الناس منهم، فيأتي بهذه النماذج ويُبطل الطب كله، هذا إنصاف؟ مثله لما يأتي شخص إلى بعض المسلمين الذين عندهم تقصير في دينهم وعدم تطبيق له؛ فيطعن في الإسلام نفسه بهؤلاء وتقصير هؤلاء، فهذا ليس من الإنصاف في شيء، وهذه مسألة سبق أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تكلم عنها.

المتن:

فكيف بهذا الدين الذي تفرعت عنه جميع العلوم النافعة، والمعارف الراقية، والأخلاق العالية، وقد ثبتت أصوله حتى كانت أثبت من الرواسي، وأضاء نوره حتى أنار ما بين الخافقين، واتسعت آفاق إصلاحاته حتى شملت إصلاح الأفراد، والجماعات، والحكام، والمحكوم عليهم، والظاهر والباطن والدنيا والآخرة، فتبًّا لمن قدح فيه بحال من يُنسب إليه وهو أبعد الناس عنه، سبحانه هذا بهتانٌ عظيم.

الوجه الحادي والسبعون: أن مدار هؤلاء الملحدين على تحكيم عقولهم، وعرض العلوم والحقائق عليها، فما وافقها قبلوه، وما ناقضها نفوه وأنكروه، فعارضوا بها عقول جميع العقلاء وعلوم الأنبياء وأتباعهم، وعقولهم

قد عُرف فسادها وتناقضها وتهافتها، فهذا الأصل الذي بنوا عليه كل شيء، أصلٌ منهارٌ متهافتٌ في غاية الفساد والاضطراب، وقد فتحوا به للناس المغترين بهم باب الفوضى في الآراء والنظريات حتى صار كل طائفةٍ، بل كل شخصٍ منهم يدعي أن الصواب معه والخطأ مع غيره، ولهذا تجرأ كل جاهلٍ على القدح فيما جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب السماوية حتى امتلأت الدنيا من الإلحاد والدعوة إلى المادية المحضة، واستجاب لدعوتهم رعاع الخلق الذين لا علم عندهم ولا دين ولا أخلاق.

الشرح:

والخير ولله الحمد كثير، الخير كثير، وأهل الخير، وأهل العبادة والطاعة، والعلم، والخير، والفضل كثير جدًا ولله الحمد، يعني كما جاء في الحديث: «**لا يَزَالُ اللهُ يَغْرِسُ فِي هذا الدينِ غَرْسًا**»، و «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي**»، الخير كثير، ولا يزال الأمر في صراع بين خير وشر، وهدى وباطل، لكن ولله الحمد الخير كثير.

المتن:

وخيف أن يقع –ولا بد من وقوعه– ما أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث ثبت عنه أنه قال: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللهُ اللهُ**».

الشرح:

يعني حتى تكون الأرض كلها إلحاد، لا يوجد فيها دين على أولئك تقوم الساعة، تقوم على شرار الخلق.

المتن:

«**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الخلق**»، وصرنا في وقتٍ القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر من كثرة الإلحاد والدعوة إليه، وكثرة المعارضات الباطلة، والميل بالكلية إلى الدنيا وزخارفها ورئاستها، حتى صار كثيرٌ من الكتاب العصريين يدعون إلى عمارة الدنيا والإقبال بالقلب والقالب عليها ونسيان الآخرة، ويُحرفون لذلك نصوص الكتاب والسُّنَّة.

الشرح:

الكتاب والسُّنَّة جاء بالاعتدال والتوسط، مثل ما في دعاء النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللهُمَ لَا تَجْعَلِ الدنيا أكبرَ هَمِّنَا، ولَا مَبْلَغَ عِلْمِنا**»، الدين لا يمنع من الانتفاع من مصالح الدنيا ومنافعها، والاستفادة من خيراتها وما سخره الله للعباد فيها لا يمنع من ذلك؛ لأنه من كل نافع ومفيد، لكن أن تكون هي البغية، وهي العلم، وهي الغاية، وهي المقصد، ويُترك الدين، ويُذم، ويُطعن فيه، ونحو ذلك هذا هو الذي فيه الخطأ.

المتن:

ويُحرفون لذلك نصوص الكتاب والسُّنَّة، فانحرفوا بهذا انحرافًا عظيمًا وضلوا وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سبيل الله، ولو أنهم دعوا الخلق إلى ما أمر الله به المؤمنين، وما أمر به المرسلين؛ بالأكل من الطيبات، والتمتع المباح من الدنيا وطلبها الطلب الجميل، والتوسل بذلك إلى المقصود الأعظم وهو إصلاح الدين، والقيام بعبودية الله التي خلق الله لها الخلق، وأن يجعلوا ما مُتعوا به من النعم معونةً لهم على ما خلقوا له، لكان خيرًا لهم وأقوم وأصلح للعاجل والآجل، ولنالوا السعادتين، ولسلموا من الفساد وانهيار العقائد والأخلاق، ولكنهم مُتعوا ونُعموا وبطروا، ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [سورة الفرقان، من الآية:١٨]، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [سورة الواقعة، من الآية:٤٥-٤٧]؛ ولهذا نسأل الله العافية.

تجد أمثال هؤلاء الساقطين يتهكمون بالجزاء الدنيوي والأخروي، ويسخرون من المؤمنين القائمين بواجباتهم الذين هم في الحقيقة أعلى الناس علومًا وأخلاقًا وأعمالًا ومقامات، وهؤلاء المؤمنون لا يغبطون ما مُتع به هؤلاء الملحدون من أموالٍ وأولاد، ويتلون عند ذلك قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية:٥٥-٥٦]، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٧٨]، وقوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٩٦-١٩٧].

الوجه الثاني والسبعون: إذا أردت أن تعلم علم اليقين أن أهل الإلحاد ليس عندهم عقلٌ كما لا دين لهم، وأنهم ليس عندهم إلا المكابرة والجحود في قدحهم في القديم أو العتيق، أو ما شابه ذلك من عباراتهم السخيفة كالرجعية وشبهها، فاعرض نموذجًا من تفاصيل ما يدعو إليه الدين ويحث عليه وما يحذر عنه، تعرف بها أن المنكرين لها في فسادٍ من عقولهم، وانعكاسٍ من آرائهم، وسفاهةٍ من علومهم، وخسةٍ من أخلاقهم، وأن كل قولٍ، أو عقيدةٍ، أو خلقٍ، أو عملٍ ليس عليه أمر الدين، فهو مردودٌ شرعًا وعقلًا وفطرة، ليس هذا مجرد دعوى، وإنما هو مما يتفق عليه العقلاء.

فالدين الإسلامي الذي هو دين محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجميع الرسل، يدعو إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والاعتراف بوحدانية الله وتفرده بكل كمال، وتفرده بالخلق والرزق، والنعم الظاهرة

والباطنة، والقيام بعبودية الله ظاهرًا وباطنًا، والتوجه إليه وحده، وخوفه ورجائه وحده، والإنابة إليه في جميع النوائب والملمات، والشكوى إليه في كل المهمات، والقيام بحمده وشكره، واللهج بذكره ودعاءه، والتعلق به وحده في كل شيء، وترك التعلق بالمخلوقين، فهل هذا خيرٌ، أم الكفر بالله والجحود، والتعطيل لأوصافه، وكفر نعمه، والطغيان، والاستكبار عن عبادته، وتعليق القلوب بالمخلوقين رغبةً ورهبةً ورجاءً كما هو حال الملحدين.

والدين الإسلامي يدعو إلى الصدق في الأقوال والأفعال، وإلى البر والنصح للخلق كلهم، والقيام بحق الوالدين، والأقارب، ومن للإنسان بهم تعلق وصلة، ومن لهم حقٌ عليه، ويأمر بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج بيت الله الحرام، والقيام بشرائع الدين، وأهل الإلحاد يقولون ويفعلون ما يُناقض ذلك.

والدين الإسلامي يأمر بالعدل في المعاملات كلها، والقيام بالحقوق كلها، وينهى عن الظلم في الدماء، والأموال، والأعراض، والوفاء بالعهود والعقود، ومراقبة الله في حال قيام العبد بها؛ ليوفيها حقها، ويبتعد عن شرورها ومفاسدها؛ خوفًا من الله ورجاء لثوابه.

وأهل الإلحاد يأمرون بضد ذلك، وليس في ضمائرهم خوفٌ ولا مراقبةٌ لله، وإنما هي تشبه أفئدة البهائم بل أضل، فحيث ما دفعتهم إليه الأغراض الخسيسة، والظلم، واغتنام الخيانات، وتضييع الأمانات؛ اندفعوا إليها، ليس عندهم دينٌ، ولا خلقٌ، ولا مراعاة ذمة، إنما هي الإباحية المحضة، وليس عندهم خشية إلا من مخلوقٍ أقوى منهم، فهؤلاء كالأنعام بل هم أضل، وهؤلاء لم تنفعهم إدراكاتهم ولا مشاعرهم نفعًا يُجدي.

وبالجملة، الدين الإسلامي يدعو إلى كل خلقٍ جميل، وعملٍ صالح، وهدىً مستقيم، وطريقٍ قويم، وصلاحٍ متنوع، فكل من خالفه وقع في ضد هذه الأمور الجميلة، وسقط في مهاوي الهلاك والأخلاق الرذيلة، فلقد تعس وانتكس من عبَّر عن عقائد الدين وأخلاقه وأعماله التي لا حياة للوجود إلا بها بالرجعية، والرجوع إلى القديم، والعبارات الوسخة التي هي أكبر معبرٍ عن سخافة عقول معبريها، وسقوطهم في كل رذيلة، وخلوهم من كل فضيلة، ولقد قال إخوانهم السابقون عن القرآن ومن جاء به: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٢٥]، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة المائدة، من الآية:١١٠]، ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [سورة الفرقان، من الآية:٤١]، ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٠].

الشرح:

هذه مقارنة سبق أن ذكر الشيخ نظيرًا لها في أحد الوجوه التي تقدمت.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الوجه الثالث والسبعون: ذكرنا فيما سبق أن أعظم ما يُبطل الإلحاد معرفة دين الإسلام والعمل به، وأنه بطبيعته وبراهينه وآياته يضمحل معه كل باطلٍ من كل وجه، خصوصًا أقبح الباطل وأشنعه وأشده منافاةً للعقل والدين وهو الإلحاد، وقد عرف أهله هذا منه، وأنه لا بقاء له مع الدين فتوسلوا بتنحيه الدين عن المتعلمين، وأبعدوه عن المدارس، فإن لم يتمكنوا جعلوا التعليم في الدين ضعيفًا أو اسمًا بلا مسمى، فهم عند التمكن يُنحون الدين جملةً ويُدخلون في تعليم المدارس أصول الإلحاد؛ فيخرج المتعلمون ملحدين صرفًا، فإن لم يمكنوا من إدخال الإلحاد فيها اجتهدوا في إضعاف علوم الدين، واقتصروا على العلوم العصرية؛ ليذهب بالقلوب الناشئة حب الدين ويسهل توجيههم إلى نبذه والاستبدال به ضده، فإن البصيرة في الدين إذا ضعفت، والقلوب إلى غيره توجهت، انهارت الأديان والأخلاق كما هو مشاهدٌ معلوم في كل المدارس التي على الوصف الذي ذكرنا.

فيتعين على المسلمين، وعلى ولاة أمورهم أن يعتنوا غاية الاعتناء في علوم الدين وأخلاقه، فإن هذا من أفرض الفروض، وبه يحصل كل خير ويندفع أعظم شر، فإن الناشئين في المدارس إذا خرجوا منها وقد تمكنوا من علوم الدين، وصار عندهم بصيرةٌ صحيحةٌ فيه؛ فإنهم ينفعون أمتهم وينفعون غيرهم، وإلا فليعلموا أنهم رعاة، وكل راعٍ مسئولٌ عن رعيته، فهم مسئولون عن الناشئة المتعلمين في المدارس، فإذا لم يثقفوهم ثقافةً دينية صاروا أكبر سلاحٍ للأعداء على أمتهم، فكيف إذا انصرفت قلوبهم عن الرغبة في علوم الدين وأخلاقه إلى الاقتداء الضار بأعداء الإسلام في علومهم وسلوكهم وعاداتهم، فإنه ما شاع الإلحاد في البلاد الإسلامية إلا بهذه الطريقة، فكيف إذا نصرتها قوة الولاة وصاروا هم العون الأكبر لانحراف المدارس الابتدائية والثانوية والجامعات، وطردوا عنها الدين أو أضعفوه، فنرجو الله أن يوفق ولاة المسلمين المرجوع إليهم لهذا الأمر العظيم، الذي خطره كبير، وشره مستطير، وإلا فلا يلومن إلا أنفسهم إذا خسروا الدين والدنيا، والله المستعان.

الشرح:

المناسبة أن هذه الفائدة التي أشار إليها وأكد عليها رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا الدعاء أيضًا العظيم لأولاه الأمر بهذه المناسبة نشير إلى النعمة العظيمة التي أنعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علينا في هذه البلاد، وفي هذه الدولة التي نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يزيدها وأولاتها توفيقًا وبركةً وخيرًا وفضلًا ورفعة، العناية العظيمة بالتعليم، ومن يُطالع المناهج الدراسية في المراحل كلها الابتدائية، والمتوسطة، والثانوية، وحتى في الجامعات يُعتنى عناية دقيقة جدًا بالغرس الديني، والتعليم الديني، والتربية، والعقيدة الصحيحة المستمدة من الكتاب والسُّنَّة، وتربيتهم على العبادات الفاضلة، والأخلاق الكاملة، وهذه تُلازم الطالب من مراحل الابتدائية حتى أيضًا ما قبل المراحل الابتدائية في الروضة وغيرها، المناهج فيها عناية بهذا الجانب.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يزيد ولاة أمرنا توفيقًا وبركة وتسديدًا ومعونةً على الخير، وأن يوفق جميع أولاه أمر المسلمين لكل خيرٍ ورفعةً وفضيلة إنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

(المجلس الثاني عشر)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد..

فيقول الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي غفر الله له، ولوالديه ولجميع المسلمين -آمين-، في كتابه: [**الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين**]:

الوجه الرابع والسبعون: قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الرب تعالى أعرف من أن يُنكر، وأعظم من أن يُجحد، ولهذا قالت الرسل لأممهم: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية:١٠]؛ وهو الغني بذاته عن جميع الموجودات، فإن افتقار كل ما سوى الله وهو حكمٌ وصفةٌ ثبتت لما سواه، فكل ما سواه؛ سواءٌ سُمي محدثًا أو ممكنًا أو مخلوقًا أو غير ذلك، هو مفتقرٌ محتاجٌ إليه لا يمكن استغناؤه عنه بوجهٍ من الوجوه ولا في حالٍ من الأحوال، بل كما أن غنى الرب من لوازم ذاته، ففقر الممكنات من لوازم ذاتها، وهي لا حقيقةٌ لها إلا إذا كانت موجودة، فإن المعدوم ليس بشيء، فكل ما هو موجودٌ سوى الله فإنه مفتقرٌ إليه دائمًا حال حدوثه وحال بقائه، وهذا يوجب افتقاره إليه دائمًا، انتهى.

فعُلم بهذا أن جراءة المخلوق الفقير على إنكار الرب الغني القائم بنفسه القائم بكل موجود، أو إنكار وحدانيته، أو حقٍ من حقوقه من أسخف الجنايات وأطمها، وأن هذا المخلوق الفقير من وجهٍ قد تعدى حده وطوره.

قال الشيخ: وإذا كانت الرسل والأنبياء ومن اتبعهم وهم أممٌ لا يُحصي عددهم إلا الله، قد أخبروا بوحدانية الله وتفرده بصفات الكمال، وهم مستيقنون ذلك لا يرتابون فيه، وهم عددٌ كثير أضعاف أضعاف أي تواتر قُدِّر، قد اتفقت أقوالهم وأفعالهم وهدايتهم على ذلك، عُلم أنه هو الحق الذي لا ريب فيه وما سواه باطل، انتهى.

الشرح:

أعد (**وأن هذا المخلوق الفقير**).

المتن:

وأن هذا المخلوق الفقير من وجهٍ قد تعدى حده وطوره.

الشرح:

حتى نسختي هكذا (**من وجهٍ**)؛ والأقرب أنها "من كل وجه".

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين، أما بعد..

هذا أيضًا وجهٌ آخر من الوجوه التي يُبطل بها الإلحاد؛ بل يظهر بها شناعة الإلحاد وشناعة صنيع الملحد، فإن الرب العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ (**أعرف من أن يُنكر، وأعظم من أن يُجحد**)؛ وآيات وحدانيته، وبراهين تفرده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كثيرةٌ لا حد لها، بل في كل شيءٍ له آية تدل على أنه الواحد، تدل على عظمته وكماله وقدرته ورحمته وتفرده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو أعرف من أن يُنكر وأعظم من أن يُجحد، والمخلوق فقيرٌ إلى ربه محتاجٌ إليه من كل وجه، ثم يوجد في بعض المخلوقين من تبلغ به الجرأة مع عظم فقره إلى الله كل وجه، ولا غنى له عن الله طرفة عين، يتجرأ فيجحد وجود الله أصلًا، انظر السفه الذي تصل إليه بعض عقول المخلوقين، انظر السفه الشنيع الذي تصل إليه عقول المخلوقين.

فالله أعظم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من أن يُجحد، وأعرف من أن يُنكر، والمخلوق فقيرٌ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقرٌ ذاتي من كل وجه، ومع ذلك يتجرأ بعض المخلوقين الذين هم فقراء إلى الله، ولا غنى لهم عن الله لا في الإعداد، ولا في الإمداد، ولا في الحركة، ولا في السكون، ولا في أي شيء يتجرأ ويجحد وجود الله أصلًا، يجحد وجود الله أصلًا؛ فعُلم بهذا أن جراءة المخلوق الفقير على إنكار الرب الغني القائم بنفسه، القائم بكل موجود، وإنكار وحدانيته، أو حق من حقوقه من أسخف الجنايات وأطمها، ولا شك أن هذه جناية هي من أشد الجنايات؛ فالرب أوجد هذا المخلوق، وأمده، وأعده، وأعانه، وتفضل عليه بأنواع النعم وصنوف المنن، ثم يتجرأ هذا المخلوق الفقير، فيقول: لا وجود لله أصلًا، ويجحد وجود الله، ليس هناك في الجرأة والجحود والتكذيب أشنع ولا أطم من هذا.

المتن:

الوجه الخامس والسبعون: قال شيخ الإسلام في رده قول الفلاسفة ومن تبعهم من المنحرفين في قولهم: إن العقل يجب تقديمه على السمع، وإذا تعارض الشرع والعقل وجب تقديم الشرع؛ لأن العقل مصدقٌ للشرع في كل ما أخبر به؛ لأن العقل دلَّ على أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجب تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر، والعقل يدل على صدق الرسول دلالةً عامةً مطلقة، انتهى.

ووجه خضوع عقل العقلاء المعتبرين للشرع أنهم شاهدوا من براهين الرسالة وآياتها المتعددة المتنوعة ما يضطرهم اضطرارًا لا محيد لهم عنه أن محمدًا رسول الله حقًا، فلو قدمنا شيئًا مما قيل إنه معقولٌ على ما جاء به الرسول لعلمنا أنه معقولٌ فاسد؛ لئلا يلزم تناقض قضايا العقل، فأعظم القضايا التي حكم بها العقل قضية صدق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمتى أنكر هؤلاء الملاحدة هذه القضية الكبرى اليقينية قطعنا أنهم معاندون للعقل، كما أنهم معاندون للشرع، وإذا تقرر أن العقل دلَّ دلالة عامةً مطلقةً على صدق الرسول في كل خبرٍ وحكم، كان إيراد المرود على بعض جزيئات الشريعة معلوم الفساد، وكان علمنا العام بصدق الرسول في كل شيءٍ يقضي على جميع الجزيئات.

ونهاية الأمر أن يكون الذي وقع فيه الإشكال من المشتبهات، والمشتبهات يتعين ردها إلى المحكمات، وهو الأصل العظيم المحكم الذي تواردت عليه جميع البراهين اليقينية، وهو صدق الرسول وصحة ما جاء به، والله أعلم.

الشرح:

هذا مثل ما ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ كلامٌ قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في ثنايا رده على من يُقدمون العقل على النقل، واحتجوا لذلك؛ لأن العقل هو الذي عُلم به صدق الرسول؛ فإذًا يكون العقل هو القاضي، فإذا جاء شيءٌ عن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يكون القاضي في ذلك هو العقل والمرد إليه؛ لأن العقل به عُرف صدق الرسول فيكون المرد إلى العقل، بمعنى: أن جميع ما يأتي عن الرسول يُعرض بزعمهم على العقل، فإن قبله قبل وإن لم يقبله رُد.

والعقل دل دلالة عامة على صدق الرسول، وهذه الدلالة العامة على صدق الرسول تقتضي إذا كان المرء ذا عقلٍ أن يُسلم للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل ما جاء به؛ لأنه قد شهد بصدقه، فلا يتناقض العقل يشهد بصدقه شهادةً عامة، ثم يأتي إلى بعض التفاصيل، ويقول: لا، هذه لا يقبلها عقلي، فهذا من أعظم التناقض وأشده، فما دام أنه شهد بصدق الرسول الشهادة العامة لقيام البراهين والدلائل الواضحة البينة التي اضطرت العقل أن يُصدق أنه رسول عن عند الله، فهذا يقتضي أن يُسلم بكل ما جاء به، لكن هؤلاء عكسوا القضية، وقالوا طالما أن العقل هو الذي شهد بصدق الرسول؛ إذًا كل الجزئيات التي يأتي بها الرسول تُعرض على العقل.

وأحد العلماء ضرب مثالًا يُظهر من خلاله فساد هذا القول، يقول: لو أن شخصًا أتى إلى أحد العوام الذين لا علم لهم بالشريعة أصلًا، وقال له: عندي فتوى في مسألة ماذا أصنع؟ قال: تعال أدلك على عالم فقيه بالشرع

تستفتيه وتسأله، فأخذه ودله على عالم، قال: هذا عالم وفقيه، وعنده علم بالشرع اسأله، فلما سأل العالم وأفتى، قال له العامي: لا تقبل قوله أن أفتيك بكذا وكذا، ويجب أن تقبل قولي دون قول العالم؛ لأن أنا الذي دللتك على أنه عالم، هذه شبيهة بهؤلاء، هذه شبيهة تمامًا بحال هؤلاء عندما يقولون: العقل هو الذي دل على صدق الرسول؛ إذًا ما نقبل من الرسول أي شيء إلا إذا شهد العقل بصدقه، هذا المثال الذي ذكره أحد العلماء يوضح فساد هذا الكلام.

والحق أن العقل عندما شهد بصدق الرسول وجب عليه بهذه الشهادة أن يُسلم تسليمًا تامًا لكل ما جاء به الرسول؛ حتى إن توقف عقله في بعض الأمور فيتهم ماذا؟ يتهم عقله مباشرة أن فيه قصور، أنه لم يفهم، أنه لم يستوعب، ونحن نرى في كلام الناس المعتاد أحيانًا يتحدث شخص فيفهم منه الشخص الآخر خلاف ما أراد لنقص في فهمه، فكيف بالحال مع ما جاء به الرسول، ويأتي الواحد من هؤلاء، ويجعل عقله القاصر حكمًا على ما جاء به الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، الحاصل أن هذا البرهان الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية له تفصيل واسع في هذه المسألة في كتابه: [**درء تعارض العقل والنقل**] فهذه البراهين هي أيضًا صالحة لأن تقرر في هذا الباب الذي هو الرد على الملاحدة.

المتن:

قال الشيخ: وإذا كان الأمر كذلك، فإذا علم الرجل بالعقل أن هذا رسول الله، وعلم أنه أخبر بشيءٍ، ووجد في عقله ما ينازعه في خبره، كان عقله يوجب عليه أن يُسلم موارد النزاع إلى من هو أعلم به منه.

الشرح:

انظر التقرير العظيم، يعني هذا كلام عظيم جدًا في تقرير المسألة ودحض شبهة أولئك، (**إذا كان الأمر كذلك، فإذا علم الرجل بالعقل أن هذا رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وعلم أنه أخبر بشيءٍ، ووجد في عقله ما ينازعه في خبره**)؛ يعني: في جزئية من الجزئيات، أو في مسألة من المسائل، (**كان عقله يوجب عليه أن يُسلم موارد النزاع إلى من هو أعلم به منه**)؛ لأن عقله قد شهد أنه رسول وصادق ومبلغ عن الله؛ إذًا انتهت القضية، اتهم عقلي، اتهم نفسي بالقصور، بالضعف، عدم الفهم، لا أجعل عقلي القاصر منازعًا للرسول الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم، من الآية: ٤].

المتن:

وألا يقدم رأيه على قوله، ويعلم أن عقله قاصرٌ بالنسبة إليه، وأنه أعلم بالله وأسمائه وصفاته واليوم الآخر منه، وأن التفاوت الذي بينهما في العلم بذلك أعظم من التفاوت الذي بين العامة وبين أهل العلم بالطب.

الشرح:

وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ أَعْلَمَكُمْ بِاللهِ وَأَتْقَاكُمْ للهِ أَنَا**»، فهو أعلم الخلق بالله -صلوات الله وسلامه وبركاته عليه-.

المتن:

فإذا كان عقله يوجب أن ينقاد لطبيبٍ يهودي فيما أخبره به من مقدرات الأغذية، والأشربة، والأضمدة، والمسهلات، واستعمالها على وجهٍ مخصوص، مع ما في ذلك من الكلفة والألم، لظنه أن هذا أعلم بهذا مني، وأني إذا صدقته كان أقرب لحصول الشفاء لي.

الشرح:

أحيانًا يقول بعض الناس يكون مو مقتنع أصلًا بالعلاج أو العملية، يقول: "الطبيب قال" ويمشي؛ لأنه يُسلم الأمر لمن يراه مختصًا، لكن فيما يأتي عن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يتجرأ، ما يقول: "الرسول قال"، بل يتجرأ ويُعارض وينتقد، لكن في مقام الطب يقول: "الطبيب قال"، ويسلم حتى أحيانًا نفسه غير مطمئنة، غير مرتاحة، عنده وجهة نظر، ما يلتفت إلى ذلك، يقول: "الطبيب قال"، لكن فيما يتعلق بالرسول، بما جاء الرسول، لا يقول: "الرسول قال"، المفترض أننا في كل مسألة شرعية نقول: "الرسول قال" ونقف انتهى، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[سورة الأحزاب، من الآية:٣٦].

المتن:

مع علمه بأن الطبيب يُخطئ كثيرًا، وأن كثيرًا من الناس لا يُشفى بما يصفه الطبيب، بل يكون استعماله لما يصفه سببًا في هلاكه، ومع ذلك يقبل قوله ويقلده، وإن كان ظنه واجتهاده يُخالف وصفه، فكيف حال الخلق مع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

الشرح:

والرسل هم أطباء القلوب، جاءوا بالشفاء من الأمراض والأسقام، ولا تحصل العافية والشفاء والسلامة للمرء في الدنيا والآخرة إلا بالتسليم لهم ولما جاءوا به عن الله.

المتن:

والرسل صادقون مصدقون، لا يجوز أن يكون خبرهم على خلاف ما أُخبروا به قط، وأن الذي يعارضون أقوالهم بعقولهم عندهم من الجهل والضلال ما لا يُحصيه إلا ذو الجلال، فكيف يجوز أن يُعارض ما لم يُخطئ قط بما لم يُصب في معارضةٍ له قط؟ انتهى.

الشرح:

يعني: (**ما لم يُخطئ قط**)؛ الرسول، معصوم لا يُخطئ (**بما لم يُصب في معارضةٍ له قط**)؛ يعني: كل من عارض الرسول لم يصب أصلًا، كل من عارض الرسول فهو مُخطئ في معارضته للرسول، أُوتي من جهله، وسوء فهمه، وقلة بصيرته.

المتن:

وقال أيضًا: والذين ادعوا في بعض المسائل أن لهم معقولًا صريحًا يُناقض الكتاب، قابلهم آخرون من ذوي المعقولات، فقالوا: إن قول هؤلاء معلومٌ بطلانه بصريح المعقول، فصار ما يُدعى معارضةً للكتاب من المعقول ليس فيه ما يُجزم بأنه معقولٌ صحيح، إما بشهادة أصحابه عليه وشهادة الأمة، وإما بظهور تناقضهم ظهورًا لا ارتياب فيه.

الشرح:

في مسائل يكون شهد العقل بعدم صحة هذا، من أمور جاء بها الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والذي يقولون: شهد العقل بالتمحيص يتبيَّن أن قولهم: شهد العقل ليسوا مصيبين فيه، بل شهد بذلك عقلهم الفاسد، وإذا عُرض الأمر على العقول الصحيحة القويمة، لا يوجد هذه المعارضة المزعومة عند هؤلاء، وقرر شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من أهل العلم أن النقل إذا صح وثبت لا يمكن أن يُعارض عقلًا صحيحًا، فإذا وجد تعارض بين عقلٍ ونقل، إما النقل غير ثابت، أو العقل غير سليم.

المتن:

قال: وإما لمعارضة آخرين من أهل هذه المعقولات لهم، بل من تدبر ما يعارضون به الشرع من العقليات وجد ذلك مما يُعلم بالعقل الصريح بطلانه، والناس إذا تنازعوا في العقول لم يكن قول طائفةٍ لها مذهبٌ حجةٌ على أخرى، بل يُرجع في ذلك إلى الفطر السليمة..

الشرح:

قبل هذا يقول: (**الناس إذا تنازعوا في العقول لم يكن قول طائفةٍ لها مذهبٌ حجةٌ على أخرى**)؛ أحد العلماء المتقدمين قال في هذا المعنى كلمة جميلة قال: "لو كانت العقول عقلًا واحدًا لقيل إنه الحق"، لكن العقول عقول متضاربة، فإذا كان العقل جماعةٍ من الناس رأوا كذا، وعقل آخرين رأوا خلافه، وآخرون أيضًا رأوا قولًا ثالثًا، ما الذي يجعل عقل هذا حجة على هذا، حجه على هذا؟ كلها عقول، وكلها تقبل أن تكون حقًا، أو تكون باطل، لا عصمة لها.

فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والناس إذا تنازعوا في العقول لم يكن قول طائفةٍ لها مذهبٌ حجةٌ على أخرى**)؛ بل يُبحث عن مرجح آخر، أما العقول كلها عقول، حتى الشخص الواحد أحيانًا يتضح بعقله صحة أمر ما، ثم بعد إما يتبيَّن له بعقله هو نفسه أنه كان مخطئًا في ذاك الذي يراه صحيحًا.

المتن:

بل يُرجع في ذلك إلى الفطر السليمة التي لم تتغير باعتقادٍ بغير فطرتها ولا هوى.

الشرح:

بعض كبار المتكلمين رجعوا إلى الفطرة، وأخذوا في نهاية أمرهم يقولون: الفائز من كان على دين العجائز، بعد البحث الطويل العميق رجعوا إلى الفطرة، وسلموا أن هي العافية وهي السلامة.

المتن:

وإذا كان فحول النظر وأساطين الفلسفة الذين بلغوا في الذكاء والنظر إلى الغاية، وهم ليلهم ونهارهم يكدحون في معرفة هذه العقليات، ثم لم يصلوا فيها إلى معقولٍ صريح يُناقض الكتاب، بل إما إلى حيرةٍ وارتياب، وإما إلى اختلافٍ بين الأحزاب، فكيف غير هؤلاء ممن لم يبلغ مبلغهم في الذكاء والذهن ومعرفة ما سلكوه من العقليات؟ فهذا وأمثاله مما يُبيِّن أن من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه، لم يعارضه إلا بما هو جهلٌ بسيط، أو جهلٌ مركب:

فالأول: ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾[سورة النور، من الآية:٣٩].

والثاني: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾[سورة النور، من الآية:٤٠].

الشرح:

الثاني أي: المركب، الجهل المركب.

المتن:

وأصحاب القرآن والإيمان في نورٍ على نور.

الشرح:

(**في نورٍ على نور**)؛ كما في الآية التي قبل هذه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[سورة النور، من الآية:٣٥].

المتن:

وذلك لأن الآيات والبراهين دالةٌ على صدق الرسل وأنهم لا يقولون على الله إلا الحق، وأنهم معصومون فيما يُبلِّغون عن الله من الخبر والطلب، لا يجوز أن يستقر في خبرهم عن الله شيءٌ من الخطأ كما اتفق على ذلك جميع المقرين بالرسل من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم، فوجب أن كل ما يُخبر به الرسول عن الله صدقٌ وحقٌ لا يجوز أن يكون في ذلك شيءٌ مناقضٌ لدليلٍ عقليٍ ولا سمعي، فمتى علم المؤمن بالرسول أنه أخبر بشيءٍ من ذلك جزم جزمًا قاطعًا أنه حق، وأنه لا يجوز أن يكون في الباطن بخلاف ما أخبر به، وأنه يمتنع أن يعارضه دليلٌ قطعيٌ ولا عقليٌ ولا سمعي، وأن كل ما ظن أنه عارضه من ذلك فإنما هو حججٌ داحضة، وشبهٌ من جنس شبه السفسطائية، وإذا كان العقل العالم بصدق الرسول قد شهد له بذلك، وأنه يمتنع أن يعارض خبره دليلٌ صحيح، كان هذا العقل شاهدًا بأن كل ما خالف خبر الرسول فهو باطل، فيكون هذا العقل والسمع جميعًا شهدا ببطلان العقل المخالف للسمع، انتهى.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين تكلم عن الفلاسفة: ثم إنه ليس عندهم من المعقول ما يعرفون به أحد الطرفين، فيكفي في ذلك إخبار الرسل عن خلق السماوات والأرض وحدوث هذا العالم، والفلسفة الصحيحة المبنية على المعقولات المحضة، توجب عليهم تصديق الرسل فيما أخبروا به، وتُبيِّن أنهم علموا ذلك بطريقٍ يعجزون عنها، وأنهم أعلم بالأمور بالإلهية والمعاد، وما يُسعد النفوس ويشقيها منهم، وتدلهم على أن من اتبع الرسل كان سعيدًا في الآخرة، ومن كذبهم كان شقيًا في الآخرة، وأنه لو علم الرجل من الطبيعيات والرياضيات ما عسى أن يعلم وخرج عن دين الرسل كان شقيًا، وأن من أطاع الله ورسوله بحسب طاقته كان سعيدًا في الآخرة، وإن لم يعلم شيئًا من ذلك.

الشرح:

هذه فائدة، يعني (**لو علم الرجل من الطبيعيات**)؛ العلوم الطبيعية، وأيضًا علوم الرياضيات، وغيرها من العلوم الدنيوية (**ما عسى أن يعلم**)؛ يعني: لو علم من هذا الشيء الكثير، وتوسع في هذا العلم، (**وخرج عن دين الرسل كان شقيًا**)؛ في الدنيا والآخرة.

(ومن أطاع الله ورسوله بحسب طاقته كان سعيدًا في الآخرة، وإن لم يعلم شيئًا من ذلك)؛ وهذا فيه أن سعادة الخلق إنما هي باتباع الرسل، والتسليم لما جاءوا به.

المتن:

ولكن سلفهم أكثروا الكلام في ذلك؛ لأنهم لم يكن عندهم من آثار الرسل ما يهتدون به إلى توحيد الله وعبادته وما ينفع في الآخرة، وكان الشرك مستحوذًا عليهم، وكان منتهى عقلهم أمورًا عقليةً كلية، كالعلم بالوجود المطلق وانقسامه إلى علةٍ ومعلولٍ وجوهرٍ وعرض، وتقسيم الجواهر ثم تقسيم الأعراض، وهذا هو عندهم الحكمة العليا والفلسفة الأولى، ومنتهى ذلك العلم بالوجود المطلق الذي لا يوجد إلا في الأذهان دون الأعيان، ليس فيها علمٌ بموجودٍ معينٍ لا بالله وبملائكته ولا بغير ذلك، وليس فيها محبةٌ لله ولا عبادة له، فليس فيها علمٌ نافع، ولا عملٌ صالح، ولا ينجي النفوس من عذاب الله؛ فضلًا عن أن يوجب لها السعادة.

الوجه السادس والسبعون: قال شيخ الإسلام: من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنه يجب على الخلق الإيمان بالرسول إيمانًا مطلقًا جازمًا عامًا بتصديقه في كل ما أخبر به، وطاعته في كل ما أمر، وأن كل ما عارض ذلك فهو باطل، وأن من قال: يجب تصديق ما أدركته بعقلي، وردَّ ما جاء به الرسول لرأيي وعقلي، وتقديم عقلي على ما أخبر به الرسول مع تصديقي بأن الرسول صادقٌ فيما أخبر به، فهو متناقضٌ فاسد العقل ملحدٌ في الشرع.

وأما من قال لا أصدق ما أخبر به حتى أعلمه بعقلي فكفره ظاهر، وهو ممن قيل فيه: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٢٤]، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة غافر، من الآية:٨٣]، ومن عارض ما جاءت به الرسل برأيه فله نصيب من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [سورة غافر، من الآية:٣٤]؛ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [سورة غافر، من الآية:٥٦]، والسلطان هو الكتاب المنزل من السماء، فكل من عارض كتاب الله المنزل بغير كتاب الله الذي قد يكون ناسخًا له أو مفسرًا له، كان قد جادل في آيات الله بغير سلطان أتاه، انتهى.

الوجه السابع والسبعون: جميع الأمم، أهل الأديان من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم حتى المشركين، متفقون على إثبات ربوبية الله، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، الخالق لكل شيء، الرازق المدبر لكل شيء،

وأئمتهم في هذا الأنبياء والمرسلون، وأهل الهدى من العلماء الربانيين، أهل العلوم الغزيرة والعقول الوافية والمعارف الصافية، الأولين منهم والآخرين على هذا الأصل العظيم، متفقون على علمٍ وبصيرةٍ ويقين، قد اطمأنت قلوبهم بذلك، وسكنت نفوسهم به، وصار في قلوبهم أكبر الحقائق وأصحها وأوضحها.

وخالفهم من هذا شرذمةٌ من زنادقة الدهريين الذين يقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[سورة الجاثية، من الآية:٢٤]؛ وسلك سبيلهم زنادقة الماديين، وهم لم يُنكروا ذلك عن علمٍ دلهم عليه، ولا سمعٌ، ولا عقلٌ، ولا فطرة، إنما هو مجرد استبعاداتٍ وجحودٍ ومكابرات.

الشرح:

(مجرد استبعاداتٍ)؛ يعني يقول: عقلي يستبعد هذا، وأن هذا بعيد عقلًا.

المتن:

ومع ذلك فأقوالهم فيما يُثبتون من النظريات والقول في العلل غير متفقة، كل فريقٍ بنظرياتهم الخاطئة فرحون، ولإخوانهم من الزنادقة معارضون، فدعهم في طغيانهم يعمهون، وفي اضطرابهم وتخالفهم يترددون، وفي غيهم وجهلهم وسفاهة عقولهم وما انتهت إليه معارفهم في هذا الأمر من المضحكات يمرحون، وأحمد الله الذي عافاك من هذه البلية الشنعاء والطامة الكبرى، وقل معترفًا بنعمة الله متبجحًا بفضل الله: آمنت بما أنزل الله من كتبه السماوية، وآمنت بجميع الأنبياء والمرسلين، وشهدت بما شهد به لنفسه وشهد به خيار خلقه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[سورة آل عمران، من الآية:١٨]؛ ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[سورة آل عمران، من الآية:٥٣].

الوجه الثامن والسبعون: أن الله ضرب الأمثال في كتابه لتقرير التوحيد، وتقرير الرسالة والمعاد، وإبطال قول من ينفيها أو يقدح في شيءٍ منها، والأمثال أقيسةٌ عقلية تنبه العقول والفطر على تقرير الحق والاعتراف به وإبطال الباطل، وكلها تُبطل أقوال المشركين والمكذبين للرسل من مشركين وملحدين ومنحرفين.

الشرح:

والقرآن فيه أمثال كثيرة جدًا ضربها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في تقرير التوحيد وإبطال ضده، والإنكار على الجاحدين والمعارضين، وفي القرآن في هذا الباب ما يزيد على الأربعين مثل، قد جمعها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وشرحها شرحًا

لطيفًا في كتابه: [**إعلام الموقعين**]، جمع الأمثال وشرحها شرحًا نافعًا جدًا ومفيدًا، وجُلّ هذه الأمثال في تقرير التوحيد وإبطال ما يضاده.

المتن:

كقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [سورة الحج، من الآية:٣١]، وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [سورة الحج، من الآية:٧٣]، وقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [سورة الزمر، من الآية:٢٩]؛ إلى غير ذلك من الأمثلة المقررة لهذه الأصول العظيمة المبطلة لأقوال المبطلين والمعطلين، وكذلك ما ضربه الرسول محمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأمثلة المقررة لأصول الدين.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والكتاب والسُّنَّة يدل بالأخبار تارةً، ويدل بالبينة تارةً، والإرشاد والبيان للأدلة العقلية تارة، وخلاصة ما عند أرباب النظر العقلي في الإلهيات من الأدلة اليقينية والمعارف الإلهية، قد جاء به الكتاب والسُّنَّة مع زياداتٍ وتكميلاتٍ لم يهتد إليها إلا من هداه الله بخطابه، فكل ما قد جاء به الرسول من الأدلة العقلية، والمعارف اليقينية فوق ما في عقول جميع العقلاء من الأولين والآخرين، انتهى.

وقال أيضًا: معلومٌ بالسمع اتصاف الله بالأفعال الاختيارية القائمة به؛ كالاستواء إلى السماء وعلى العرش، والقبض، والطيِّ، والإتيان، والمجيء، والنزول ونحو ذلك، بل والخلق والإحياء والإماتة، فإن الله وصف نفسه بالأفعال اللازمة والمتعدية.

الشرح:

اللازمة مثل: الاستواء.

والمتعدية مثل: الخلق والرزق.

المتن:

والفعل المتعدي مستلزمٌ للفعل اللازم، فإن الفعل لا بد له من فاعل؛ سواءٌ كان متعديًا إلى مفعول أو لم يكن، والفاعل لا بد له من فعلٍ؛ سواءٌ كان فعله مقتصرًا عليه أو متعديًا إلى غيره، والفعل المتعدي إلى غيره لا يتعدى

حتى يقوم بفاعله إذ كان لا بد من الفاعل، وهذا معلومٌ سمعًا وعقلًا، والله تعالى حيٌّ قيومٌ لم يزل موصوفًا بأنه يتكلم بما شاء فعالٌ لما يشاء، انتهى.

الوجه التاسع والسبعون: قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[سورة الأحزاب، من الآية:٤]، وقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [سورة الفرقان، من الآية:٣٣]، فأخبر أنه يقول الحق، وهو الصدق فيما أخبر به، والعدل فيما حكم به، وأنه يهدي السبيل؛ فيُبيِّن لعباده البراهين والأدلة الدالة على الحق، ويُرى العباد آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيَّن لهم أنه الحق، وما أخبر به من الحق، ودل عليه بالبراهين من العلوم النافعة والمعارف الصادقة مما يقرر به جميع الأصول التي هدى بها عباده على ألسنة رسله، وما أجاب به كل مبطلٍ أورد الشبه على الحق، الجواب القاطع لشبهته المبطل لحجته، فهو ظاهرٌ واضحٌ للعباد، وهو من الحقائق التي لا يمكن تغييرها ولا تبديلها ولا قيام علمٌ صحيحٍ ينافيها، بل كل ما خالفها وناقضها علمنا بطلانه على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل.

أما على وجه الإجمال: فالله يقول الحق: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[سورة الأنعام، من الآية:١١٥]؛ فكل ما ناقض ذلك فهو باطل، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟

وأما على وجه التفصيل: فما يأتي المبطلون بمثلٍ يقدحون فيه بالحق إلا أبطله الله، وذكر من البراهين السمعية والعقلية ما يُبطله، وقد تتبع العلماء الأعلام جميع ما أورده المبطلون مسألةً مسألة؛ فوضحوا بطلانها من جهة الدلالة الشرعية السمعية، ومن جهة الدلالة العقلية، وتحدّوا أهل الباطل تحديًا صحيحًا أنهم لا يأتون بمثلٍ يقدحون فيه بالحق إلا أبطلوه بالبراهين اليقينية، والله أعلم.

الوجه الثمانون: قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[سورة الأنبياء، من الآية:٢٢]؛ وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية:٩١]؛ وهذا برهانٌ عقليٌ قاطع صوره الله لعقول العقلاء، وأنه يدل على ربوبية الله ووحدانيته، وتوحده وتفرده بالتدبير، فإنه لو فُرض معه إلهٌ آخر، فإما أن يعارضه ويقاومه؛ وحينئذٍ لا يخلو إما أن يحصل مراد أحدهما فيكون هو الرب، أو يمتنع مراد كلٍ منهما وهو محال؛ لأنه يدل على عجز كلٍ منهما، أو يوجد مراد الجميع وهذا محال؛ لأنه يقتضي عجز كل واحد منهما مع الانفراد لا مع الاجتماع، فتعين أن المنفرد بالوحدانية والخلق والتدبير هو الله الواحد القهار، فإذا كان ما ادعاه المشركون من مشاركة غير الله مع

الله يقتضي في العقل المحال وخراب الوجود، فكيف يكون حال الدهريين الماديين الذين يزعمون ويفترون أن الطبيعة هي التي أوجدت جميع الموجودات ذواتها وأفعالها وصورها، وهي مع ذلك لا حياة لها، ولا علم، ولا قدرة، هل فوق هذا المحال محال؟ وهل يُتصور أبلغ من هذا الضلال؟

الوجه الحادي والثمانون: قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [سورة السجدة، من الآية:٤]، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [سورة الرعد، من الآية:٢]؛ فهاتان الآيتان العظيمتان، اللتان تجمعان آياتٍ كثيرة وبراهين قاطعة توصل إلى كمال العلم واليقين، وصحة ما جاء به الأنبياء والمرسلون، وتُبطل كل شركٍ وإلحادٍ وجحود، آياته المشهودة وآياته المسموعة، فمن تأمل هذه المخلوقات وما احتوت عليه من التدابير الحكمية، وتفكر في آيات الله القرآنية التي فصلها الله أحسن تفصيل، وأحكم فيها الأحكام، وأصَّل الأصول المحكمة، وجعلها هدايةً عامة، ورحمةً شاملة، ودعوةً إلى كل خيرٍ وصلاح، وسببًا إلى كل رشدٍ وهدىً وفلاح، علم علمًا لا يُمترى فيه أن الذي دبَّر المخلوقات، وفصَّل الآيات هو الرب العظيم، الذي تتضاءل عظمة المخلوقات بأسرها عند عظمته، وأنه المتوحد بالربوبية والإلهية وسائر صفات الكمال، وأن رسله صادقون مصدقون، وأن أعداء الرسل في مكابرةٍ ومباهتاتٍ وعناد، وفي غيٍّ وجهلٍ وضلال.

وفِي كلِّ شيءٍ لَهُ آية ** تَدُلّ على أنّهُ الواحِدُ

﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية:١٠]؛ على أحسن خلقٍ وأبدعه وأجمعه لجميع المحاسن، وأدله على حكمة خالقه وعظمته وكبريائه ووحدانيته، فتبارك الله رب العالمين، وقد ألزم الله المكذبين وقررهم باعترافهم واعتراف الخلق كلهم بتفرد الله بالخلق والتدبير، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٣١]؛ إلى قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية:٣٥]، كما أخبر أن في إنزال القرآن يُتلى عليهم كفايةً تامةً عن جميع البراهين، كفايةً لتقدير الحق وإبطال كل باطل، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة العنكبوت، من الآية:٥١].

الشرح:

الآية التي صدَّر بها هذا الوجه كأن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتبها من حفظه؛ لأن قوس عليها عندي على أنها آية واحدة؛ فدخل عليه آية الرعد في أولها مع آية السجدة، فأولها في سورة السجدة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[سورة السجدة، من الآية:٤]؛ وآخرها: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[سورة الرعد، من الآية:٢]؛ هذا في أول الرعد، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[سورة الرعد، من الآية:٢].

المتن:

الوجه الثاني والثمانون: نذكر كلامًا جامعًا مفصلًا يعترف به كل من له معقولٌ صحيح في القول في المعقولات، قاله شيخ الإسلام به يتضح غاية الاتضاح أن جميع الملحدين خرجوا من العقليات الصحيحة، وأنه ليس معهم إلا مجرد دعاوى باطلة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المعقول هو المعقول الصريح الذي يعرفه الناس بفطرهم التي فُطروا عليها، من غير أن يتلقاه بعضهم عن بعض، كما يعلمون تماثل المتماثلين واختلاف المختلفين، أعني اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد والتباين، فإن لفظ الاختلاف يُراد به هذا وهذا، وهذه المعقولات في العمليات هي التي ذم الله من خالفها بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[سورة الملك، من الآية:١٠].

الشرح:

يعني: يقرون يوم القيامة أنهم ما كانوا يعقلون، مع أنهم كانوا يظنون أنفسهم أنهم من أرباب العقول.

المتن:

وأما ما يسميه بعض الناس "معقولات" ويخالفه فيه كثيرٌ من العقلاء، فليس هذا هو العقليات التي يجب لأجلها رد الحس والسمع وينبني عليه علوم بني آدم، بل المعقولات الصحيحة الدقيقة الخفية ترد إلى معقولاتٍ بديهيةٍ أولية، بخلاف العقليات الصريحة، فإن هذا معلومٌ بفطرة الله، فإذا جاء في الحس، أو في الخبر الصحيح ما يُظن أنه يُخالف ذلك عُلم أنه غلط، فكل من أخبر بما يخالف صحيح المنقول، أو صريح المعقول يُعلم أنه وقع له غلط، وإن كان صادقًا فيما يشهده في الحس الباطن أو الظاهر، لكن الغلط وقع في ظنه الفاسد المخالف لصريح العقل لا في مجرد الحس، فإن الحس ليس فيه علمٌ بنفيٍ أو إثبات، والأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- معصومون لا يقولون على الله إلا الحق، ولا ينقلون عنه إلا الصدق، فمن ادعى في أخبارهم

ما يناقض صريح المعقول كان كاذبًا، بل لا بد أن يكون ذلك المعقول ليس بصريح، أو ذلك المنقول غير صحيح، فما عُلم يقينًا أنهم أخبروا به يمتنع أن يكون في العقل ما يناقضه، وما عُلم يقينًا أن العقل حكم به يمتنع أن يكون في أخبارهم ما يناقضه، انتهى.

وهذا تفصيلٌ عظيم يعترف به جميع أذكياء العقول المنصفين، ويتحدى به المؤمنون أهل العلم كل ملحدٍ ومارق يزعم خلاف ذلك في جميع المسائل، وقد تكفل بهذا التحدي على وجه التفصيل هذا الشيخ الإمام في كتابه: [**العقل والنقل**]، وأبطل كل مسألةٍ أصوليةٍ أو فروعيه، زعم بعض المتحذلقين مخالفتها للعقل، وبيَّن أن العقل الصريح موافقٌ للنقل الصحيح في جميع المسائل والدلائل، والحمد لله على شرعه الكامل وخلقه الحسن، فإنه تمت كلمة ربك صدقًا وعدلًا ومن أصدق من الله قيلًا، وأحسن منه حديثًا؟ ومن أحسن من الله حكمًا لقومٍ يوقنون، الذي أحسن كل شيء خلقه صنع الله الذي أتقن كل شيء.

الوجه الثالث والثمانون: قد تقرر مما تقدم أن أهل الجحود والإلحاد لم يصلوا في علومهم إلا إلى جهلٍ مركب، أو جهلٍ بسيط، أو جحودٍ مع العناد؛ لأن رؤسائهم وأساطينهم أهل الذكاء والفطنة الذين أفنوا أوقاتهم في هذه البحوث، لم يصلوا إلى يقينٍ تطمئن له قلوبهم، بل إما إلى حيرةٍ وارتياب، وإما إلى اختلافٍ كثيرٍ واضطراب، وإما مكابرةٍ من هؤلاء الأحزاب، كما عُرف ذلك من مقالاتهم، فإذا كان هؤلاء هم الرؤساء فكيف بمقلديهم الذين لم يبلغوا عشر معشارهم من الذكاء والفطنة والبحث؟ فهم كما قال عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾[سورة النور، من الآية:٣٩]؛ إلى آخر الآيات.

والمؤمنون بالله وكتبه ورسله على نورٍ من ربهم ويقينٍ من إيمانهم، حيث بنوا علومهم ومعارفهم وإيمانهم وأعمالهم على الأصول الصحيحة الثابتة، وهي نصوص الكتب المنزلة من السماء، ونصوص الأنبياء، وآيات الله في الأنفس والآفاق، والعقول السليمة والفطر المستقيمة، ففازوا بخير الدنيا والآخرة، ورجع الآخرون بالصفقة الخاسرة.

فنسأل الله الرب الكريم أن يرزقنا علمًا ويقينًا وإيمانًا وطمأنينة به وبذكره، وسلوكًا للصراط المستقيم المشتمل على العلم بالحق والعمل به، الموصل إلى كل خيرٍ وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا من لدنه رحمه إنه هو الوهاب، ونسأله ونرجوه أن ينصر دينه وكتابه ورسله وعباده المؤمنين، وأن يُصلي على رسوله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أفضل صلاةٍ وأزكاها وأتمها، ويُسلم عليه تسليمًا كثيرًا هو وجميع الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم من طبقات المؤمنين، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتحصل البركات.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر لسعدي، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، وذلك في ١٤ رجب سنة ١٣٧٢هـ.

وتم نقله من خط المؤلف الشيخ عبد الرحمن في ٦ رمضان سنة ١٣٧٢ هـ، بقلم الفقير إلى الله: عبد الله سليمان العبد الله السلمان، غفر الله له ولوالديه.

الشرح:

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وبأنه الله الذي لا إله إلا هو أن يجزي الشيخ عبد الرحمن السعدي خير الجزاء على هذا الجمع والتقرير والبيان، وإظهار هذه الأدلة، وأيضًا عنايته بجمع دقيق من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في إبطال الإلحاد وبيان فساده من هذه الوجوه التي تزيد على الثمانين وجهًا.

ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا وتوفيقًا، وأن يُصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

وقبل أن أختم أنبه أننا اعتبارًا من الغد نقرأ بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتاب الشيخ الآخر الذي هو: [**الدرة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي**]، وهي موجودة مع غالب الإخوة في المجموع الذي بأيديهم؛ فنقرأ في هذه الرسالة اعتبارًا من الغد بإذن الله.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.